تفسير سورة يونس

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ
مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ
ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ
إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ
جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا
كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس: ١-٤].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿تِلْكَ - ءَايَٰتُ - ٱلْكِتَٰبِ - ٱلْحَكِيمِ - عَجَبًا - أَوْحَيْنَآ - أَنذِرِ ٱلنَّاسَ - قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ - ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ - يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ - شَفِيعٍ - ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ - تَذَكَّرُونَ - يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ - ثُمَّ يُعِيدُهُۥ - بِٱلْقِسْطِ - حَمِيمٍ - أَلِيمٌ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تِلْكَ﴾	هذه – وأيضًا إشارة إلى مؤنث غائب.
﴿ءَايَٰتُ﴾	علامات ودلالات.
﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾	القرآن.
﴿ٱلْحَكِيمِ﴾	المحكَم المبين – الموضَّح.
﴿عَجَبًا﴾	مثارًا للتعجب.
﴿أَوْحَيْنَآ﴾	أرسلنا ملكًا يوحي وحينا إلى بشر.
﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾	خوِّف الناس وحذرهم.
﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾	ثواب عملهم الصالح ينتظرهم ويتقدمهم.
﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾	علا وارتفع على العرش.
﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾	يدبر أمر المخلوقات – يرزقهم ويعافيهم فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويحيي ويميت ويعز ويذل ويرفع ويخفض إلى غير ذلك.

﴿شَفِيعٍ﴾	شافع يشفع لكم.
﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾	هذا هو الله ربكم.
﴿تَذَكَّرُونَ﴾	تتعظون.
﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾	يخلق الخلق لأول مرةٍ – يبتدأ خلقهم.
﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾	ثم يعيدهم أحياء بعد موتهم (يوم القيامة).
﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾	بالعدل – بالحق
﴿حَمِيمٖ﴾	ماءٌ أُغلي حتى بلغ أعلى درجات حرارته.
﴿أَلِيمُۢ﴾	مؤلمٌ موجعٌ.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ ؟

ج: معناها موكولٌ إلى الله سبحانه وتعالى.

وحاصل الأمر: أنها أَحرفٌ مقطعة بُدئت بها بعض السور وقد سيقت للتحدي، وكأن المعنى ألف ولام وراء أحرف تعرفونها تقرؤونها وتكتبونها ولكن لا تستطيعوا أن تأتوا منها بآية ولا بسورة. والله أعلم.

هذا، ومن العلماء من قال: إن معناها: أنا الله أرى.

وقال آخرون: هي حروف من اسم الله الذي هو الرحمن.

وقال آخرون: هي اسم من أسماء القرآن.

والأظهر ما قدمته، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾؟

ج: معناها: هذه، وقيل: إنها على بابها: إشارة إلى غائبٍ مؤنث.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ماذا؟

ج: قيل: إشارة إلى ﴿الٓرۚ﴾ وأخواتها من الحروف (حروف الهجاء) أي: تلك الحروف المبتدئة بها بعض السور.

وقيل: إشارة إلى القصص التي تسمعونها في القرآن.

وقيل: إشارة إلى عموم الآيات التي جرى ذكرها من القرآن.

وقيل: المراد هذه الآيات التي في القرآن عمومًا سواء التي نزلت أو التي ستنزل.

❁ وهذا القول الأخير هو الذي أجنح إليه وأميل والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ﴾؟

ج: المـراد أعـلام ودلالات، أي: أعـلام ودلالات علـى وحدانيـة الله ﷻ وعلى صدق رسوله ﷺ فيما أخبر به.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بـ: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

ج: لأهل العلم قولان:

أظهرهما وأصحهما: أنه القرآن، وبهذا قال أكثر أهل العلم.

الثاني: أنه التوراة والإنجيل. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾.

ج: قـال عـددٌ مـن أهـل العلـم إن المـراد بـالحكيم المُحكَـم، وكـذا المبـيَّن الموضَّح أحكمه الله ﷻ ووضَّحه لعباده وبيَّنه لهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنـى﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، في هـذا الموضـع، «المحكـم»، صـرف «مُفْعَـل» إلـى «فعيل»، كما قيل: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، بمعنى مؤلم، وكما قال الشاعر:

أمِـنْ رَيْحانَـةَ الـدَّاعِي السَّـمِيعُ

وقد بينا ذلك في غير موضع من الكتاب.

فمعناه إذًا: تلك آيات الكتاب المحكم، الذي أحكمه الله وبينه لعباده، كما قال جل ثناؤه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والحكيم: المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ؛ قاله أبو عبيدة وغيره. وقيل: الحكيم بمعنى الحاكم ؛ أي إنه حاكم بالحلال والحرام، وحاكم بين الناس بالحق ؛ فعيل بمعنى فاعل. دليله قوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه ؛ فهو فعيل بمعنى المفعول ؛ قاله الحسن وغيره. وقال مقاتل: الحكيم بمعنى المحكم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف ؛ فعيل بمعنى مفعل، كقول الأعشى يذكر قصيدته التي قالها:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة ... قد قلتها ليقال من ذا قالها

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: هذه الآيات التي تلوتها عليكم والتي ستتلى عليكم، هي آيات القرآن الكريم المحكَم المبيَّن الموضَّح الذي أوضح الله فيه العقائد الصحيحة، والحلال والحرام، والأخبار والقصص الصحيحة، وغير ذلك من أمور الجنة والنار والبعث والنشور وغير ذلك، هذه الآيات هي أعلام على وحدانية الله ﷻ وعلى صدق رسوله ﷺ فيما أخبر به، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المراد بقدم الصدق

س: ما المراد بـ ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بذلك أجر الأعمال الصالحة التي عملوها في الدنيا، فهذا الأجر ينتظرهم فالمعنى: أن لهم أجرًا حسنًا بما قدموه من صالح الأعمال.

وهذا القول هو أظهر الأقوال وعليه أكثر العلماء.

الثاني: أن المراد بقدم الصدق ما سبق لهم في علم الله ﷻ، وأُثبت في اللوح المحفوظ من السعادة التي كتبت لهم.

الثالث: أن محمدًا ﷺ شفيع لهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: أن لهم أعمالا صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثوابَ.

وذلك أنه محكيٌّ عن العرب: «هؤلاء أهْلُ القَدَم في الإسلام» أي هؤلاء الذين قدَّموا فيه خيرًا، فكان لهم فيه تقديم. ويقال: «له عندي قدم صِدْق، وقدم سوء»، وذلك ما قدَّم إليه من خير أو شر، ومنه قول حسان بن ثابت:

لَنَا القَدَمُ العُلْيَا إلَيْكَ وَخَلْفُنَا ... لأوّلِنَا فِي طاعَةِ اللهِ تَابِعُ

وقول ذي الرمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أنَّهَا ... مَعَ الحَسَبِ العَادِيِّ طمَّتْ عَلَى

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذًا: وبشر الذين آمنوا أنّ لهم تقدِمة خير من

الأعمال الصالحة عند ربِّهم.

قلت (مصطفى): وهناك أقوال أُخر ذكرها العلماء:

منها: مقام صدق لا يتحولون عنه (وهو الجنة).

ومنها: سلف صالح تقدمهم.

ومنها: المنزلة الرفيعة العالية.

ومنها: الولد الصالح الذي مات في حياتهم.

ومنها: دعوة الملائكة لهم.

❊ ❊ ❊

تعجب الكفار من إرسال رسولٍ بشرى إليهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾.

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: أكان شيئًا مثيرًا للعجب، لعجب الناس، أو أوحينا إلى رجل منهم، من البشر وأمرناه أن ينذر الناس، يخوفهم من عقاب الله إن هم أشركوا بالله وعصوه وكذبوا، وأن يبشر الموحدين المطيعين المؤمنين بأن لهم أجرًا حسنًا إن هم أطاعوا وعملوا صالحًا، أكان هذا أمرًا مثيرًا للعجب؟!!

* أيثير العجب أن يُبَشَّر الصالحُ بأجر عمله الصالح؟!!
* أيثير العجب أن يُحذر ويُنذر الظالم حتى يقلع عن ظلمه؟!!
* أيثير العجب أن يُقال إن الله واحدٌ فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا؟!!
* أيثير العجب أن يُحذَّر الناس رجلٌ منهم؟!!

كلَّا، بل يعمل هذا على شكر الله ﷻ، ويحمل على تصديق رسله، ولكن أبى الظالمون إلا كفورًا، فوصفوا الرسول الذي بعثه الله ﷻ منذرًا ومبشرًا وصفوه، ووصفوا ما جاءهم به من الآيات بشر وصف، وصفوه بأنه ساحر، ووصفوا الآيات بأنها سحر، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ لساحرٌ مظهر بما جاء به أنه ساحر لا شك في ذلك. هكذا قالوا ولئس ما قالوا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية الكريمة:

وقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية، يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦] وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن

رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمۡ ﴾ [الأعراف: ٦٣: ٦٩] وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ ﴾ [ص: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم، رجلا من جنسهم، بشيرا ونذيرا، ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

❁ ❁ ❁

شيء من عظمة الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾؟

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: إن ربّكم، مالككم ورازقكم وخالقكم ومربيكم بنعمه هو الله ﷻ، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش علا وارتفع على العرش استقراء يليق بكماله وجلاله، يُدبر أمر الخلائق كلها، ويدبر الأمور جميعها من السماء إلى الأرض، ليس لكم من شافع يشفع لكم عنده إلا إذا أذن كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ذلكم الله ربكم الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا أفلا تتعظون وتعتبرون؟!!

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن ربكم الذي له عبادة كل شيء، ولا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير، ثم استوى على عرشه مدبرًا للأمور، وقاضيًا في خلقه ما أحبّ، لا يضادُّه في قضائه أحدٌ، ولا يتعقب تدبيره مُتَعَقِّبٌ، ولا يدخل أموره خلل. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، يقول: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد، إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، يقول جل جلاله: هذا الذي هذه صفته، سيِّدكم ومولاكم، لا من لا يسمع ولا يبصر ولا يدبِّر ولا يقضي من الآلهة والأوثان ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، يقول: فاعبدوا ربكم

الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا لـه الألوهية والربوبية، بالذلة منكم لـه، دون أوثانكم وسائر ما تشركون معه في العبادة ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، يقول: أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنيبون إلى الإذعان بتوحيدِ ربكم وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها؟

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خَلَق السموات والأرض في ستة أيام - قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. كما سيأتي بيانه ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

وقال أيضًا:

وقولـه: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾ أي: يدبر أمر الخلائق، ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلّطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار، ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ [هود: ٦]. ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال:

وقوله: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقوله تعالى: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦ ﴾ [النجم: ٢٦] وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: أفردوه بالعبادة

وحده لا شريك له، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مبينا لربوبيته وإلهيته وعظمته: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ في العالم العلوي والسفلي من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي هذا شأنه ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

﴿ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

❀ ❀ ❀

ذكر بعض العلة من البعث

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: إلى الله ﷻ مصيركم جميعًا فإليه تعودون بعد مماتكم، وهذا وعدٌ لا يتخلف، بل وعدٌ حق وهو على ذلك قادر فهو الذي بدأ الخلق أول مرة، وأنشأهم وأوجدهم ثم هو يعيدهم وهذا أيسر عليه وأسهل، يُعيدهم ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، بالحق والعدل، وكذا ليخزي أهل الكفر بالحق والعدل، ومن الحق والعدل، أنهم يجازون على كفرهم بشراب من حميم، من ماءٍ قد غُلي وسخِّن حتى بلغ أقصى درجات حرارته ولهم عذابٌ مؤلمٌ موجعٌ بسبب كفرهم وجحودهم لآيات الله ﷻ وإنكارهم لها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إلى ربكم الذي صفته ما وصَفَ جل ثناؤه في الآية قبل هذه، معادُكم، أيها الناس، يوم القيامة جميعًا. ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ فأخرج ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ مصدَّرًا من قوله: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾، لأنه فيه معنى «الوعد»، ومعناه: يعدكم الله أن يحييكم بعد مماتكم وعدًا حقًّا، فلذلك نصب ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ ﴿ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يقول تعالى ذكره: إن ربكم يبدأ إنشاء الخلق وإحداثه وإيجاده ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾، يقول: ثم يعيده فيوجده حيًّا كهيئته يوم ابتدأه، بعد فنائه وبَلائِه.

وقال:

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾، يقول: ثم يعيده من بعد مماته كهيئته قبل مماته عند بعثه من قبره ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليثيب من صدّق الله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به من الأعمال، واجتنبوا ما نهاهم عنه، على أعمالهم الحسنة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يقول: ليجزيهم على الحسن من أعمالهم التي عملوها في الدنيا الحسنَ من الثواب، والصالحَ من الجزاء في الآخرة وذلك هو «القسط»، و«القسط» العدلُ والإنصاف.

وقال:

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾، فإنه جل ثناؤه ابتدأ الخبر عما أعدَّ الله للذين كفروا من العذاب، وفيه معنى العطف على الأول. لأنه تعالى ذكره عمَّ بالخبر عن معادِ جميعهم، كفارهم ومؤمنيهم، إليه. ثم أخبر أن إعادتهم ليجزي كلَّ فريق بما عمل المحسنَ منهم بالإحسان، والمسيءَ بالإساءة. ولكن لما كان قد تقدم الخبر المستأنفُ عما أعدّ للذين كفروا من العذاب، ما يدلُّ سامعَ ذلك على المرادِ، ابتدأ الخبر، والمعنيُّ العطف فقال: والذين جحدوا الله ورسولَه وكذبوا بآيات الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾ في جهنم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وذلك شراب قد أُغلي واشتدّ حره، حتى إنه فيما ذكر عن النبي ﷺ ليتساقطُ من أحدهم حين يدنيه منه فروةُ رأسه، وكما وصفه جل ثناؤه: ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾، [الكهف: ٢٩].

وأصله: «مفعول» صرف إلى «فعيل»، وإنما هو «محموم»: أي مسخّن، وكل مسخَّن عند العرب فهو حميم، ومنه قول المرقش:

وَكُلَّ يَوْمٍ لَهَا مِقْطَرَةٌ ... فِيهَا كِبَاءٌ مُعَدٌّ وَحَمِيمْ

يعني بـ «الحميم»، الماء المسخَّن.

وقوله: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يقول: ولهم مع ذلك عذاب موجع، سوى الشراب من الحميم، بما كانوا يكفرون بالله ورسوله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]. ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم، لميقات يوم معلوم.

﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثلين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. وقد

ذكر الدليل النقلي فقال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، من واجبات، ومستحبات، ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء. ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

❁ ❁ ❁

س: لماذا خُصَّ أهل الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى يجزيهم بالقسط ولم يذكر ذلك في شأن أهل الكفر مع أن الله ﷻ حكم عدلٌ؟

ج: نعم الله ﷻ حكم عدل لا يظلم ربنا أحدًا ولكن ذكر بعض أهل العلم هنا إنه اقتصر على شأن القسط في حال المؤمنين، مع أنه يقضي بالقسط مع كل أحدٍ، لبيان ما سيحل بالكفار من العقاب، وإلى هذا أشار ابن الجوزي فيما أورده عن ابن الأنباري.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

فإن قيل: كيف خص جزاء المؤمنين بالعدل وهو في جزاء الكافرين عادل أيضًا:

فالجواب: أنه لو جمع الفريقين في القسط، لم يتبيَّن في حال اجتماعهما ما يقع بالكافرين من العذاب الأليم والشرب من الحميم، ففصلهم من المؤمنين ليبين ما يجزيهم به مما هو عدل أيضًا، ذكره ابن الأنباري. فأما الحميم، فهو الماء الحار. وقال أبو عبيدة: كل حار فهو حميم.

الاستدلال على البعث بالخلق الأول

س: كثيرًا ما يُستدل على البعث بالخلق الأول، دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ
٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا
كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩
دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾ [الملك: ٥ـ١١].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ضِيَآءً - وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ - يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ - ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ - يَتَّقُونَ - لَا يَرْجُونَ - وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا - يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ - جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ - دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ - وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ - وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ضِيَآءً﴾	مضيئة – ذات ضياء ﴿والضياء جمع ضوء﴾ كالسياط جمع سوط، والحياض جمع حوضٍ.
﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾	جعله ذا منازلٍ ينزلها كل ليلة.
﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾	يبين بعضها عن بعض ويفصل بعضها عن بعض، ويوضح بعضها عن بعض.
﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾	تفاوت ما بينها – هذا يطول وهذا يقصر، والعكس، وما بينهما من تفاوت في النور والظلام والحر والبرد وظهور الشمس نهارًا، والقمر ليلاً وغير ذلك.
﴿يَتَّقُونَ﴾	يبتعدون عن الشرك – يتقون عقاب الله.
﴿لَا يَرْجُونَ﴾	لا يخافون لقاءنا يوم القيامة.
﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾	ركنوا إليها.
﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾	يوفقهم ربهم في دنياهم ويزيدهم إيمانًا وهدًى. يرشدهم ربهم إلى طريق الجنان وإلى المرور على الصراط بسلامٍ.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾	جنات التنعم، يتنعمون فيها بكل صور النعيم الذي تشتهين أنفسهم وتكذبه أعينهم.
﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾	دعاؤهم إذا أرادوا شيئًا، وسؤالهم إذا أرادوا شيئًا تنزيهًا لك يا ربنا عنا لعجز، وعلى كل ما يصفك به الواصفون المشركون.
﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾	تحيتهم فيما بينهم بقول السلام عليكم، وكذا يحيهم ربهم بهذه التحية، وتحييهم الملائكة بها.
﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾	آخر دعائهم إذا أكلوا وشربوا وتمتعوا الحمد لله رب العالمين، وكذا يتعبدون لله بذلك دومًا.

❁ ❁ ❁

تعلم الحساب

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم: الله ﷻ هو الذي جعل الشمس مضيئة مشرقة ذات ضياء وجعل القمر منيرًا وذا نور، جعل للشمس سلطانًا، وذاك نهارًا، وجعل القمر سلطانًا وذاك يكون ليلًا، وقدَّر القمر منازل كما قال: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس: ٣٩]، أي: جعله ذا منازل فيبدو في أوله صغيرًا ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يتكامل ويكون بدرًا ثم يبدأ في النقصان شيئًا بعد شيء على أن يختفي ويتلاشى وهذا لتعلموا عدد السنين، فبظهور القمر وبضياء الشمس وإهلال الهلال تُعلم الأيام والشهور والسنوات كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكذا لتعلموا الحساب، حساب التواريخ والعِدد، عدد الحيض والطلاق، والصيام وغير ذلك ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ﴾ إلا للحق قيل: لم يخلق عبثًا ولم يخلقه سدًى بل لحكم عظيمة يعلمها سبحانه، منها لدلالة على قدرته والدلالة على وحدانيته، ومنها ليستدل بها على البعث، وقول يفصل الآيات والحجج ويوضحها ويُبينها لقوم يعلمون، أن الله واحد لا شريك له، وأنه على كل شيء قدير.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾، بالنهار ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ بالليل. ومعنى ذلك: هو الذي أضاء الشمسَ وأنار القمر ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾، يقول: قضاه فسوّاه منازلَ، لا يجاوزها ولا يقصر دُونها، على حالٍ واحدةٍ أبدًا.

وقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾، فوحّده، وقد ذكر «الشمس» و«القمر»، فإن في ذلك وجهين:

أحدهما: أن تكون «الهاء» في قوله:﴿وَقَدَّرَهُۥ ﴾ للقمر خاصة، لأن بالأهلة يُعرف انقضاءُ الشهور والسنين، لا بالشمس.

والآخر: أن يكون اكتفي بذكر أحدهما عن الآخر، كما قال في موضع آخر:﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾، [سورة التوبة: ٦٢]، وكما قال الشاعر:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي ... بَرِيًّا، وَمِنْ جُولِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

وقوله: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ ﴾، يقول: وقدّر ذلك منازل ﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾، أنتم أيها الناس ﴿ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ ﴾، دخول ما يدخل منها، أو انقضاءَ ما يستقبل منها، وحسابها، يقول: وحساب أوقات السنين، وعدد أيامها، وحساب ساعات أيامها ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ﴾، يقول جل ثناؤه: لم يخلق الله الشمس والقمر ومنازلهما إلا بالحق. يقول الحق تعالى ذكره: خلقت ذلك كله بحقٍّ وحدي، بغير عون ولا شريك ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يقول: يبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ ﴾، إذا تدبروها، حقيقةَ وحدانية الله وصحةَ ما يدعوهم إليه محمد ﷺ، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه،

وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]. وقال: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي: القمر ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي: لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقوله: ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ مفعولان، أي مضيئة، ولم يؤنث لأنه مصدر ؛ أو ذات ضياء ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ عطف، أي منيرا، أو ذا نور، فالضياء ما يضيء الأشياء، والنور ما يبين فيخفى، لأنه من النار من أصل واحد.

والضياء جمع ضوء ؛.... ثم قال:

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي ذا منازل، أو قدر له منازل. ثم قيل: المعنى وقدرهما، فوحد إيجازا واختصارا ؛ كما قال: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾. وكما قال:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

وقيل: إن الإخبار عن القمر وحده ؛ إذ به تحصى الشهور التي عليها العمل في المعاملات ونحوها، كما تقدم في «البقرة». وفي سورة يس: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] أي على عدد الشهر، وهو ثمانية وعشرون منزلا. ويومان للنقصان والمحاق، وهناك يأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ قال ابن عباس: لو جعل شمسين، شمسا بالنهار وشمسا بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل، لم يعلم عدد السنين وحساب الشهور..... وقال:

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي ما أراد الله ﷻ بخلق ذلك إلا الحكمة والصواب، وإظهارا لصنعته وحكمته، ودلالة على قدرته وعلمه، ولتجزى كل نفس بما كسبت ؛ فهذا هو الحق.

﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ تفصيل الآيات تبيينها ليستدل بها على قدرته تعالى، لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضيائه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب ؛ فيكون هذا لهم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع

ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الأحكام والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح -كجعل الشمس ضياء، والقمر نورا، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل- يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود والمحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات المربوبات، المفتقرات إلى الله في جميع شئونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة.

❁ ❁ ❁

بعض الدلالات على وحدانية الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: إن في تعاقب الليل والنهار واختلافهما في الطول والقصر فأحيانًا يقصر هذا ويطول ذاك، وأحيانًا فيعكس الأمر، وكذا في اختلاف ما فيهما من النور والظلام وظهور الشمس واختفاء القمر والنجوم، والعكس وما يصاحب ذلك من بردٍ وحرٍّ وغير ذلك، وكذا في عموم ما خلق الله في السموات والأرض من الدواب والنباتات والسحب والرياح والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر وسائر المخلوقات لدلالات على وحدانية الله ﷻ يستدل بها على قدرة الله ووحدانيته القوم المتقون الذين يتقون الشرك، ويتقون عقاب الله ﷻ ويحذرونه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره، منبِّهًا عبادَه على موضع الدّلالة على ربوبيته، وأنه خالق كلِّ ما دونه: إن في اعتقاب الليل النهارَ، واعتقاب النهار الليلَ، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خلق الله في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وفي الأرض من عجائب الخلق الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شيء ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، يقول: لأدلة وحججًا وأعلامًا واضحةً ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ الله، فيخافون وعيده ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم.

فإن قال قائل: أوَ لا دلالة فيما خلق الله في السموات والأرض على صانعه، إلا لمن اتقى الله؟

قيل: في ذلك الدلالة الواضحةُ على صانعه لكل من صحَّت فطرته، وبرئ من العاهات قلبه. ولم يقصد بذلك الخبرَ عن أن فيه الدلالة لمن كان قد أشعرَ نفسه تقوى الله وإنما معناه: إن في ذلك لآيات لمن اتَّقى عقاب الله، فلم يحمله هواه على خلاف ما وضحَ له من الحق، لأن ذلك يدلُّ كل ذي فطرة صحيحة على أن له مدبِّرًا يستحقّ عليه الإذعان له بالعبودة، دون ما سواه من الآلهة والأنداد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئا، كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [يوسف: ١٠٥].

وقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [سبأ: ٩]. وقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. أي: العقول، وقال هاهنا: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ أي: عقاب الله، وسخطه، وعذابه.

❊ ❊ ❊

تحذير الغافلين عن لقاء الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾﴾؟

ج: المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ: إن الذين لا يخافون لقاءنا يوم القيامة فلا يخشون بعثًا ولا حسابًا ولا يخافون لقاءنا وسؤالنا لهم عما عملوه في دنياهم وما اقترفوه من شركٍ وكفرٍ وتكذيب، ورضوا بحياتهم الدنيا وما فيها من الملاذ ولم يُلقوا للآخرة بالًا، بل ركنوا إلى الدنيا واطمأنوا إليها، وأعرضوا عن آياتنا وحججنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وتركوها خلف ظهورهم ولم يتفكروا في آيات الكتاب المنزل ولم يصدقوها، ولم يعتبروا كذلك بما حولهم من الآيات، وأولئك مصيرهم الذي يصيرون إليه، ومأواهم الذي يأوون إليه هو النار، جزاء بما اكتسبوه في دنياهم من الشرك والجرائم والكفر والتكذيب والظلم والعناد.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين لا يخافون لقاءَنا يوم القيامة، فهم لذلك مكذِّبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين الدنيا وزخارفها، راضون بها عوضًا من الآخرة، مطمئنين إليها ساكنين – والذين هم عن آيات الله – وهي أدلته على وحدانيته، وحججه على عباده، في إخلاص العبادة له ﴿غَٰفِلُونَ﴾، معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمُّل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلَّتهم عليه، ويعرفوا بها بُطُول ما هم عليه مقيمون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾،

يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صفتهم ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾، مصيرها إلى النار نار جهنم في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨﴾، في الدنيا من الآثام والأجْرام، ويجْترحون من السيئات.

والعرب تقول: «فلان لا يرجو فلانًا»: إذا كان لا يخافه.

ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾. [نوح: ١٣]، ومنه قول أبي ذؤيب:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يُرْجِ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئا، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها أنفسهم.

قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ ﴿يَرْجُونَ﴾ يخافون؛ ومنه قول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل

وقيل يرجون يطمعون؛ ومنه قول الآخر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع ؛ أي لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا. وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لهما. وقيل: يجري اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية ؛ أي لا يطمعون في رؤيتنا. وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد ؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]. وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كل موضع دل عليه المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي رضوا بها عوضا من الآخرة فعملوا لها. ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها، وأصل اطمأن طأمن طمأنينة، فقدمت ميمه وزيدت نون وألف وصل، ذكره الغزنوي. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي عن أدلتنا ﴿غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ لا يعتبرون ولا يتفكرون. ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ﴾ أي مثواهم ومقامهم. ﴿النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ أي من الكفر والتكذيب.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بدلا عن الآخرة.

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين هذا وصفهم ﴿ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها.

﴿ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨ ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي.

❁ ❁ ❁

من سلك طريق الهداية يسر الله له أسبابها

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى طريق الجنة وذلك يوم القيامة، فيكون له إيمانه وعمله الصالح نورًا ينير له الطريق إلى الجنة فيجتاز الصراط بسلامٍ وأمانٍ.

وأورد الطبري أثرًا بسندٍ حسنٍ عن قتادة لكنه مرسل فيه أن قتادة قال: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ بلغنا أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة حَسَنة فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ صِدْقٍ! فيقول: أنا عملك! فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنة. وأما الكافر إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة وشارة سيئة فيقول: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ سَوْء! فيقول: أنا عملك! فينطلق به حتى يدخله النار».

الثاني: أن ذلك في الدنيا، والمعنى أن الله ﷻ يزيدهم هدى بسبب إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧].

الثالث: يثيبهم ربهم بإيمانهم.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؟

ج: الظاهر – والله أعلم – أنها تجري من بين أيديهم أي: أمامهم كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ۝٢٤﴾ [مريم: ٢٤].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، يقول: تجري من تحت هؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم، أنهار الجنة، ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، يقول في بساتين النعيم، الذي نعَّم الله به أهل طاعته والإيمان به.

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وإنما وصف جل ثناؤه أنهار الجنة في سائر القرآن أنها تجري تحت الجنات؟ وكيف يمكن الأنهار أن تجري من تحتهم، إلا أن يكونوا فوق أرضها والأنهار تجري من تحت أرضها؟ وليس ذلك من صفة أنهار الجنة، لأن صفتها أنها تجري على وجه الأرض في غير أخاديد؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى ذلك: تجري من دونهم الأنهار إلى ما بين أيديهم في بساتين النعيم، وذلك نظير قول الله: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [سورة مريم: ٢٤]. ومعلوم أنه لم يجعل «السري» تحتها وهي عليه قاعدة - إذ كان «السري» هو الجدول - وإنما عني به: جعل دونها: بين يديها، وكما قال جل ثناؤه مخبراً عن قيل فرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ﴾، [سورة الزخرف: ٥١]، بمعنى: من دوني، بين يديّ.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ ؟

ج: المعنى - والله أعلم - دعاؤهم في الجنة الذي يدعون به سبحانك اللهم.

وفي دعائهم قولان:

أحدهما: أنهم إذا اشتهوا شيئًا من الطعام والشراب، قالوا سبحانك اللهم، أي: نادوا بقولهم سبحانك اللهم.

والثاني: أنهم إذا رغبوا إلى الله وعبدوه، عبدوه بقولهم: سبحانك اللهم، كما في الحديث: «**يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس**».

أما معنى:- ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ فتنزيهًا لك يا ربنا عما يصفك به الواصفون المشركون، وتنزيهًا لك يا ربنا عن أن تعجز عن فعل شيء، وتنزيهًا لك يا ربنا عن كل ما لا يليق بك.

أما قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ فمعناه يا الله.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

التسبيح والحمد والتهليل قد يُسمَّى دعاء؛ روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش العظيم. لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**».

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾؟

ج: في ذلك أقوالٌ لأهل العلم:

أحدها: أن الله ﷻ يسلم عليهم ويُحييهم بالسلام كما في الآية الكريمة: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٥٨].

الثاني: أن تحية بعضهم لبعض السلام عليكم.

الثالث: أن الملائكة تحييهم بقولها لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

الرابع: أن الولدان المخلدون يحييونهم بالسلام.

والآية تنتظم كل ذلك، والله أعلم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس: ٥٨]. وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن أهل الجنة إذا مرَّ بهم الطيرُ يشتهونه فيقولون: سبحانك اللهم فيأتيهم مشويًّا مطهيًّا بالطريقة التي يحبونها، فإذا انتهوا من أكلهم كان شكرهم الحمد لله رب العالمين.

الثاني: أنهم دومًا يشكرون الله على نعمه فيبتدئون بقولهم: سبحانك اللهم، ويختمون بقولهم. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله:﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ ﴾، يقول: وآخر دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، يقول: وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين، ولذلك خففت «أن» ولم تشدّد لأنه أريد بها الحكاية.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

من السنة لمن بدأ بالأكل أن يسمي الله عند أكله وشربه ويحمده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة ؛ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال

رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**».

وقال القرطبي أيضًا:

يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين؛ وحسن أن يقرأ آخر «والصافات» فإنها جمعت تنزيه الباري تعالى عما نسب إليه، والتسليم على المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف: ١]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول والآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إن أهل الجنة يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد كما يُلْهَمُونَ النَّفَس**» وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: أن الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وآمنوا بما أُلزموا الإيمان به وابتعوا ذلك بالعمل الصالح الموافق للكتاب العزيز والسنة المباركة يتفضل عليهم ربهم بمزيدٍ من الهداية في الدنيا والآخرة فيزيدهم إيمانًا وتوفيقًا وسدادًا في الدنيا، كما يوفقهم يوم القيامة للمرور على الصراط بأمانٍ وسلام إلى جنات النعيم تلك التي فيها أنهارٌ تجري من بين أيدهم يتنعمون بها ويتلذذون بالنظر إليها والشرب فيها، وإذا أرادوا شيئًا فإنهم يدعون ربهم أن يعطيهم إياه، وذلك بقولهم: سبحانك اللهم، وكذا فإنهم يتعبدون الله ﷻ بتسبيحهم له وتنزيههم له عن النقائص والعيوب، وعما يصفه به الواصفون المشركون، وينزهون ربهم عن كل ما لا يليق به، فقولهم: سبحانك اللهم.

معناها تنزيهًا لك يا ربنا عن كل نقصٍ وعيب، وعن كل ما يصفك به الواصفون الكاذبون، ثم إن تحيتهم في الجنة سلام، يسلم الله عليهم بها ويُسلم بعضهم على بعضٍ بها، وتسلم الملائكة عليهم بها، وآخر دعائهم بعد فراغهم من طعامهم وشرابهم الحمد لله رب العالمين.

فابتداؤا الطعام والشراب والتنعم بقوله سبحانك اللهم وختموه بالحمد لله رب العالمين.

وبنحو هذا قال أهل العلم، وإن كانت بعض أقوالهم قد تقدمت في ذلك، وها هي أقوالٌ أُخر.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿تيسير الكريم الرحمن﴾:

يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على

أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم. ولهذا قال: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ الجارية على الدوام ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النَّفَس، من دون كلفة ومشقة.

﴿ و ﴾ أما ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ ﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ وقد قيل في تفسير قوله ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة -إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما- قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ إذا فرغوا قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

❊ ❊ ❊

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ
أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١ وَإِذَا
مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ
كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
١٢ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ
خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ
بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن
قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ
كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ ﴾ [يونس: ١١-١٧].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ - ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ - لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ - فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا - طُغْيَٰنِهِمْ - يَعْمَهُونَ - مَسَّ - دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ - زُيِّنَ - بِٱلْبَيِّنَٰتِ - خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ - مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾	يستجيب الله للناس إذا دعوا على أنفسهم بالشر.
﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾	كما يعجل إجابة دعوتهم إذا دعوا لأنفسهم بالخير.
﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾	لماتوا وفُرغ منهم.
﴿فَنَذَرُ﴾	فنترك.
﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾	لا يخافون لقاءنا يوم القيامة، ومن ثمَّ فلا يخشون العذاب.
﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾	كفرهم وشدة عتوهم وظلمهم.
﴿يَعْمَهُونَ﴾	يتحيرون - يترددون.
﴿مَسَّ﴾	أصاب.
﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾	سألنا وهو مضطجع على جنبه.
﴿زُيِّنَ﴾	حسَّن.
﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾	بالحجج الواضحات.
﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	تخلفون من قبلكم – تأتون من بعدهم وتخلفونهم.

﴿مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾	من عند نفسي.

س: من المعنيون بالناس في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ وما معنى هذا القدر من الآية الكريمة؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد بالناس عموم الناس، وأن معنى الآية الكريمة، ولو استجاب الله دعاء الناس على أنفسهم وعلى أولادهم وبناتهم وذرياتهم وأموالهم إذ يدعون بالمكروه والشر لأهلكهم، ولكن رحمة من الله ﷻ بعباده أنه يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة والشر.

أي: أن الله ﷻ لو استجاب لهم عندما يدعون على أنفسهم بالشر كما يستجيب لهم إذ دعوا لأنفسهم بالخير لماتوا وهلكوا ولكنه سبحانه يمهلهم.

الثاني: أن المعنيين بذلك أهل الكفر إذ كانوا يدعون على أنفسهم بالهلاك إن كان الرسول ﷺ صادقًا، إذ يقولون: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، ويقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

والقول الأول أظهر، والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو يعجل الله للناس إجابةَ دعائهم في الشرّ، وذلك فيما عليهم مضرّة في نفس أو مال ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾، يقول: كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، يقول: لهلكوا، وعُجِّل لهم الموت، وهو الأجل.

وعني بقوله: ﴿لَقُضِيَ﴾، لفرغ إليهم من أجلهم، ونُبذ إليهم، كما قال أبو ذؤيب:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ، أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، يقول: فندع الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالبعث ولا بالنشور، ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾، يقول: في تمرّدهم وعتوّهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يترددون.

وإنما أخبر جل ثناؤه عن هؤلاء الكفرة بالبعث بما أخبر به عنهم، من طغيانهم وترددهم فيه عند تعجيله إجابة دعائهم في الشرّ لو استجاب لهم، أن ذلك كان يدعوهم إلى التقرُّب إلى الوثن الذي يشرك به أحدهم، أو يضيف ذلك إلى أنه من فعله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه- لطفا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقُضِيَ

﴿إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم.

وقوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ قيل: معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا، لأنهم خلقوا في الدنيا خلقا ضعيفا، وليس هم كذا يوم القيامة ؛ لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء. وقيل: المعنى لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ؛ وهو معنى ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾. وقيل: إنه خاص بالكافر ؛ أي ولو يجعل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: أننا نترك الناس في كثيرٍ من الأحيان في الدنيا إذا دعوا على أنفسهم بالشر فلا نجيب دعاءهم على أنفسهم لعلَّ منهم من يهتدي أما الذين لا يهتدون، وكتبت عليهم الشقاوة فإنهم يزدادون بتركنا تعجيل العذاب عليهم، يزدادون ضلالًا إلى ضلالهم، وتحيَّرًا إلى تحيِّرهم فيبقون في ظلمهم وشركهم وعتوهم يتحيرون يترددون، فإنهم تصيبهم المصائب ويدعون بالهلاك والموت على أنفسهم، فلا يُجابوا فيزدادوا ضجرًا وكفرًا وحيرةً وعدم اهتداءٍ، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الوارد في النهي عن الدعاء على النفس؟

ج: من ذلك ما يلي:

قول رسول الله ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله تبارك وتعالى ساعة نيل فيها عطاء فيستجيب لكم**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

(٢) وذلك في الحديث الذي أخرجه مسلم (مع النووي ٦/ ٢٢٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شُقَّ بصره فأغمضه ثم قال: «**إن الروح إذا قبض تبعه البصر**»، فضج الناس من أهله، فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**».

ولا تدع بإثمٍ ولا بقطيعة رحم:

أخرج الإمام مسلم في «صحيحه» (١) من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل...**» الحديث، وقد تقدم.

* ومن ذلك النقمة على أهل الكفر لدعائهم بتعجيل العذاب قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

* وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

فتمنى تعجيل العقوبة فعل الكفار كما سلف، ثم هو فعل من كلَّ علمهم، وأيضًا فهو خلاف هدي النبي ﷺ.

ففي «صحيح مسلم» (٢) من حديث أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ**». قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِى بِهِ فِى الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِى فِى الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ لاَ تُطِيقُهُ - أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلاَ قُلْتَ اللَّهُمَّ آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**». قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ.

---

(١) مسلم (مع النووي ١٧/ ٥٢).

(٢) مسلم (مع النووي ١٧/ ١٣).

وفي «الصحيحين»(١) من حديث أنس رضي الله عنه، واللفظ لمسلم من طريق عبد العزيز – وَهُوَ ابْنُ صُهَيْبٍ – سَأَلَ قَتَادَةُ أَنَسًا أَيُّ دَعْوَةٍ كَانَ يَدْعُو بِهَا النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ قَالَ كَانَ أَكْثَرُ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا يَقُولُ « **اللَّهُمَّ آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ».

قَالَ: وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ.

ومن صور الجهل ذلك الدعاء بما يجلب على النفس المشقة والتعب كقول قوم سبأ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩].

وذلك أن الله سبحانه وتعالى كان قد جعل لهم أماكن إيواء ومنازل ينزلونها واستراحات يستريحون فيها إذا أرادوا السفر إلى الأرض المباركة، فكلما شعروا بتعب في سفرهم وجدوا مكانًا للراحة يستريحون فيه، ويستجمون كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ [سبأ: ١٨]، وقد قدر الله هذه المسافات تقديرًا مناسبًا لمصالحهم ومصالح دوابهم حيث لا يجدون التعب إلى وجدوا مكانًا للراحة، كما قال: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾، ولكنهم أرادوا تعبًا ومشقة، وإرهاقًا، أرادوا أن تطول مسافات سفرهم ويحملوا الزاد ويوقدوا النيران في الأسفار ويجمعوا الحطب حتى يشعروا بلذة السفر كما زعموا فدعوا ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ وظلموا أنفسهم بهذا الدعاء كما قال تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ فشتت الله شملهم وفرق الله جمعهم، وجعلهم أحاديث يتحدث الناس بهم، ويعتبر بهم المعتبرون كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ

(١) البخاري (حديث ٦٣٨٩)، ومسلم (حديث ٢٦٩٠).

مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: ١٩].

ومن صور الجهل في الدعاء سرعة تمني الموت لضرٍّ في البدن أو ابتلاء في المال، وذلك لما في «الصحيحين»(١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا للموت فليقل: اللَّهُمَّ أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**».

وفي الصحيحين كذلك من طريق قيس قال: أتيت خبابًا وقد اكتوى سبعًا في بطنه فسمعته يقول: لولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به(٢).

وعند البخاري(٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**..ولا يتمنين أحدكم الموت، إمَّا محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا وإما مُسيئًا فلعله أن يستعتب**».

وفي رواية لمسلم(٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدعو به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرًا**».

❁ ❁ ❁

س: من المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: إنه الإنسان الكافر أو العاصي أو اللاهي والغافل.

---

(١) البخاري (مع الفتح ١١/ ١٥٠)، ومسلم (مع النووي ١٧/ ٧).
(٢) البخاري (مع الفتح ١١/ ١٥٠)، ومسلم (مع النووي ١٧/ ٨).
(٣) البخاري (حديث ٥٦٧٣).
(٤) مسلم (حديث ٢٦٨٢).

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: وإذا أصاب الإنسان ضرٌّ أو جهدٌ في نفسه أو قلةٌ في حاله أو مصيبةٌ في دنياه دعا الله ﷻ على كل أحواله، دعاه مضطجعًا على جنبه، وكذا دعاه قاعدًا وقائمًا فلما استجاب الله دعاءه وكشف عنه الضر استمر على طريقته في الغيِّ والضلال والعصيان كأن لم يُصب بشيء، ولم يدع الله بشيء ولم يستجب الله له شيئًا أي: أنه جحد نعم الله ﷻ التي أنعم بها عليه، فهكذا زيَّن الشيطان لأهل الكفر والإسراف عملهم فاستمروا على طريقتهم في الغيِّ والضلال.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا أصاب الإنسان الشدة والجهد ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾، يقول: استغاث بنا في كشف ذلك عنه ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾، يعني مضطجعًا لجنبه. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ بالحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرّ به ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾، يقول: فلما فرّجنا عنه الجهد الذي أصابه ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، يقول: استمرَّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك الشكر لربه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء حين استعاذ به، وعاد للشرك ودَعوى الآلهةِ والأوثانِ أربابًا معه. يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، يقول: كما زُيِّن

لهذا الإنسان الذي وصفنا صفتَه، استمرارُه على كفره بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، كذلك زُيّن للذين أسرفوا في الكذِب على الله وعلى أنبيائه، فتجاوزوا في القول فيهم إلى غير ما أذن الله لهم به، ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك وبه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ قيل: المراد بالإنسان هنا الكافر، قيل: هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك، تصيبه البأساء والشدة والجهد. ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ أي على جنبه مضطجعا. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ وإنما أراد جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة. قال بعضهم: إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضر أشد في غالب الأمر، فهو يدعو أكثر، واجتهاده أشد، ثم القاعد ثم القائم. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ ﴾ أي استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ.

قلت: وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين، إذا أصابته. العافية مر على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعم الكافر وغيره. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾ قال الأخفش: هي «كأن» الثقيلة خففت، والمعنى كأنه وأنشد:

وي كأنْ من يكن له نشب يُحْـ ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أي كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عن الرخاء. ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي. وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله، ويجوز أن يكون من الشيطان، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول رسول الله ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له**»، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ**:**

وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر، من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائما وقاعدا ومضطجعا، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: استمر في غفلته معرضا عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟!! يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه لله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنا مستقبحا في العقول والفطر.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي: المتجاوزين للحد ﴿ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أعرض عن الدعاء، قاله مقاتل. والثاني: مَرَّ في العافية على ما كان عليه قبل أن يُبتلى، ولم يتَّعظ بما يناله، قاله الزجاج. والثالث: مر طاغيًا على ترك الشكر.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ولقد أهلكنا الأمم والقرون من قبلكم يا معشر قريش، ويا من أرسل إليهم محمد ﷺ، أهلكناهم بعد إرسال رسلنا إليهم فكذبوا رسلنا وما آمنوا وما صدقوا فحينئذٍ أحللنا بهم عقابنا وأنزلنا بهم نقمتنا، وكذلك نجزي أهل الإجرام، وأهل التكذيب، ثم جعلناكم يا أمة محمد ﷺ خلائف تخلفون من سبقوكم، تخلفونهم في الأرض لننظر، نظرًا ينبني عليه الثواب والعقاب ماذا ستصنعون هل ستعملون صالحًا أم أنكم ستكذبوا كما كذَّب الذين من قبلكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أهلكنا الأمم التي كذبت رسل الله من قبلكم أيها المشركون بربهم ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾، يقول: لما أشركوا وخالفوا أمر الله ونهيه

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ من عند الله، ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وهي الآيات والحجج التي تُبين عن صِدْق من جاء بها.

ومعنى الكلام: وجاءتهم رسلهم بالآيات البينات أنها حق ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ يقول: فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها ليؤمنوا برسلهم ويصدِّقوهم إلى ما دعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم، أيها المشركون، بظلمهم أنفسَهم، وتكذيبهم رسلهم، وردِّهم نصيحتَهم، كذلك أفعل بكم فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمدًا ﷺ، وظلمكم أنفسكم بشرككم بربكم، إن أنتم لم تُنيبوا وتتوبوا إلى الله من شرككم فإن من ثواب الكافر بي على كفره عندي، أن أهلكه بسَخَطي في الدنيا، وأورده النار في الآخرة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم جعلناكم، أيها الناس، خلائف من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكناهم لما ظلموا، تخلفونهم في الأرض، وتكونون فيها بعدهم ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾، يقول: لينظر ربكم أين عملكم من عمل من هلك من قبلكم من الأمم بذنوبهم وكفرهم بربهم، تحتذون مثالهم فيه، فتستحقون من العقاب ما استحقوا، أم تخالفون سبيلَهم فتؤمنون بالله ورسوله وتقرّون بالبعث بعد الممات، فتستحقون من ربكم الثواب الجزيل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم،

وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**».

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ يعني الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي كفروا وأشركوا. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحات والبراهين النيرات. ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون. يخوف كفار مكة عذاب الأمم الماضية؛ أي نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا ﷺ، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم من يؤمن، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن. وهذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان. وقيل: معنى ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم؛ ويدل على هذا أنه قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مفعولان. والخلائف جمع خليفة، وقد تقدم آخر «الأنعام» أي جعلناكم سكانا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد القرون المهلكة. ﴿لِنَنظُرَ﴾ نصب بلام كي، وقد تقدم نظائره وأمثاله؛ أي ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب، ولم يزل يعلمه غيبا. وقيل: يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل. وقيل: النظر راجع إلى الرسل؛ أي لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم. و﴿كَيْفَ﴾ نصب بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل وتبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

❁ ❁ ❁

س: وما الذي يريده الكفار بقولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: ائت بقرآن ليس فيه تحليلٌ لشيء حرمناه ولا تحريمٌ لشيء أحللناه.

الثاني: ائت بقرآنٍ ليس فيه ذكر البعث ولا النشور ولا الثواب ولا العقاب، ولا التهديد، ولا الوعيد.

الثالث: ائت بقرآنٍ غير هذا لا تسفه به آلهتنا ولا تعيب به أصنامنا.

وثم أقوال أخر.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وإذا تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا التي أنزلناها عليك يا رسول الله، واضحات ظاهرات يعرفونها ويفقهون معانيها قال الذين لا يخافون لقاءنا ولا يرجون ثوابنا ولا يخشون عقابنا ائت بقرآن غير هذا فيه ما ليس في هذا القرآن، ليس فيه تهديد ووعيد، وليس فيه تسفيهٌ لآلهتنا ولا عيب لأصنامنا، وليس فيه تحليل ولا تحريم، أو بدِّل هذا القرآن بشيء آخر، أو بدِّل آياته غيِّر فيها وعدِّل لعلنا نتبعك ونؤمن بك ونصدقك فقل: يا رسول الله لهؤلاء المكذبين المنكرين الجاحدين ليس لي أن أبدل هذا القرآن من عند نفسي، ولا أن أُغيِّر منه شيئًا فما أنا إلا متبعٌ لما يُوحي إلي، إني أخاف إن بدلت شيئًا وعصيت ربي عذاب يوم القيامة، وهو يوم عظيم، عظيمٌ عذابه كذلك لمن عصى ربه ولم يتقه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتاب الله الذي أنزلناه إليك، يا محمد ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾، واضحات، على الحق دالات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، يقول: قال الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالمعاد إلينا، ولا يصدّقون بالبعث، لك ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾، يقول: أو غيِّره ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾، أي: من عندي.

والتبديل الذي سألوه، فيما ذكر، أن يحوّل آية الوعيد آية وعد، وآية الوعد وعيدًا والحرامَ حلالا والحلال حرامًا، فأمر الله نبيَّه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه، وأن ذلك إلى من لا يردّ حكمه، ولا يُتَعَقَّب قضاؤه، وإنما هو رسول مبلّغ ومأمور مُتّبع.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، يقول: قل لهم: ما أتبع في كل ما آمركم به أيها القوم، وأنهاكم عنه، إلا ما ينزله إليّ ربي، ويأمرني به ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾، يقول: إني أخشى من الله إن خالفت أمره، وغيَّرت أحكام كتابه، وبدّلت وَحيه، فعصيته بذلك، عذابَ يوم عظيمٍ هَوْلُه، وذلك: يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتَضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن تعنّت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحقّ المعرضين عنه، أنهم إذا قَرَأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُجَجه الواضحة قالوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بَدّله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ ﴿تُتْلَىٰ﴾ تقرأ، و ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ نصب على الحال؛ أي واضحات لا لبس فيها ولا إشكال. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب. قال

قتادة: يعني مشركي أهل مكة. ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ والفرق بين تبديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه ؛ وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيدا والوعيد وعدا، والحلال حراما والحرام حلالا ؛ قاله ابن جرير الطبري.

الثاني: سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ؛ قاله ابن عيسى.

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ؛ قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي قل يا محمد ما كان لي ﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ ومن عندي، كما ليس لي أن ألقاه بالرد والتكذيب. ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ أي لا أتبع إلا ما أتلوه عليكم من وعد ووعيد، وتحريم وتحليل، وأمر ونهي. وقد يستدل بهذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنة ؛ لأنه تعالى قال: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ وهذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت في طلب المشركين مثل القرآن نظما، ولم يكن الرسول ﷺ قادرا على ذلك، ولم يسألوه تبديل الحكم دون اللفظ ؛ ولأن الذي يقوله الرسول ﷺ إذا كان وحيا لم يكن من تلقاء نفسه، بل كان من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ أي إن خالفت في تبديله وتغييره أو في ترك العمل به. ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ يعني يوم القيامة.

س: ما وجه الاحتجاج على أهل الشرك بقوله: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾؟

ج: وجه الاحتجاج أنهم يوفون رسول الله ﷺ قبل مبعثه وأنه الصادق

الأمين، وكانوا يستودعون أماناتهم عنده فيحفظها لهم خير حفظ، ويقوم عليه خير قيام، وما عهدوا منه خيانة ولا غدرًا ولا كذبًا ولا غشًّا، فكيف يدع الكذب على الناس، ويكذب على الله ﷻ، كما في سؤالات هرقل لأبي سفيان إذ سأله هل كنتم تتهمونه قبل أن يقول ما قال، قال: لا.

وثمَّ وجه آخر حاصله أنني لبثت فيكم زمانًا أربعون سنة لم أفتر على الله فهل أفترى على الله في كبر سني؟

والوجه الأول أظهر، والله أعلم.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ ظرف، أي مقدارا من الزمان وهو أربعون سنة. ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي من قبل القرآن، تعرفونني بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بالمعجزات. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قبلي. وقيل: معنى ﴿لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أي لبثت فيكم مدة شبابي لم أعص الله، أفتريدون مني الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله، وأغير ما ينزله علي.

❊ ❊ ❊

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٧﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: قل: يا رسول الله لهؤلاء المكذبين الجاحدين المنكرين الذين سالوك وقالوا: ائت بتوانٍ غير هذا أو بدله، قل لهؤلاء لو شاء الله ما أنزله عليَّ ولا تلوته عليكم، ولا أعلمكم به ولا أشعركم،

فقد مكثت فيكم زمانًا تعرفون صدقي وعدم افترائي على الله، وعدم الكذب على الناس أفلا تعقلون، ومن ثَمَّ تفهمون أن الذي لا يكذب على الناس لا يكذب على الله؟! وكذا تعقلون أن هذا القرآن من عند الله؟! فليس هناك ظالم وفقير أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وكذا ليس هناك ظالم أظلم ممن كذَّب بآيات الله المنزلة من عنده على رسوله، إنه لا يظفر بمطلوبه ولا ينجو من مرهوبه أهل الإجرام.

فلن يظفر المجرم بمطلوبه، وأعظم مطلوب هو الجنة، ولن ينجو المجرم من مرهوبه، وأعظم مرهوب هو النار.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه، معرِّفه الحجةَ على هؤلاء المشركين الذين قالوا له: ﴿ ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ ﴾، ﴿ قُل ﴾ لهم، يا محمد، ﴿ لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾، أي: ما تلوت هذا القرآن عليكم، أيها الناس، بأن كان لا ينزله عليَّ فيأمرني بتلاوته عليكم، ﴿ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ ﴾، يقول: ولا أعلمكم به، ﴿ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ ﴾ يقول: فقد مكثت فيكم أربعين سنة من قبل أن أتلوَه عليكم، ومن قبل أن يوحيه إليّ ربي، ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ ﴾، أني لو كنت منتحلا ما ليس لي من القول، كنت قد انتحلته في أيّام شبابي وحَداثتي، وقبل الوقت الذي تلوته عليكم؟ فقد كان لي اليوم، لو لم يوح إليّ وأومر بتلاوته عليكم، مندوحةٌ عن معاداتكم، ومتّسَعٌ، في الحال التي كنت بها منكم قبل أن يوحى إلي وأومر بتلاوته عليكم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ

بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين نسبوك فيما جئتهم به من عند ربّك إلى الكذب: أيُّ خلق أشدُّ تعدّيًا، وأوضع لقيله في غير موضعه، ممن اختلق على الله كذبًا، وافترى عليه باطلا ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ يعني بحججه ورسله وآيات كتابه؟ يقول له جل ثناؤه: قل لهم: ليس الذي أضفتموني إليه بأعجب من كذبكم على ربكم، وافترائكم عليه، وتكذيبكم بآياته ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾، يقول: إنه لا ينجح الذين اجترموا الكفر في الدنيا يوم القيامة، إذا لقوا ربّهم، ولا ينالون الفلاح.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا استفهام بمعنى الجحد؛ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب، وبدل كلامه وأضاف شيئا إليه مما لم ينزله. وكذلك لا أحد أظلم منكم إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب، وقلتم ليس هذا كلامه. وهذا مما أمر به الرسول ﷺ أن يقول لهم. وقيل: هو من قول الله ابتداء. وقيل: المفتري المشرك، والمكذب بالآيات أهل الكتاب. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷻ، لا تنتقدون علي شيئا تَغمصوني به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدۡ

لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه، فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا -وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:

وَالفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأعداءُ

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.!

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وتَقَوَّل على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظُلما من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا، فلا بد أن الله يَنصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُوره ما وأظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حنْدس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدّل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسي.

(١) البخاري (حديث رقم ٧) بنحوه.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ طويلا ﴿ مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي: قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني.

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ أني حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرا طويلا تعرفون حقيقة حالي، بأني أمي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟!!

فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل يمكن -مع هذا- أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزما لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ ؟!!

فلو كنت متقولا لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح، ما دمتم كذلك.

ودل قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ [الفرقان: ٢١] الآية، أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بلقاء الله وعدم رجائه، وأن من آمن بلقاء الله فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ
هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ
أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن
رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠
وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ
أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ
وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا
رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ
أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
٢٣ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ

مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ
أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا
كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

[يونس: ١٨-٢٤]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَتُنَبِّئُونَ - سُبْحَانَهُ - وَتَعَالَى - أُمَّةً وَاحِدَةً - كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ - لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ - ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ - ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ - رَحْمَةً - مَّكْرٌ - فِىٓ ءَايَاتِنَا - ٱلْفُلْكِ - بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ - رِيحٌ عَاصِفٌ - وَظَنُّوٓا۟ - أُحِيطَ بِهِمْ - مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ - يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ - زُخْرُفَهَا - حَصِيدًا - لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ - نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾	أتخبرون.
﴿سُبْحَانَهُ﴾	تنزه.
﴿وَتَعَالَى﴾	ارتفع (عن كل ما لا يليق به).
﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾	جماعة واحدة على ملةٍ واحدة.
﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾	قضاءٌ قضاه الله وتكلم به قبل أن يخلق الخلق.
﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾	لحكم على كلٍّ بما يستحق، ولأهلك من يستحق الإهلاك.
﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾	معجزه من ربه.
﴿ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾	علم الغيب لله لا يعلمه أحدٌ سواه.
﴿رَحْمَةً﴾	نعمة – عافية – سراء.
﴿مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾	تكذيب واستهزاء وسخرية بآيات الله.

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾	السفن العظيمة.
﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾	ريح ليّن هادئة.
﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾	ريح شديدة الهبوب عاتية.
﴿وَظَنُّوٓاْ﴾	أيقنوا – توهموا.
﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾	هلكوا – أحاطت بهم سبل الموت حيث لا مفر منها.
﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾	مخلصين له الدعاء – لا يدعون حينئذٍ معه أحدًا سواه.
﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾	يسعون في الأرض بالفساد وينشرون الشرور يرتكبون الشرك والكبائر والمعاصي والظلم.
﴿زُخۡرُفَهَا﴾	زينتها.
﴿حَصِيدٗا﴾	محصودة من أصلها – مقطوعة مقلوعة من أصلها.
﴿لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾	كأن لم تكن موجودة بزينتها بالأمس.
﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾	بينها ونفصل بعضها عن بعض.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ويعبد أهل الشرك هؤلاء مع الله ﷻ آلهة أُخرى، أصنامًا وأوثانًا وآلهة أُخرى كذلك، ويقولون إنما نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله ﷻ، كما في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، فقل لهؤلاء المشركين أتخبرون الله ﷻ بما لا يكون في السموات ولا في الارض، فإذا كانت هذه الآلهة لا تنفعكم في دنياكم فكيف تنفعكم في أُخراكم، أتخبرون الله أن له شريكًا وهو يعلم أنه ليس له شريك، أتخبرون الله أن هناك من يشفع عنده وهو يعلم أن ليس هناك شفيعٌ يشفع من هذه الأوثان والأصنام.

أو بصياغة أخرى أتخبرون الله أن له شريكًا وهو لا يعلم لنفسه شريكًا.

أتخبرون الله أن عنده من يشفع وهو لا يعلم شفيعًا يشفع بغير إذنه.

أتخبرون الله بأمورٍ تظنون أنهما لا يعلمها في السموات ولا في الأرض.

أتظنون أن الله يجهل ما في السموات وما في الأرض؟!

أتظنون أن الله يخفى عليه شيءٌ في السموات والأرض ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزه ربنا عن الشريك وعن المثيل وعن الندِّ وعن الجهل وتنزه عن كل ما لا يليق به.

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عن أن يكون له شريك.

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عن أن يكون له مثيلٌ وندٌّ.

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ ربنا عن الجهل وقلة العلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويعبُد هؤلاء المشركون الذين وصفت لك، يا محمد صفتهم، من دون الله الذي لا يضرهم شيئًا ولا ينفعهم، في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، يعني: أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿قُلۡ﴾ لهم ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، يقول: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند الله في السموات ولا في الأرض. وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عند الله. فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله: قل لهم: أتخبرون الله أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما؟ وذلك باطلٌ لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلم الله أن ذلك خلاف ما تقولون، وأنها لا تشفع لأحد، ولا تنفع ولا تضر ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾، يقول: تنزيهًا لله وعلوًّا عما يفعله هؤلاء المشركون، من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، وافترائهم عليه الكذب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾.

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَجه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ يريد الأصنام. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذه غاية الجهالة منهم؛ حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال. وقيل: ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ أي تشفع لنا عند الله في إصلاح معائشنا في الدنيا. ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قراءة العامة (تُنَبِّئُونَ) بالتشديد. وقرأ أبو السمال العدوي ﴿أتنبئون الله﴾ مخففا، من أنبأ ينبئ. وقراءة العامة من نبأ ينبئ تنبئة؛ وهما بمعنى واحد، جمعهما قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: ٣] أي أتخبرون الله أن له شريكا في ملكه أو شفيعا بغير إذنه، والله لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه. نظيره قوله: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ٣٣] ثم نزه نفسه وقدسها عن الشرك فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾ أي هو أعظم من أن يكون له شريك وقيل: المعنى أي يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيكذبون؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبؤه بما لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون!

وقال ابن الجوزي ﴿زاد المسير﴾:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني المشركين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون الأصنام قال أبو عبيدة خرجت كناياتها على لفظ كناية الآدميين وقد ذكرنا هذا المعنى في [الأعراف: ١٩١] عند قوله ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ وفي قوله ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ قولان أحدهما شفعاؤنا في الآخرة قاله أبو صالح عن ابن عباس ومقاتل والثاني شفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدنيا لأنهم لا يقرون بالبعث قاله الحسن

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ قال الضحاك أتخبرون الله أن له شريكا ولا يعلم الله لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أي: لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئا.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولا خاليا من البرهان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى -مبطلا لهذا القول-: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: الله تعالى هو العالم، الذي أحاط علما بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه، أفأنتم -يا معشر المشركين- تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟ أفتخبرونه بأمر خفي عليه، وعلمتوه؟ أأنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده وبطلانه: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلا وشرعا وفطرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

❃ ❃ ❃

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ج: المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ:

وما كان الناس إلا جماعة واحدة على ملة واحدة فاختلفوا، وهذه تحتمل احتمالات:

أولًا: كانوا جماعة واحدة على التوحيد فقد فطروا عليه وجبلوا عليه ثم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وغيَّرت كثيرًا ونقلته من الإسلام إلى الكفر، ومن الفطرة السليمة الصحيحة إلى دين الشرك والعياذ بالله.

كما في الحديث القدسي: «**إنِّي خلقت عِبَادِي حُنَفاء فجآءتهم الشياطين فاجْتَالتهم عن دينهم...**».

الثاني: أنهم كانوا قبل مجيء الرسل قد حادوا عن طريق الحق والصواب في جملتهم وأصبحوا ملة واحدةً على الكفر فلما جآءتهم الرسل بالبينات آمن من آمن، وكفر من كفر فحصل الاختلاف والافتراق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤].

وكما قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ﴾ [الجاثية: ١٧].

وثَمَّ أقوال أُخر أضربت عنها لوهائها أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

فهذه الكلمة هي الكلمة التي كتبها الله على نفسه وقضى أنها واقعة، وهي ما ذكره في كتابه من أن لكل أجل كتاب، ومن أن الأمم تهلك إذا جاء وقت إهلاكها.

وقوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لحكم بينهم فيما فيه يختلفون فقضى على الكافر بالهلاك في حينه. والله تعالى أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما كان الناس إلا أهل دين واحد وملة واحدة فاختلفوا في دينهم، فافترقت بهم السبل في ذلك، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، يقول: ولولا أنه سبق من الله أنه لا يهلك قوماً إلا بعد انقضاء آجالهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾ يقول: لقضي بينهم بأن يُهلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك. وقيل: كل مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾ إشارة إلى القضاء والقدر؛ أي لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضي بينهم في الدنيا، فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم، ولكنه

سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل موعدهم القيامة؛ قال الحسن. وقال أبو ورق: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأقام عليهم الساعة. وقيل: لفرغ من هلاكهم. وقال الكلبي: «الكلمة» أن الله أخر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة، فلولا. هذا التأخير لقضي بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة. والآية تسلية للنبي ﷺ في تأخير العذاب عمن كفر به. وقيل: الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسل؛ كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥] وقيل: الكلمة قوله: «**سبقت رحمتي غضبي**» ولولا ذلك لما أخر العصاة إلى التوبة. وقرأ عيسى «لقضى» بالفتح.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ قد شرحنا هذا في سورة [البقرة: ٢١٣] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحدين فاختلفوا وعبدوا الأصنام فكان أول من بعث إليهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ولولا كلمة سبقت بتأخير هذه الأمة أنه لا يهلكهم بالعذاب كما أهلك الذين من قبلهم لقضي بينهم بنزول العذاب فكان ذلك فصلا بينهم فيما فيه يختلفون من الدين.

والثاني: أن الكلمة أن لكل أمة أجلا وللدنيا مدة لا يتقدم ذلك على وقته.

والثالث: أن الكلمة أنه لا يأخذ أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه.

وفي قوله: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: لقضي بينهم بإقامة الساعة.

والثاني: بنزول العذاب على المكذبين ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن

رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ ﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقا بينهم ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض، ليتبين الصادق من الكاذب.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -:

ويقول أهل الكفر هؤلاء لولا أُنزل على رسول الله ﷺ معجزةٌ من المعجزات كالتي جاء بها الأنبياء من قبله صلوات الله وسلامه عليه، هلا جاء معه بمعجزة فقد جاء صالح بناقة عظيمة، لما سأل ربه ذلك، وكان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معه العصا التي تحولت إلى حية تسعى، واليد التي تخرج بيضاء وغير ذلك، وعيسى كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وداود ألان الله له الحديد وسبحت معه الجبال والطيور، وسليمان سخرت له الريح والجن والشياطين وغير ذلك، فهلا جاء محممد بآية كهذه الآيات، فقل لهم يا رسول الله إن الغيب يعلمه الله، والذي يأتي بهذه هو الله عَزَّوَجَلَّ وليس لي إلا أن

أبلغكم ما أرسلت به، فانتظروا قضاء الله بيني وبينكم وحكم الله بيني وبينكم، وأنا معكم من المنتظرين لقضاء الله وقدر الله وإظهار المحق من المبطل.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويقول هؤلاء المشركون: هلا أنزل على محمد آيةٌ من ربه - يقول: عَلَمٌ ودليلٌ نعلم به أن محمدًا محق فيما يقول؟ قال الله له: ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: لا يُعلم أحدٌ يفعل ذلك إلا هو جل ثناؤه، لأنه لا يعلم الغيب -وهو السرُّ والخفيّ من الأمور - إلا الله، فانتظروا أيها القوم، قضاءَ الله بيننا، بتعجيل عقوبته للمبطل منا، وإظهاره المحقَّ عليه، إني معكم ممن ينتظر ذلك. ففعل ذلك جل ثناؤه فقضى بينهم وبينه بأن قتلهم يوم بدرٍ بالسيف.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: ويقول هؤلاء الكفرة الملحدون المكذبون المعاندون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما

خيَّر رسول الله، عليه الصلاة والسلام، بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه؛ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام، أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبّتا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]، فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوه؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛

ولهذا قال: ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠ ﴾.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ يعني المشركين ﴿ لَوۡلَآ ﴾ أي هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ مثل العصا واليد وآيات الأنبياء ﴿ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن سؤالكم لم لم تنزل الآية غيب ولا يعلم علة امتناعها إلا الله.

والثاني: أن نزول الآية متى يكون غيب ولا يعلمه إلى الله.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ فيه قولان أحدهما انتظروا نزول الآية والثاني قضاء الله بيننا باظهار المحق على المبطل.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-:

وإذا أنعمنا على الناس بنعمةٍ بعد ضرٍّ وشدَّةٍ كانوا فيها إذا بهم بعد أن أنعمنا عليهم يكذبون بآياتنا ويستهزئون بها، فقل لهؤلاء المكذبين المستهزئين إنكم تمكرون والله ﷻ يمكر بكم كما قال تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وكما قال: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ ﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

﴿إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ ملائكتنا الكتبة يكتبون ما يصدر منكم من استهزاء وتكذيب ومكر وخداع.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا رزقنا المشركين بالله فرجًا بعد كرب، ورخاء بعد

شدّة أصابتهم.

وقيل: عنى به المطر بعد القحط، و«الضراء»: وهي الشدة، و«الرحمة»: هي الفرج. يقول: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾، استهزاء وتكذيبٌ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿قُلِ﴾ لهؤلاء المشركين المستهزئين من حججنا وأدلتنا، يا محمد ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أي: أسرع مِحَالا بكم، واستدراجًا لكم وعقوبةً، منكم، من المكر في آيات الله.

والعرب تكتفي بـ «إذا» من «فعلت» و«فعلوا»، فلذلك حُذِف الفعل معها. وإنما معنى الكلام: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾، مكروا في آياتنا فاكتفى من ﴿مَّكْرٌ﴾، بـ ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾، يقول: إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم، أيها الناس، يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾.

قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء -مطر- أصابهم من الليل ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟**» قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل**

الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ ﴾ أي: أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقِطْمير.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال المفسرون: المراد بالناس هاهنا الكفار وفي المراد بالرحمة والضراء ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الرحمة العافية والسرور والضراء الفقر والبلاء قاله ابن عباس.

والثاني: الرحمة الإسلام والضراء الكفر وهذا في حق المنافقين قاله الحسن.

والثالث: الرحمة الخصب والضراء الجدب قاله الضحاك.

وفي المراد بالمكر هاهنا أربعة أقوال:

أحدها: أنه الاستهزاء والتكذيب قاله مجاهد ومقاتل.

والثاني: أنه الجحود والرد قاله أبو عبيدة.

والثالث: أنه إضافة النعم إلى غير الله فيقولون سقينا بنوء كذا قاله مقاتل بن حيان.

والرابع: أن المكر النفاق لأنه إظهار الإيمان وإبطان الكفر ذكره الماوردي.

❋ ❋ ❋

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: مفاده أن الله ﷻ يُذكِّر عباده بنعمه عليهم وبقدرته عليهم كذلك، فيقول تعالى مُذكِّرًا عباده، هو الذي يسيركم في البر والبحر فمسيركم في البر بنعمته فقد حملكم في البرِّ على ظهور الإبل التي خلقها لكم وعلى ظهور غيرها من الدواب كذلك وحملكم على ما ألهمكم صناعته كذلك، وكذا حملكم في البحر على السفن التي ذللها لكم وهداكم إلى صناعتها، وجعل المياه لحملها، حتى إذا ركبتموها في بعض أحيانكم، أعني ركبتم الفلك، وهي السفن العظيمة وجرت بكم في البحر برياح لينة طيبة سيَّرت السفينة بأمر الله فبينما أنتم على هذه الحال جاءت السفينة ريح عاصفةٌ شديدة الهبوب مخيفةٌ مزعجةٌ ترفع السفينة وتخفضها وجاء موجٌ شديد عاتيًا عاليًا يضرب السفينة ليقلبها بمن فيها في البحر، جاءهم هذا الموج من كل مكان، وأيقنوا بالهلاك، أيقنوا أن الموت سيأتيهم وأن الغرق مُدركهم دعوا الله وحده لا شريك له، وامتنعوا من دعاء الأوثان والأصنام لعلمهم أنها لن تنفعهم آنذاك، وأن الذي سينجيهم هو الله وحده لا شريك له، فأفردوه بالدعاء وأفردوه بالعبادة قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا من هذه الريح، ومن هذه البلية التي نحن فيها لنكونن من الشاكرين لك المثنين عليك الموحدين لك ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ إذا هم يتمادون في الغيِّ الذي كانوا فيه قبل حلول البلية بهم، بل

ويزدادوا كفرًا وضلالًا وغيًّا وفسادًا وإفسادًا، فقل لهؤلاء يا رسول الله: يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، وإثمه واقعٌ عليكم أنتم لستم بضارين الله شيئًا، وذلك كالوارد في الحديث القدسي: «**لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مَا نقصَ ذلكَ من ملكي شيئًا**».

وفيه: «**يَا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**».

فبغيكم عائدٌ أثره ووباله عليكم، وما تحصلونه من ورائه إنما هو متاع الحياة الدنيا، وهو متاعٌ زائل ثم إلينا مرجعكم يوم القيامة فنخبركم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا، ونجازي المحسن بإحسانه، ونعاقب أهل الشرك والإجرام على شركهم وإجرامهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الله الذي يسيركم، أيها الناس، في البر على الظهر وفي البحر في الفلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، وهي السفن ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ يعني: وجرت الفلك بالناس ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾، في البحر ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾، يعني: وفرح ركبان الفلك بالريح الطيبة التي يسيرون بها.

و«الهاء» في قوله: «بها» عائدة على «الريح الطيبة».

﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، يقول: جاءت الفلك ريحٌ عاصف، وهي الشديدة.

والعرب تقول: « ريح عاصف، وعاصفة»، و «وقد أعصفت الريح، وعَصَفت » و«أعصفت»، في بني أسد، فيما ذكر، قال بعض بني دُبَيْر:

حتَّى إذا أعْصَفتْ ريحٌ مُزَعْزعَةٌ ... فِيهَا قِطارٌ ورَعْدٌ صَوتُهُ زَجِلُ

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ يقول تعالى ذكره: وجاء ركبانَ السفينة الموجُ من كل مكان ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾، يقول: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، يقول: أخلصوا الدعاء لله هنالك، دون أوثانهم وآلهتهم، وكان مفزعهم حينئذٍ إلى الله دونها.

وأورد آثارًا منها أثر بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ إلى آخر الآية، قال: هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون، فإذا كان الضر لم يدعوا إلا الله، فإذا نجاهم إذا هم يشركون.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ من هذه الشدة التي نحن فيها، ﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾، لك على نعمك، وتخليصك إيانا مما نحن فيه، بإخلاصنا العبادة لك، وإفراد الطاعة دون الآلهة والأنداد.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾.

يقول تعالى ذكره: فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا في البحر أنهم أحيط بهم، من الجهد الذي كانوا فيه، أخلفوا الله ما وعدوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أذن الله لهم فيه، من الكفر به، والعمل بمعاصيه على ظهرها.

يقول الله: يا أيها الناس، إنما اعتداؤكم الذي تعتدونه على أنفسكم، وإياها تظلمون. وهذا الذي أنتم فيه، ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، يقول: ذلك بلاغ تبلغون به في عاجل دنياكم.

وعلى هذا التأويل، «البغي» يكون مرفوعًا بالعائد من ذكره في قوله: ﴿عَلَىٰٓ

﴿أَنفُسِكُمۖ﴾ ويكون قوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، مرفوعًا على معنى: ذلك متاع الحياة الدنيا، كما قال: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ﴾، [سورة الأحقاف: ٣٥]، بمعنى: هذا بلاغ.

وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك: إنما بغيكم في الحياة الدنيا على أنفسكم، لأنكم بكفركم تكسبونها غضبَ الله، متاع الحياة الدنيا، كأنه قال: إنما بغيكم متاعُ الحياة الدنيا، فيكون «البغي» مرفوعًا ب «المتاع»، و «على أنفسكم» من صلة «البغي».

وبرفع «المتاع» قرأت القراء سوى عبد الله بن أبي إسحاق، فإنه نصبه، بمعنى: إنما بغيكم على أنفسكم متاعًا في الحياة الدنيا، فجعل «البغي» مرفوعًا بقوله:﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾، و«المتاع» منصوبًا على الحال.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ يقول: ثم إلينا بعد ذلك معادكم ومصيركم، وذلك بعد الممات يقول: فنخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله، ونجازيكم على أعمالكم التي سلفت منكم في الدنيا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَآءَتۡهَا﴾ أي: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ أي: شديدة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ

وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ ﴾ أي: هذه الحال ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: لا نشرك بك أحدا، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾ أي: كأن لم يكن من ذاك شيء ﴿ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ ﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم، كما جاء في الحديث: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يَدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم**»(١).

وقوله: ﴿ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ ﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿ فَنُنَبِّئُكُم ﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ الضمير في ﴿جَآءَتۡهَا ﴾ للسفينة. وقيل للريح الطيبة. والعاصف الشديدة ؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت، فهي عاصف ومعصف ومعصفة أي شديدة، قال الشاعر:

حتى إذا أعصفت ريح مزعزعة فيها قطار ورعد صوته زجل

وقال: ﴿عَاصِفٞ﴾ بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر، وهي القاصف أيضا. والطيبة غير عاصف ولا بطيئة. ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ ﴾ والموج ما ارتفع

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١).

من الماء ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي أيقنوا ﴿أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي أحاط بهم البلاء ؛ يقال لمن وقع في بلية: قد أحيط به، كأن البلاء قد أحاط به ؛ وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله. ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون. وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه، وإن كان كافرا ؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب ؛ على ما يأتي بيانه في «النمل» إن شاء الله تعالى. وقال بعض المفسرين: إنهم قالوا في دعائهم أهيا شراهيا ؛ أي يا حي يا قيوم. وهي لغة العجم.

وقال في قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ أي يعملون في الأرض بالفساد وبالمعاصي. والبغي: الفساد والشرك ؛ من بغى الجرح إذا فسد ؛ وأصله الطلب، أي يطلبون الاستعلاء بالفساد. ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ أي بالتكذيب ؛ ومنه بغت المرأة طلبت غير زوجها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ أي وباله عائد عليكم ؛ وتم الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ أي هو متاع الحياة الدنيا ؛ ولا بقاء له.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة، تؤيد ذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها، وهداكم إليها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: السفن البحرية ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ موافقة

لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ شديدة الهبوب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدَعَوُه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة؟!!

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: غاية ما تؤملون ببغيكم، وشرودكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا، ويمضي جميعًا، ثم تنتقلون عنه بالرغم.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ فيه تحولٌ في الخطاب وضِّحه؟

ج: إيضاحه أن الخطاب انتقل من المخاطب إلى الغائب فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ مخاطب وقوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ غائب، والسياق يقتضي في اللغة- وجرين بكم، ولكن قيل: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ للفت الأنظار، وهذا من الأساليب

البلاغية المعروفة عند العرب.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ خروج من الخطاب إلى الغيبة، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير؛ قال النابغة:

يا دار ميـة بالعليـاء فالسنـد أقـوت وطـال عليها سالف الأمـد

قال ابن الأنباري: وجائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢١ - ٢٢] فأبدل الكاف من الهاء.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: إنما مثل الحياة الدنيا الذي تتكالبون عليه وتتنافسون فيه، وتتكاثرون فيه في ذهابه وزواله كماءٍ فرحتم بنزوله إذا نزل ونبات بذرتم بذرته في الأرض، وانتظرتم الماء فجاءكم الماء فاختلط به ما بذرتموه في الأرض، وهنا قولان للعلماء:

أحدهما: أن الماء تسبب في إخراج النبات فاختلط النبات ببعضه، فتكون الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ سببية، أي: اختلط بسبب الماء نبات الأرض فهذا أحمر، وهذا أخضر، وهذا أبيض، وهذا حلو، وهذا حامض، وهذا تأكله الدواب، وهذا يأكله بنو آدم.

والثـاني: أن قولـه: ﴿بِهِۦ﴾ أي: اختـلط المـاء بـبذور الأرض أو بنباتهـا الضعيف حتى إذا بلغ هذا النبات أشدَّه وكان أحسن ما يكون واستعدَّ أهله لحصاده وظنوا أنهم تمكنوا منه ومن حصاده أصابه الدمار والهلاك من عند الله، ليلًا كان ذلك، وهم نائمون كما قال تعالى في شأن أصحاب الجنة (الحديقة والبستان) ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩﴾ [القلم: ١٩]، وها هنا قال: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ أي: محصودة مقتلعةً من أصلها ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ أي: كأن لم تكن شيئًا بالأمس، كأنها لم تكن موجودة بالأمس وهكذا الحياة في زوالها وانقضائها وذهاب ما عليها من متاع، وفناء ما عليها من خلقٍ تذهب وتزول ولا تبقي لأحدٍ كائنًا ما كان، ولا يبقى منها ولا يُخرج منها إلا بصالح العمل الذي ينتفع به أهله في الآخرة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وُكِّلَ بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، كمثل ماءٍ أنزلناه من السماء، يقول: كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض، ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾، يقول: فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات، مختلطٌ بعضها ببعض.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ يعني: ظهر حسنها وبهاؤها ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ يقول: وتزينت ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾، يعني: أهل الأرض ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾، يعني: على ما أنبتت. وخرج الخبر عن ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ والمعنى للنبات، إذا كان مفهوما بالخطاب ما عُنِي به.

وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾، يقول: جاء الأرض «أمرنا»، يعني:

قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات - إما ليلا وإما نهارًا ﴿فَجَعَلْنَهَا﴾، يقول: فجعلنا ما عليها ﴿حَصِيدًا﴾ يعني: مقطوعة مقلوعة من أصولها.

وإنما هي «محصودة» صرفت إلى «حصيد».

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، يقول: كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتةً قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس.

وأصله: من «غَنِيَ فلان بمكان كذا، يَغْنَى به»، إذا أقام به، كما قال النابغة الذبياني:

غَنِيَــتْ بــذَلِكَ إِذْ هُـمُ لَــكَ جِيــرَةٌ مِنْهَــا بِعَطْــفِ رِسَــالَةٍ وَتَــوَدُّدِ

يقول: فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرُنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها.

يقول الله جل ثناؤها: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، يقول: كما بينَّا لكم أيها الناس، مثل الدنيا وعرّفناكم حكمها وأمرها، كذلك نُبين حججنا وأدلَّتنا لمن تفكَّر واعتبر ونظر.

وخصَّ به أهل الفكر، لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبَه في الصدور.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معنى الآية التشبيه والتمثيل، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء؛ أي مثل ماء، فالكاف في موضع رفع. وسيأتي لهذا التشبيه مزيد بيان في «الكهف» إن شاء الله تعالى. ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ نعت لـ ﴿مَآءٍ﴾. ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾

روي عن نافع أنه وقف على ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾ أي فاختلط الماء بالأرض، ﴿بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي بالماء نبات الأرض ؛ فأخرجت ألوانا من النبات، فنبات على هذا ابتداء، وعلى مذهب من لم يقف على ﴿فَاخْتَلَطَ﴾ مرفوع باختلط ؛ أي اختلط النبات بالمطر، أي شرب منه فتندى وحسن وأخضر. والاختلاط تداخل الشيء بعضه في بعض.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ من الحبوب والثمار والبقول. ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ من الكلأ والتبن والشعير. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ أي حسنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء ؛ ومنه قيل للذهب: زخرف. ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي بالحبوب والثمار والأزهار ؛ والأصل تزينت أدغمت التاء في الزاي وجيء بألف الوصل ؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب ﴿وتزينت﴾ على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية ﴿وأَزْيَنَت﴾ أي أتت بالزينة عليها، أي الغلة والزرع، وجاء بالفعل على أصله ولو أعله لقال وازانت. وقال عوف بن أبي جميلة الأعرابي: قرأ أشياخنا ﴿وازْيانّت﴾ وزنه اسوادت. وفي رواية المقدمي ﴿وازّاينت﴾ والأصل فيه تزاينت، وزنه تقاعست ثم أدغم. وقرأ الشعبي وقتادة ﴿وأزْيانت﴾ مثل أفعلت. وقرأ عثمان النهدي ﴿وازْيَنَت﴾ مثل أفعلت، وعنه أيضا ﴿وازيانت﴾ مثل أفعالت، وروى عنه ﴿ازيأنت﴾ بالهمزة ؛ ثلاث قراءات.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ أي أيقن. ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أي على حصادها والانتفاع بها ؛ أخبر عن الأرض والمعنى النبات إذ كان مفهوما وهو منها. وقيل: رد إلى الغلة، وقيل: إلى الزينة. ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ أي عذابنا، أو أمرنا

بهلاكها. ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ ظرفان. ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ مفعولان، أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها. وقال: ﴿حَصِيدٗا﴾ ولم يؤنث لأنه فعيل بمعنى مفعول. قال أبو عبيد: الحصيد المستأصل. ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ أي لم تكن عامرة؛ من غني إذا أقام فيه وعمره. والمغاني في اللغة: المنازل التي يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. قال لبيد:

وغنيت سبتا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

وقراءة العامة ﴿تَغۡنَ﴾ بالتاء لتأنيث الأرض. وقرأ قتادة ﴿يغن﴾ بالياء، يذهب به إلى الزخرف؛ يعني فكما يهلك هذا الزرع هكذا كذلك الدنيا. ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي نبينها. ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

تأويل الآية أن الحياة في الدنيا سبب لاجتماع المال وما يروق من زهرة الدنيا ويعجب حتى إذا استتم ذلك عند صاحبه وظن أنه ممتع بذلك سلب عنه بموته أو بحادثة تهلكه كما أن الماء سبب لالتفاف النبات وكثرته فإذا تزينت به الأرض وظن الناس أنهم مستمتعون بذلك أهلكه الله فعاد ما كان فيها كأن لم يكن.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ضرب تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أب وقَضْب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي: حَسُنت بما خرج من رُباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال

والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على جَذاذها وحصادها فبيناهم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح بادرة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: يبسا بعد الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك.

وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم تنعم.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث[1]: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيُغْمَس في النار غَمْسَة ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذابًا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا**».

وقال تعالى إخبارًا عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتَفَلّتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ

---

(١) مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِى النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِى الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِى بُؤُسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾ كالحبوب والثمار ﴿ وَ ﴾ مما تأكل ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ كأنواع العشب، والكلأ المختلف الأصناف.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي: حصل معهم طمع، بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان.

❀ ❀ ❀

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥ ۞ لِّلَّذِينَ
أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ
مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨
فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩ هُنَالِكَ
تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ٣٠ ﴾.

[يونس: ٢٥-٣٠].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ - وَيَهۡدِي - صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ - أَحۡسَنُواْ - ٱلۡحُسۡنَىٰ - وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ - وَزِيَادَةٞ - قَتَرٞ - ذِلَّةٞ - كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ - وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ - عَاصِمٖ - أُغۡشِيَتۡ - وُجُوهُهُمۡ - قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ - نَحۡشُرُهُمۡ - مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ - فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ - لَغَٰفِلِينَ - تَبۡلُواْ - مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ - مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ - وَضَلَّ عَنۡهُم - يَفۡتَرُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾	دار الأمان والسلامة من الآفات والمنغصات والعيوب والعذاب، وهي الجنة.
﴿وَيَهۡدِي﴾	يوفق لسلوك طريق الحق الذي هو الإسلام.
﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾	طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه.
﴿أَحۡسَنُواْ﴾	أسلموا وآمنوا وعملوا الصالحات – الجنة.
﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾	وزيادة على الجنة وهي النظر إلى وجه الله الكريم.
﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ﴾	لا يعلو وجوههم – لا يغشى وجوههم – لا يُغطى وجوههم – لا يلحق.
﴿وَزِيَادَةٞ﴾	غبارٌ وسواد.
﴿قَتَرٞ﴾	مذلةٌ وهوان وكآبة.
﴿ذِلَّةٞ﴾	غائرًا لا تناله الأيدي ولا الدلاء.

﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	عملوا السيئات – أشركوا وارتكبوا الكبائر.
﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾	تُغطي وجوههم الذلة، وهي الذل والعارُ والهوان.
﴿عَاصِمٖ﴾	مانع.
﴿أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾	أُلبست.
﴿قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾	جمع قطعة من الليل المُظلم.
﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾	نجمعهم ﴿أولهم وآخرهم إنسهم وجنهم، والأتباع مع المتبوعين والعباد مع المعبوين من دون الله...﴾.
﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡ﴾	الزموا مكانكم وليلزم شركاؤكم مكانهم، أي: ولتلزم الآلهة التي عبدتموها مع الله مكانها.
﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾	ففرقنا بينهم.
﴿لَغَٰفِلِينَ﴾	لا ندري عن عبادتكم لنا.
﴿تَبۡلُواْ﴾	تختبر – تعلم – تتفقد.
﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾	ما عملت في دنياها من خيرٍ أو شرٍّ أو غير ذلك.
﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾	المعبود الحق الذي لا معبود بحقٍّ سواه.
﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾	غاب عنهم وانصرف.
﴿يَفۡتَرُونَ﴾	يكذبون – يدَّعونها آلهة مع الله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم:

أن الله ﷻ، وبعد أن حذر من الدنيا والاغترار بها، وأن ما فيها من النعيم لا يدوم، بل يتحول ويزول، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾، أي: دار الأمان التي لا زوال لها ولا تحول عنها ولا آفة فيها، وهي الجنة.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ أي: ويوفق من يشاء إلى الإسلام، وإلى طاعته ومرضاته.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لعباده: أيها الناس، لا تطلبوا الدنيا وزينتَها، فإن مصيرها إلى فناءٍ وزوالٍ، كما مصير النبات الذي ضربه الله لها مثلا إلى هلاكٍ وبَوَارٍ، ولكن اطلبوا الآخرة الباقية، ولها فاعملوا، وما عند الله فالتمسوا بطاعته، فإن الله يدعوكم إلى داره، وهي جناته التي أعدَّها لأوليائه، تسلموا من الهموم والأحزان فيها، وتأمنوا من فناء ما فيها من النَّعيم والكرامة التي أعدَّها لمن دخلها، وهو يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سببًا للوصول إلى رضاه، وطريقًا لمن ركبه وسلك فيه إلى جِنانه وكرامته.

وقال السعدي رحمه الله:

عم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام، والحث على ذلك، والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه، فهذا فضله وإحسانه، والله

يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لما ذكر وصف هذه الدار وهي دار الدنيا وصف الآخرة فقال: إن الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم إلى الطاعة لتصيروا إلى دار السلام، أي إلى الجنة. قال قتادة والحسن: السلام هو الله، وداره الجنة؛ وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات. ومن أسمائه سبحانه «السلام»، وقد بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). ويأتي في سورة «الحشر» إن شاء الله. وقيل: المعنى والله يدعو إلى دار السلامة. والسلام والسلامة بمعنى كالرضاع والرضاعة.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾؟

ج: المراد -والله أعلم-: الذين أسلموا وحسن إسلامهم.

وأيضًا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وقيل: الذين شهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

❁ ❁ ❁

دليلٌ على رؤية المؤمنين ربهم ﷻ يوم القيامة

س: ما المراد بالحسنى؟ وما المراد بالزيادة؟

ج: الحسنى هي الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله – تبارك وتعالى – يوم القيامة، هذا هو رأي جمهور العلماء من المفسرين وغيرهم، والله تعالى أعلم.

وقد ورد بذلك حديث عن رسول الله ﷺ، وإن كان في سنده اختلاف، وهو حديث أخرجه مسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ. فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ». حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[(١)].

وقد ورد للحديث طريق آخر ضعيف من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا، وفي سنده ضعف، وكذا عن أبي موسى مرفوعًا وعن كعب بن عجرة مرفوعًا.

إلا أن أكثر العلماء – كما أسلفت قالوا: إن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى.

وقد أورد الطبري آثارًا بذلك منها أثر أبي إسحاق عن عامر بن سعد عن سعيد بن عمران عن أبي بكر ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: النظر إلى وجه الله.

---

(١) مسلم (حديث ١٨١) وقد انتقد على مسلم فقد روي من قول عبد الرحمن بن أبي ليلى موقوفًا عليه (أي: مقطوعًا فعبد الرحمن تابعي). انظر التتبع للدارقطني.

وهذا ضعيف فسعيد بن عمران مجهول.

وورد هذا الأثر من طريق أبي إسحاق عن عامر بن سعد عن أبي بكر ودون ذكر سعيد بن عمران، وهذا أراه منقطعًا فإن عامرًا لم يدرك أبا بكر وورد من طريق أبي إسحاق عن عامر بن سعد قوله.

ومن طريق أبي إسحاق عن مسلم بن نذير[1] عن حذيفة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: النظر إلى وجه ربهم.

وصح هذا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى كذلك وعن الحسن البصري وعن عددٍ كبير من أهل العلم.

هذا، وقد ذهب بعض العلماء إلى أقوالٍ أخر منها:

* **أن الزيادة:** هي التعضيف يعني تضعيف الحسنات فقال: الحسنى، واحدة من الحسنات بواحدة، والزيادة التضعيف إلى تمام العشر أو إلى سبعمائة ضعف.

* **وقال آخرون: الزيادة:** مغفرة من الله ورضوان.

* **وقال آخرون: الزيادة:** هي فضل الله الذي تفضل به عليهم في الدنيا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وَعَد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إيّاه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها. ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غُرفا من لآلئ، وأن يزيدَهم غفرانا ورضوانًا، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى

(١) مسلم لم يوثقه كبير مقبر.

التي جعلها الله لأهل جناته. وعمّ ربنا جل ثناؤه بقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، الزيادات على «الحسنى»، فلم يخصص منها شيئًا دون شيء، وغير مستنكَرٍ من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يُعَمَّ، كما عمَّه عز ذكره.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته.

والحافظ ابن كثير من قالوا ذلك من الصحابة والتابعين وذكر بعض الأحاديث بذلك، وفي سندها مقال كما أشرت:

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا، لهم «الحسنى» وهي الجنة الكاملة في حسنها و «زيادة» وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ولا يلحق ولا يعلو ولا يغشى وجوههم ﴿قَتَرٌ﴾ غبارٌ وسوادٌ ودخانٌ وخزيٌ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا مذلة ولا هوان ولا كآبةٌ.

فهؤلاء الذين أحسنوا أصحاب الجنة يخلَّدون فيها ولا يتحولون عنها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، لا يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصير من الحزن كأنما علاها قترٌ.

و«القتر» الغبار، وهو جمع «قَتَرَة» ومنه قول الشاعر:

مُتَــوَّجٌ بِــرِداءِ المُلْــكِ يَتْبَعُــهُ ... مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتَرا

يعني بـ«القتر» الغبار.

﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، ولا هوان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها، ومن هو فيها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتتنغَّص عليهم لذَّتُهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عَرَصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القُتْرة والغُبْرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي:

هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإنسان: ١١] أي: نضرة في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أي: لا ينالهم مكروه، بوجه من الوجوه، لأن المكروه، إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما قال الله عنهم -: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين: ٢٤] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ الملازمون لها ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ لا يحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم -:

والذين عملوا السيئات وهي الشرك والكبائر والمعاصي يجازون على السيئات سيئات مثلها كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: وتغشى وُجوهَهم ويغطيها ذلٌّ وهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ من مانع يمنعهم من عذاب الله ولا من الذل والهوان والخزي والعار كأنما أُلبست وجوهُهم قطعًا من الليل الأسود المظلم،

فأصبحت وجوههم سوداء كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦].

أما قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الذين كسبوا السيئات وماتوا على شركهم وكفرهم وضلالهم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لا يخرجون منها ولا يُخفف عنهم من عذابها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين عملوا السيئات في الدنيا، فعصوا الله فيها، وكفروا به وبرسوله ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾، من عمله السيئ الذي عمله في الدنيا ﴿بِمِثْلِهَا﴾، من عقاب الله في الآخرة ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ﴾، يقول: وتغشاهم ذلة وهوان، بعقاب الله إياهم ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ﴾، يقول: ما لهم من الله من مانع يمنعهم، إذا عاقبهم، يحول بينه وبينهم.

وقال بعد أن أورد وجوهًا في رفع ﴿جَزَاءُ﴾:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يكون «الجزاء» مرفوعًا بإضمار، بمعنى: فلهم جزاء سيئة بمثلها، لأن الله قال في الآية التي قبلها: ﴿۞ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾، فوصف ما أعدَّ لأوليائه، ثم عقب ذلك بالخبر عما أعدّ الله لأعدائه، فأشبهُ بالكلام أن يقال: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة، وإذا وُجِّه ذلك إلى هذا المعنى، كانت الباء صلة للجزاء.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: كأنما ألبست وجوه هؤلاء الذين كسبوا السيئات ﴿قِطَعًا

﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، وهي جمع « قطعة».

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت لك صفتهم أهلُ النار الذين هم أهلها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾، يقول: هم فيها ماكثون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٤]، وقوله ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ أي: من مانع ولا واق يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢﴾ [القيامة: ١٠-١٢].

وقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ [عبس: ٣٨-٤٢]. الآية.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي عملوا المعاصي. وقيل: الشرك. ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ ﴿جَزَآءُ﴾ مرفوع بالابتداء، وخبره ﴿بِمِثۡلِهَا﴾. قال ابن كيسان: الباء زائدة؛ والمعنى جزاء سيئة مثلها. وقيل: الباء مع ما بعدها الخبر، وهي متعلقة بمحذوف قامت مقامه، والمعنى: جزاء سيئة كائن بمثلها؛ كقولك: إنما أنا بك؛ أي وإنما أنا كائن بك. ويجوز أن تتعلق بجزاء، التقدير: جزاء السيئة بمثلها كائن؛ فحذف خبر المبتدأ. ويجوز أن يكون ﴿جَزَآءُ﴾ مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة؛ فيكون مثل قوله: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة: ١٨٤] أي فعليه عدة، وشبهه؛ والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة أو زائدة.

ومعنى هذه المثلية أن ذلك الجزاء مما يعد مماثلا لذنوبهم، أي هم غير مظلومين، وفعل الرب جلت قدرته وتعالى شأنه غير معلل بعلة. ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ أي يغشاهم هوان وخزي. ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذاب الله. ﴿مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ أي مانع يمنعهم منه.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ أي ألبست. ﴿وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا﴾ جمع قطعة، وعلى هذا يكون ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ حال ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي أغشيت وجوههم قطعا من الليل في حال ظلمته.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٞۖ﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا

يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوادًا في الوجوه.

﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فكم بين الفريقين من الفرق، ويا بعد ما بينهما من التفاوت؟!

﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٥] ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢].

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ ﴾ قراءتان وضحهما؟ مع بيان معنى كلٍّ من القراءتين في قوله تعالى: ﴿ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ ﴾؟

ج: القراءة الأولى: ﴿ تَبۡلُواْ ﴾ بالتاء المثناة الفوقانية ثم ﴿بالباء﴾ الموحدة التحتانية والقراءة الثانية ﴿تتلوا﴾ بالتاء ثم التاء أي: بتاءين.

وقد صوَّب الطبري رحمه الله تعالى القراءتين.

قلت (مصطفى): أما عن معنى قوله تعالى: ﴿ تَبۡلُواْ ﴾ بالباء: فمعناها تختبر أي: تتفقد أعمالها التي عملتها من خيرٍ أو شرٍّ وتنظر فيها وتعلمها وقيل: تُسلِّم ما عليها من الحقوق لأصحابها بغير اختيارها.

أما عن معنى: ﴿تتلوا﴾ فمعناها، والله أعلم تتبع كل نفس عملها وترتهن به إن كان خيرًا فخيرٌ، وإن كان شرًّا فشرٌّ.

وقيل: معناها تقرأ أعمالها كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤] والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: واذكر يوم نحشرهم جميعًا، نجمع الخلائق جميعًا أولهم وآخرهم إنسهم وجنهم عابدهم ومعبودهم الذي عبدوه من دون الله، وذلك الجمع يكون يوم القيامة ثم نقول إذا جمعناهم، نقول للذين أشركوا: الزموا مكانكم يا أهل الشرك وليلزم شركاؤكم الذين عبدتموهم من دون الله مكانهم أيضًا، قفوا أنتم وما هم فإنكم ستسألون، ففرقنا بينهم فحينئذٍ يقول أهل الشرك، إذا سئلوا ماذا كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد هذه الأصنام، هذه الجمادات[1] أموالهم كذلك، فمنهم من كان يُعبد عزيرًا، ومنهم من ظلم يعبد المسيح، ومنهم من كان يعبد الملائكة، وقد ذكرت أموال كل هؤلاء في مواطن أخر فتجيب الجمادات، تجيب هذه الأصنام إذ الله ﷻ يُنطقها فتُجيب قائلةً ما كنتم إيانا تعبدون، أي أنكم ما عبدتمونا ولا شعرنا بعبادتكم لنا فيصرُّ أهل الشرك على موقفهم فيقولون: بل كنا نعبدكم فتجيب الأصنام والأوثان (ينطقها الله تبكيتًا لعبّادها) ما كان لنا من سمعٍ نسمع به ولا بصرٍ نُبصر به وعقل نعقل به وما شعرنا بعبادتكم لنا وربنا خير شاهدٍ وكفى به شهيدًا بيننا وبينكم أننا ما شعرنا بعبادتكم لنا وما أقررناكم على ذلك، بل ربنا شهيد على

---

(١) وهؤلاء طائفة من أهل الشرك الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان، وإلا فقد ذكر أهل الشرك كلٌّ في موطن وذكرت.

أننا كنا غافلين عن عبادتكم لنا وما أحسننا بكم ولا شعرنا بكم.

فحينئذٍ تختبر كلُّ نفس عملها وتنظر في عملها الذي عملته في الدنيا وتتفقده فتعلمه وتجازي به وتتبعه وتُسلم لعملها كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ [الأنعام: ٧٠] أي: أُسلموا لكسبهم الذي اكتسبوه فجُوزوا به واتبعوه.

أما قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: ورجعوا يوم القيامة إلى الله متولي أمورهم يحكم فيهم بما يشاء ويقضي بينهم ما يريد فهو المولى الحق، والمعبود الذي ما سواه باطل، وهو المولى الذي يحكم بالعدل والقسط ولا يظلم أحدًا، وهو الذي يتولى أهل الصلاح وأهل عبادته فيتغمدهم برحمته، وهو الذي يتولى أمر العباد حقًّا.

أما أهل الشرك فقد غابت عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله وانصرفت عنهم تلك الآلهة التي افتروها وجعلوها بزعمهم شريكة لله ﷻ.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويوم نجمع الخلق لموقف الحساب جميعًا، ثم نقول حينئذ للذين أشركوا بالله الآلهةَ والأندادَ: ، ﴿مَكَانَكُمۡ﴾، أي: امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم، أنتم، أيها المشركون، وشُركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان ، ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾، يقول: ففرقنا بين المشركين بالله وما أشركوه به.

من قولهم: «زِلْت الشيء أزيلُه»، إذا فرّقت بينه وبين غيره وأبنته منه. وقال: «فزيّلنا» إرادة تكثير الفعل وتكريره، ولم يقل: «فزِلْنا بينهم».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾، وذلك حين تبرأ الذين اتَّبعوا من الذين اتُّبعوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب، لما قيل للمشركين: «اتبعوا ما كنتم تعبدون من دون الله»، ونصبت لهم آلهتهم، قالوا: «كنا نعبد هؤلاء»!، فقالت الآلهة لهم: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾.

ويقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل شركاء المشركين من الآلهة والأوثان لهم يوم القيامة، إذ قال المشركون بالله لها: إياكم كنا نعبد، ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾، أي إنها تقول: حسبُنا الله شاهدًا بيننا وبينكم، أيها المشركون، فإنه قد علم أنّا ما علمنا ما تقولون، ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾، يقول: ما كنا عن عبادتكم إيانا دون الله إلا غافلين، لا نشعر به ولا نعلم

ثم قال في تأويل قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾.

اختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ ﴾، بالباء، بمعنى: عند ذلك تختبر كلّ نفس ما قدمت من خيرٍ أو شّرٍ.

وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة وبعض أهل الحجاز: ﴿ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾، بالتاء.

واختلف قارئو ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضهم: معناه وتأويله: هنالك تتبع كل نفس ما قدَّمت في الدنيا لذلك اليوم.

وقال بعضهم: بل معناه: يتلو كتاب حسناته وسيئاته. يعني يقرأ، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾، [سورة الإسراء: ١٣].

وقال آخرون: «تَتْلو» تعاين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القراء، وهما متقاربتا المعنى. وذلك أن من تبع في الآخرة ما أسلفَ من العمل في الدنيا، هجم به على مَوْرده، فيخبر هنالك ما أسلفَ من صالح أو سيء في الدنيا، وإنّ مَنْ خَبَرَ من أسلف في الدنيا من أعماله في الآخرة، فإنما يخبر بعد مصيره إلى حيث أحلَّه ما قدم في الدنيا من علمه، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبع ما أسلف من عمله، مختبر له، فبأيتهما قرأ القارئ كما وصفنا، فمصيبٌ الصوابَ في ذلك.

وأما قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾، فإنه يقول: ورجع هؤلاء المشركون يومئذٍ إلى الله الذي هو ربهم ومالكهم، الحقّ لا شك فيه، دون ما كانوا يزعمون أنهم لهم أرباب من الآلهة والأنداد، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾، يقول: وبطل عنهم ما كانوا يتخرَّصون من الفرية والكذب على الله بدعواهم أوثانهم أنها لله شركاء، وأنها تقرِّبهم منه زُلْفَى.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾، قال: ما كانوا يدعون معه من الأنداد والآلهة، ما كانوا يفترون الآلهة، وذلك أنهم جعلوها أندادًا وآلهة مع الله افتراءً وكذبًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن

وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي: الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صِدعين.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارًا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أنكروا عبادتهم، وتبرءوا منهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ الآية. [مريم: ٨٢]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقال في هذه الآية إخبارًا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم،

السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمرا بعبادته وحده لا شريك له، ناهيًا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبَيّن أحوالهم وأقوالهم، ورَد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقد قرأ بعضهم: ﴿ هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ وفسّرها بعضهم بالقراءة، وفسّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفسّرها بعضهم بحديث: «**تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت**» الحديث[(١)].

وقوله: ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي: ما

(١) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ عنى بالشركاء الملائكة. وقيل: الشياطين، وقيل: الأصنام؛ فينطقها الله تعالى فتكون بينهم هذه المحاورة. وذلك أنهم ادعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنهم أمروهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا.

قال مجاهد: ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا. وإن حمل الشركاء على الشياطين فالمعنى أنهم يقولون ذلك دهشا، أو يقولون كذبا واحتيالا للخلاص، وقد يجري مثل هذا غدا؛ وإن صارت المعارف ضرورية.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ ﴿شَهِيدًا﴾ مفعول، أي كفى الله شهيدا، أو تمييز، أي اكتف به شهيدا بيننا وبينكم إن كنا أمرناكم بهذا أو رضيناه منكم. ﴿إِن كُنَّا﴾ أي ما كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل؛ لأنا كنا جمادا لا روح فينا.

وقال القرطبي أيضًا:

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ وقد أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم. قيل ليس بمولاهم في النصرة والمعونة، وهو مولى لهم في الرزق وإدرار النعم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجمع جميع الخلائق، لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم.

﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضًا وعداوة.

وتبرأ ﴿ شُرَكَآؤُهُم ﴾ منهم وقالوا: ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك، أو نديد.

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس: ٦٠].

وقــــال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي: في ذلك اليوم ﴿ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾

أي: تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازي بحسبه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ
ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾
فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ
أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ
ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن
يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ
بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى
عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

[يونس: ٣١-٤١].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿تُصۡرَفُونَ - حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ - فَسَقُوٓاْ - يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ - يُعِيدُهُۥ - فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ - لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ - إِلَّا ظَنًّاۚ - يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ - تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ - لَا رَيۡبَ فِيهِ - وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ - ٱفۡتَرَىٰهُۖ - يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ - وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ - لِّي عَمَلِي - بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تُصۡرَفُونَ﴾	تتحولون عن الحق إلى الباطل.
﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾	تحقق ما يريده الله – تحقق ما كتبه الله وقضاه وتكلم به.
﴿فَسَقُوٓاْ﴾	خرجوا عن الطاعة واستمروا على الكفر.
﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾	يخلقه لأول مرة.
﴿يُعِيدُهُۥ﴾	يُعيده بعد فنائه كما كان لأول مرةٍ.
﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾	فمن أي وجهٍ تُصرفون عن الحق إلى الباطل.
﴿لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾	لا يهتدي إلا إذا هداه غيره ولا ينتقل إلا إذا نقله غيره.
﴿إِلَّا ظَنًّاۚ﴾	توهمًا – تخرصًا – شكًّا.
﴿يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	يختلق من عند غير الله.
﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾	موافقة للتوراة والإنجيل.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾	بيان للكتاب، بيانٌ للحلال والحرام والفرائض والأحكام.
﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾	لا شك فيه، ولا ارتياب في كونه نزل من عند الله.
﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾	تقوَّله من عند نفسه ونسبه إلى الله ﷻ.
﴿يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾	يطلعوا على حقيقته.
﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾	لما يأتهم الوقت الذي يشاهدون فيه حقيقة ما أُخبروا به.
﴿لِّى عَمَلِى﴾	لي ثواب عملي.
﴿بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾	لا تتحملون من عملي شيئًا.

❁ ❁ ❁

إقرار أهل الشرك بوجود الله ﷻ

س: أهل الشرك كانوا يقرون بوجود الله ﷻ دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

وقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

إلى غير ذلك من الآيات.

❃ ❃ ❃

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين الجاحدين وحدانية الله ﷻ، الذين اتخذوا معه آلهة أخرى وأشركوا بالله ما لم

ينزل به سلطانًا، قل لهؤلاء من يرزقكم من السماء بالغيث الذي يُغيثكم به فتشربون وتسقون أنعامكم وينبت لكم به من الأرض النبات فتحيون به وتأكلون من حبوبه وثماره وترعون أنعامكم وتحلبونها وتذبحونها فتنعمون بذلك، وكذلك ييسر لكم أسباب الرزق في الأرض، وقل لهم كذلك يا رسول الله من عليكم سمعكم وسمع غيركم، ولو شاء الله لذهب به ولأصحكم، وكذلك من عليك الأبصار، ولو شاء لأضعفها وأعماها، وكذا من يخرج الحيّ، النبات من الميت البذور، ويخرج كذلك الأفرخ من البيض والأجنة من المني (الذي يُمنى) والكافر صلب المؤمن، والمؤمن من صلب الكافر، ومن يدبر أمر السموات والأرض ومن فيهن فيمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وكذا من يُدبر أمر الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وكلٌّ في فلكٍ يسبحون، وكذا من يدبر أمر عموم الخلائق فيحيي ويميت ويعز ويذل، ويكرم ويهين، ويوسع الأرزاق ويقدر، ويذهب بهذا ويأتي بذلك ويشفي ويعافي، ويُمرض ويُسقم إلى غير ذلك من أمور الخلائق، سل يا رسول الله أهل الشرك من يفعل ذلك، فيسقولون الله يفعل ذلك لا يفعله أحدٌ سواه، فقل لهم أفلا تتقون الله إذن أفلا تخشون عقابه وقد جعلتم له شريكًا في الملك؟!! أفلا تتقون الشرك بالله؟!!!

فذلكم الذي يفعل ذلك كله بإقراركم هو ربكم الحق المعبود بحق، فليس في الأرض ولا في السماء معبودٌ بحق سواه وليس في أي مكان معبودٌ سواه. فماذا بعد هذا البيان الحق إلا الضلال، وماذا بعد عبادة الله وتوحيده إلا الكفر والشرك والعياذ بالله فمن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، ولمن توحيده ﷻ إلى الشرك به.

ولكن هكذا، وكما ختمنا على قلوب من كانوا قبلهم فماتوا على الكفر، وقد قضينا عليهم به، فكذا هؤلاء الفساق الخارجون عن الطاعة الخارجون عن توحيد الله إلى الشرك به، فهؤلاء الذين سبقت لهم الشقاوة ستتحقق فيهم كلمة الله التي تكلم بها وقضاها بأنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آيةٍ ولو جاءهم كل بيان.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾، يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الأوثانَ والأصنامَ ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، الغيثَ والقطر، ويطلع لكم شمسها، ويُغْطِش ليلها، ويخرج ضحاها ومن الأرض أقواتَكم وغذاءَكم الذي ينْبته لكم، وثمار أشجارها ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ يقول: أم من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم التي تسمعون بها: أن يزيدَ في قواها، أو يسلبكموها، فيجعلكم صمًّا، وأبصاركم التي تبصرون بها: أن يضيئها لكم وينيرها، أو يذهب بنورها، فيجعلكم عُمْيًا لا تبصرون ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾، يقول: ومن يخرج الشيء الحي من الميت ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾، يقول: ويخرج الشيء الميت من الحيّ.

وقد ذكرنا اختلاف المختلفين من أهل التأويل، والصواب من القول عندنا في ذلك بالأدلّة الدالة على صحته، في «سورة آل عمران»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾، وقل لهم: من يُدبر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمرَ الخلق؟ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾، يقول جل ثناؤه: فسوف يجيبونك بأن

يقولوا: الذي يفعل ذلك كله الله ﴿ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ ﴾، يقول: أفلا تخافون عقاب الله على شرككم وادعائكم ربًّا غيرَ من هذه الصفة صفتُه، وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئًا، ولا يملك لكم ضرًا ولا نفعا، ولا يفعل فعلا؟

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢ ﴾.

يقول تعالى ذكره لخلقه: أيها الناس، فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويدبر الأمر؛ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، لا شك فيه ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾، يقول: فأي شيء سوى الحق إلا الضلال، وهو الجور عن قصد السبيل؟

يقول: فإذا كان الحقُّ هو ذا، فادعاؤكم غيره إلهًا وربًّا، هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾، يقول: فأيّ وجه عن الهدى والحق تُصرفون، وسواهما تسلكون، وأنتم مقرُّون بأن الذي تُصرَفون عنه هو الحق؟

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ ﴾.

يقول تعالى ذكره: كما قد صُرِف هؤلاء المشركون عن الحق إلى الضلال ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، يقول: وجب عليهم قضاؤه وحكمه في السابق من علمه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾، فخرجوا من طاعة ربهم إلى معصيته وكفروا به ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾، يقول: لا يصدِّقون بوحدانية الله ولا بنبوة نبيه ﷺ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله فقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقًا بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿ حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس: ٢٧ - ٣١]، أإله مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ [الملك: ٢١]؟، وكذلك قوله: ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾؟ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله.

وقوله: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله

إلا هو، واحد لا شريك له.

﴿ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٣٢ ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣ ﴾ أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١ ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المراد بمساق هذا الكلام الرد على المشركين وتقرير الحجة عليهم؛ فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم، ومن لم يعترف فيقرر عليه أن هذه السموات والأرض لا بد لهما من خالق؛ ولا يتمارى في هذا عاقل. وهذا قريب من مرتبة الضرورة. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي بالمطر. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ بالنبات. ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ أي من جعلهما وخلقهما لكم. ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ ﴾ أي النبات من الأرض، والإنسان من النطفة، والسنبلة من الحبة، والطير من البيضة، والمؤمن من الكافر. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ ﴾ أي يقدره ويقضيه. ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله؛ أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا ﴿فَقُلۡ ﴾ لهم يا محمد. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ ﴾ أي أفلا تخافون عقابه ونقمته في الدنيا والآخرة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء هو

ربكم الحق، لا ما أشركتم معه. ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ ﴿ذَا﴾ صلة أي ما بعد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه وعلمه السابق. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا. ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ أي لا يصدقون. وفي هذا أوفى دليل على القدرية.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: ﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطانًا – محتجًا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الألوهية– ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟، وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما.

﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ عكس هذه المذكورات، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فَقُلۡ﴾ لهم إلزامًا بالحجة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿ فَذَٰلِكُمُ ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ﴾ أي: المألوه المعبود المحمود، المربي جميع الخلق بالنعم وهو: ﴿ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾.

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتبا لمن أشرك به، وويحًا لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم، بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ بعد ما أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات، ما فيه عبرة لأولي الألباب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

❁ ❁ ❁

س: من طرائق الإقناع أن تقرر الشخص أولًا بأمور فإذا أقرَّ بها ألزمته بما يقتضيه إقراره من إلزامات، دلِّل على ذلك.

ج: نعم؛ تقرير المخاطب بأصولٍ وقواعدَ، ثم البناء على هذه الأصول والقواعد بعد إقراره، هي طريقة لها أصولها وأدلتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأفعال العقلاء:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال النبي ﷺ للمشركين في بداية دعوته آخذًا منهم الاعتراف والإقرار بصدقه: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»(١).

وانظر إلى مقالة الرسول ﷺ للأنصار لما أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يُعط الأنصار شيئًا فكأنهم وجدوا (أي: حزنوا) إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟**» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ... «**أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ**»... الحديث(٢).

وأخرج الإمام أحمد(٣) في «مسنده» من حديث أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وقَالُوا: مَهْ مَهْ! فَقَالَ: «**ادْنُهْ**» فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ**

---

(١) البخاري (حديث ٤٧٧٠)، ومسلم (حديث ٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) البخاري (حديث ٤٣٣٠)، ومسلم (حديث ١٠١٦).

(٣) أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٦) بإسناد صحيح.

لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ» قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.[١]

وها هو عليه السلام يقرر اليهود – قبل إخبارهم بإسلام عبد الله بن سلام – بسيادة عبد الله بن سلام وفضل عبد الله بن سلام:

قال عليه الصلاة والسلام لليهود: «فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟» قَالُوا: ذَاكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا، قَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟» قَالُوا: حَاشَى لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «يَا ابْنَ سَلَامٍ اخْرُجْ عَلَيْهِمْ» فَخَرَجَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ اتَّقُوا اللهَ، فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ، فَقَالُوا: كَذَبْتَ فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللهِ.

* وها هو عروة بن مسعود الثقفي يقول للمشركين قبيل صلح الحديبية قبل أن يشير عليهم بما يراه، وقد كان منهم آنذاك، يقول لهم: ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلَّحوا عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها

(١) لكن التوفيق من عند الله.

ودعوني آتيه...الحديث.

فانظر إلى استهلاله للحديث وإلى ذِكرِ مآثره أمامهم حتى ينفي عن نفسه تهمة الخيانة أو الغش لهم... ثم حثه لهم على قبول خطة الصلح.

فحقًّا إنه فقه تعامل وفقه تخاطب مع الناس، يؤتيه الله من يشاء من عباده، فهي طريقة سلكها العقلاء والتمسها الفضلاء للوصول إلى المراد بالتي هي أحسن.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين الجاحدين وحدانية الله، الذين عبدوا مع الله أوثانًا وأصنامًا وآلهة أخرى قل لهم من يخلق الخلق لأول مرة، من الذي خلق السموات والارض، من الذي خلق الخلق كلهم لأول مرة؟ ومن ذا الذي يعيدها مرة أخرى.

سلهم هذا السؤال فلن يستطيعوا أن يقولوا الأصنام والأوثان والآلهة، فهم بين أمرين إما أن يسكتوا مقرين أن خالقها لأول مرة هو الله ﷻ وإما أن يقولوا مصرحين بذلك الله خالقها، فعلى أية حال قل لهم الله الذي خلقها أول مرة، وهو ﷻ يعيدها، كما بدأ خلقها وإن أنكرتم البعث فإن الله فاعله فمن أي وجه تصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن التوحيد إلى الشرك بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، يعني من الآلهة والأوثان ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، يقول: من ينشئ خَلْق شيء

من غير أصل، فيحدث خلقَه ابتداءً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، يقول: ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيَه، فإنهم لا يقدرون على دعوى ذلك لها. وفي ذلك الحجة القاطعة والدِّلالة الواضحة على أنهم في دعواهم أنها أربابٌ، وهي لله في العبادة شركاء، كاذبون مفترون.

فقل لهم حينئذ، يا محمد: الله يبدأ الخلق فينشئه من غير شيء، ويحدثه من غير أصل، ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل الفناء ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، يقول: فأيّ وجه عن قصد السبيل وطريق الرُّشد تُصْرَفون وتُقْلَبُون؟

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقًا جديدًا؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟!

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي آلهتكم ومعبوداتكم. ﴿مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير ؛ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وليس غيره يفعل ذلك. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى - مبينًا عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله- ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ﴾ أي: يبتديه ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك.

﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي: تصرفون، وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين هل من الآلهة التي عبدتموها مع الله من الأصنام والأوثان من يرشد إلى طريق الحق والصواب؟ هل ترشدكم أصناكم في طريقكم الدنيوي إذا أخطأتموه، وهل ترشدكم إلى طريق الإسلام وتدلكم عليه وتحذركم من طريق الكفر والعصيان؟؟! هل هذه الآلهة بيدها توفيقكم وسدادكم، أم أن الذي يهديكم هو الله ﷻ، فلن يستطيعوا القول بأن الأصنام تهديهم وترشدهم وتسددهم وتوفقهم.

لن يستطيعوا أن يقولوا ذلك ولا أن يدّعوه! فإذا كان الأمر كذلك فقل لهم: أفمن يهدي إلى الحق أحق أن تتبعوه وتتبعوا قوله وتهتدوا بهديه وتوحدوه ولا تشركوا به شيئًا.

أم أن الذي يتبع من لا يهدِّي أي: من لا يهتدي ولا يُرشد إلا إذا هداه غيره

وأرشده.

وعبَّر عن الأصنام والأوثان هنا كما يعبر عن العقلاء تنزلًا حتى يفهم المشركون، وإلا فالأصنام لا تهتدي وإن هداها أحد.

وقد قال بعض أهل العلم: إن المعنى أم من لا ينتقل إلى غير ما هو عليه إلا أن ينقله غيره.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية عامة لا تتعلق بالأصنام وحدها بل بعموم الآلهة الباطلة المعبودة مع الله ﷻ، فعموم الآلهة الباطلة المعبودة مع الله من إنس وجن وملك وغير ذلك لا تستطيع هداية أحد هداية توفيق، إنما الذي يوفق للحق هو الله سبحانه وتعالى.

هذا، فإذا كان الأمر كذلك، ألا وهو أن الأحق بالاتباع هو الله ﷻ الذي يهدي للحق، أحق أن يُعبد ويوحد وأن يُتبع ما أنزل على رسوله، وأن الأصنام لا تملك هداية لأحدٍ، ولا تنتقل عن حالها إلا إذا نقلت، ولا ترشد ضالًّا ولا تهدي غويًّا زائغًا، فقل لهؤلاء المشركين فما لكم، وقد علمتم من أولى بالاتباع، تحكمون بهذه الأحكام الجائرة وتشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا؟؟ وتقضوا بأن الله له شريك في الملك، أليس هذا من التضارب والتناقض والظلم والافتراء؟!!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، الذين تدعون من دون الله، وذلك آلهتهم وأوثانهم، ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يقول: من يرشد ضالا من ضلالته إلى قصد السبيل، ويسدِّد جائرًا عن الهدى إلى واضح الطريق المستقيم؟ فإنهم لا يقدرون أن يدَّعوا أن آلهتهم

وأوثانهم تُرشد ضالا أو تهدي جائرًا. وذلك أنهم إن ادَّعوا ذلك لها أكذبتهم المشاهدة، وأبان عجزَها عن ذلك الاختبارُ بالمعاينة. فإذا قالوا «لا» وأقرُّوا بذلك، فقل لهم. فالله يهدي الضالَّ عن الهدى إلى الحق ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ﴾ أيها القوم ضالا إلى الحقّ، وجائرًا عن الرشد إلى الرشد ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾، إلى ما يدعو إليه ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾؟

وأورد بعض وجوه القراءات في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

ثم قال:

وأولى القراءة في ذلك بالصواب، قراءةُ من قرأ: ﴿أَمَّن لَّا يَهَدِّيٓ﴾ بفتح الهاء وتشديد الدال، لما وصفنا من العلة لقارئ ذلك كذلك، وأن ذلك لا يدفع صحته ذو علم بكلام العرب، وفيهم المنكر غيره. وأحقُّ الكلام أن يقرأ بأفصح اللغات التي نزل بها كلامُ الله.

فتأويل الكلام إذًا: أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع، أم من لا يهتدي إلى شيء إلا أن يهدي؟

وكان بعض أهل التأويل يزعم أن معنى ذلك: أم من لا يقدر أن ينتقل عن مكانه إلا أن يُنْقل..

ثم قال:

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾، ألا تعلمون أن من يهدي إلى الحق أحقُّ أن يتبع من الذي لا يهتدي إلى شيء، إلا أن يهديه إليه هادٍ غيره، فتتركوا اتّباع من لا يهتدي إلى شيء وعبادته، وتتبعوا من يهديكم في ظلمات البر والبحر، وتخلصوا له العبادة فتفردوه بها وحده، دون ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم؟

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله، الذي لا إله إلا هو.

﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ أي: أفيُتَّبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبَصّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا] أن يهدى، لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢﴾ [مريم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٥﴾ أي: فما بالكم يُذْهَبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خَلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾ يقال: هداه للطريق وإلى الطريق بمعنى واحد؛ وقد تقدم. أي هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام؛ فإذا قالوا لا ولا بد منه فـ ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ ثم قل لهم موبخا ومقررا. ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ﴾ أي يرشد. ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى. ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٥﴾ يريد الأصنام التي لا تهدي أحدا، ولا تمشي إلا أن تحمل، ولا تنتقل عن مكانها إلا أن تنقل. قال

الشاعر:

للفتـــى عقـــل يعـــيش بـــه حيـــث تهـــدي ســـاقه قدمـــه

وقيل: المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يرشدوا.

ثم قال:

وقال أبو إسحاق: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلام تام، والمعنى: فأي شيء لكم في عبادة الأوثان. ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح، تعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئا إلا أن يفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته؛ فموضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بـ ﴿تَحْكُمُونَ﴾.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير): والمراد بقوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ﴾: الصنم. ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ وظاهر الكلام يدل على أن الأصنام إن هديت اهتدت وليست كذلك لأنها حجارة لا تهتدى إلا أنهم لما اتخذوها آلهة عبر عنها كما يعبر عمن يعقل ووصفت صفة من يعقل وإن لم تكن في الحقيقة كذلك ولهذا المعنى قال في صفتها: ﴿أَمَّن﴾ لأنهم جعلوها كمن يعقل ولما أعطاها حقها في أصل وضعها قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ [مريم: ٤٢] وقال الفراء: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ﴾ أي: أتعبدون ما لا يقدر أن ينتقل من مكانه إلا أن يحول وقد صرف بعضهم الكلام إلى الرؤساء والمضلين والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو كلام تام، كأنه قيل لهم: أي شيء لكم في عبادة الأوثان؟ ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: على أي حال تحكمون؟ وقال ابن عباس: كيف تقضون لأنفسكم؟ وقال مقاتل: كيف تقضون بالجور؟

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ وحده ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

﴿ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ ﴾ أي: لا يهتدي ﴿ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ لعدم علمه، ولضلاله، وهي شركاؤهم، التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدى ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي: أيّ شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافا معنوية، ولا أوصافا فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها، فلأي شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان، أقبح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه، وظنه حقًا، وهو لا شيء.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض وجوه القراءات في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ ﴾؟

ج: استفاض الطبري في ذلك فقال:

واختلفت القراء في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قراء أهل المدينة: ﴿ أَمَّنْ لا يَهْدِّي ﴾ بتسكين الهاء، وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنين وكأنّ الذي دعاهم إلى ذلك أنهم وجَّهوا أصل الكلمة إلى أنه: أم من لا يهتدي، ووجدوه في خطّ المصحف بغير ما قرءوا،

وأن التاء حذفت لما أدغمت في الدال، فأقرُّوا الهاء ساكنة على أصلها الذي كانت عليه، وشدَّدوا الدال طلبًا لإدغام التاء فيها، فاجتمع بذلك سكون الهاء والدال. وكذلك فعلوا في قوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾، [النساء: ١٥٤]، وفي قوله: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، [يس: ٤٩].

وقرأ ذلك بعض قراء أهل مكة والشام والبصرة ﴿يَهَدِّيَ﴾ بفتح الهاء وتشديد الدال. وأمُّوا ما أمَّه المدنيون من الكلمة، غير أنهم نقلوا حركة التاء من «يهتدي»: إلى الهاء الساكنة،، فحرَّكوا بحركتها، وأدغموا التاء في الدال فشدّدوها.

وقرأ ذلك بعض قراء الكوفة: ﴿يَهِدِّيَ﴾، بفتح الياء، وكسر الهاء، وتشديد الدال، بنحو ما قصدَه قراء أهل المدينة، غير أنه كسر الهاء لكسرة الدال من «يهتدي»، استثقالا للفتحة بعدها كسرةٌ في حرف واحدٍ.

وقرأ ذلك بعدُ، عامة قراء الكوفيين ﴿أَمْ مَنْ لا يَهْدِي﴾، بتسكين الهاء وتخفيف الدال. وقالوا: إن العرب تقول: «هديت» بمعنى «اهتديت»، قالوا: فمعنى قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ﴾: أم من لا يَهْتَدي إلا أن يهدى.

وصوَّب الطبري ما ذكرناه عنه آنفًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي ﴿يَهِدِّيَ﴾ قراءات ست:

الأولى: قرأ أهل المدينة إلا ورشا «يَهْدِّي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال؛ فجمعوا في قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا في قوله: «لا تعْدُّوا» وفي قوله: «يخْصِّمون». قال النحاس: والجمع بين الساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به. قال محمد بن يزيد: لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة

إلى الكسر، وسيبويه يسمي هذا اختلاس الحركة.

الثانية: قرأ أبو عمرو وقالون في رواية بين الفتح والإسكان، على مذهبه في الإخفاء والاختلاس.

الثالثة: قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محيصن «يَهَدِّي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، قال النحاس: هذه القراءة بينة في العربية، والأصل فيها يهتدى أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها على الهاء.

الرابعة: قرأ حفص ويعقوب والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا: لأن الجزم إذا اضطر إلى حركته حرك إلى الكسر. قال أبو حاتم: هي لغة سفلى مضر.

الخامسة: قرأ أبو بكر عن عاصم يِهِدِّي بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، كل ذلك لاتباع الكسر كما تقدم في البقرة في ﴿يَخِطِّفُ﴾ [البقرة: ٢٠] وقيل: هي لغة من قرأ ﴿نِسْتَعِينُ﴾، و﴿لَن تِمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ ونحوه. وسيبويه لا يجيز «يِهِدّي» ويجيز «تِهدّي» و«نِهدّي» و«إهدي» قال: لأن الكسرة في الياء تثقل.

السادسة: قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى بن وثاب والأعمش ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال؛ من هدى يهدي. قال النحاس: وهذه القراءة لها وجهان في العربية وإن كانت بعيدة، وأحد الوجهين أن الكسائي والفراء قالا: ﴿يهدي﴾ بمعنى يهتدي. قال أبو العباس: لا يعرف هذا، ولكن التقدير أمن لا يهدي غيره، ثم الكلام، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ استأنف من الأول، أي لكنه يحتاج أن يهدى؛ فهو استثناء منقطع، كما تقول: فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع، أي لكنه يحتاج أن يسمع.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-:

وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين عبادة هذه الأصنام والأوثان عن يقينٍ وبرهان ودليل إن يعبدونها بناءٍ على ظنونٍ وأوهام، أنها تنفعهم وتكشف الضر عنهم، وهذا ظنٌّ باطلٌ، ظنٌّ لا يقوم على دليل ولاَ برهان، وهذا الظن لا يقاوم الحقيقة المبنية على الأدلة والبراهين، فقد قامت الأدلة والبراهين نقلًا وعقلًا ومن كل طريق على وحدانية الله ﷻ، وأنه الذي يهدي ويكشف الضر ويجيب المضطر.

أما هذا الظن الباطل الذي ظنوه بآلهتهم فليس بنافعهم وليس بنافع أمام اليقين، وليس بدافعٍ من عذاب الله شيئًا. والله تعالى أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ظنا، يقول: إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم منه في شكٍّ وريبة ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾، يقول: إن الشك لا يغني من اليقين شيئًا، ولا يقوم في شيء مقامَه، ولا ينتفع به حيث يُحتاج إلى اليقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما يفعل هؤلاء المشركون، من اتباعهم الظن، وتكذيبهم الحق اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يُغني عنهم ظنّهم من الله شيئًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلا ولا برهانًا، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ

﴿٣٦﴾ ﴾ تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يريد الرؤساء منهم؛ أي ما يتبعون إلا حدسا وتخريصا في أنها آلهة وأنها تشفع، ولا حجة معهم. وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليدا. ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي من عذاب الله؛ فالحق هو الله. وقيل ﴿ٱلْحَقِّ﴾ هنا اليقين؛ أي ليس الظن كاليقين. وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكتفى بالظن في العقائد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من الكفر والتكذيب، خرجت مخرج التهديد.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: كلهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أي ما يستيقنون أنها آلهة بل يظنون شيئا فيتبعونه ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: ليس هو كاليقين ولا يقوم مقام الحق وقال مقاتل: ظنهم بأنها آلهة لا يدفع عنهم من العذاب شيئًا، وقال غيره: ظنهم أنها تشفع لهم لا يغني عنهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ الذين يدعون من دون الله شركاء ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء لله، فإنه ليس لله شريك أصلًا، عقلًا، ولا نقلًا، وإنما يتبعون الظن و ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

فسموها آلهة، وعبدوها مع الله، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وما كان لأحدٍ من الخلق أن يفتري هذا القرآن من تلقاء نفسه، فلن يستطيع ذلك أحدٌ من الخلق، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

فلن يستطيع أحدٌ أن يأتي بقرآن مثله ولا بسورة مثل سوره، ولا بعشر آيات، ولا بآية واحدة من تلقاء نفسه، ولكن الله ﷻ هو الذي أنزله على رسوله ﷺ، وما كان لرسول الله ﷺ أن يتقوله من عند نفسه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ فالقرآن من عند الله ﷻ أنزله على رسوله محمد ﷺ تصديقًا للذي بين يديه، أي: للتوراة والإنجيل اللذين قد تقدماه وأخبرا به وبأنه سينزل فلما كانت التوراة فيها إخبارٌ بأن القرآن سينزل على رسول الله محمد ﷺ، ولما كان الإنجيل فيه البشارة بذلك أيضًا، فمن ثمَّ كان نزول القرآن على رسول الله ﷺ تصديق للتوراة والإنجيل، وإلا فإنه إذا لم ينزل سيكون ثمَّ تكذيب للتوراة والإنجيل لكون الأخبار التي فيها لم تتحقق (وذلك في حال عدم نزول القرآن).

فهذا وجهٌ لقوله تعالى: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: أن نزول القرآن نفسه تصديق لما أخبر بنزوله.

❀❀ وثمَّ وجه ثانٍ في كونه تصديق حاصله أن ما في القرآن الكريم من الأخبار والدلالة على وحدانية الله وذِكر الجنة والنار وغير ذلك موافق لما في

التوراة والإنجيل غير مخالفٍ لهما، فأخباره وما فيه تصديقٌ لأخبار التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة وما فيها فكلها تدل على وحدانية الله وتأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وتحث على مكارم الأخلاق وتذكر بالبعث والحساب والثواب والعقاب وغير ذلك.

فالقرآن تصديقٌ أيضًا للكتب المتقدمة لكون الأخبار متوافقة.

*** ووجه ثالثٌ ذكره بعض أهل العلم، أن ما فيه من الأخبار موافق لما سيأتي أيضًا فقد أخبر بالجنة والنار والثواب والعقاب وكل ذلك كائن إن شاء الله.

**** أما قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ففي الكتاب هنا أقوال: أحدها: أن المراد بالكتاب: الأحكام، وقد يأتي الكتاب بهذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] أي: حكم الله عليكم، فعلى ذلك فقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: تفضيل الأحكام والفرائض التي افترضها الله عليكم، وبيانها مفصلة موضحة مفصولٌ كل حكم عن الآخر لإتمام البيان والإيضاح.

ومن العلماء من قال: إن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد به الكتب المتقدمة، والكتاب هنا اسم جنس كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ...﴾ [الحديد: ٢٥] فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتب، فقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بيانٌ أيضًا لما في الكتب المتقدمة وتوضيح لها.

والمراد: التوراة والإنجيل وسائر الكتب أي: أن القرآن ذكرها وذكر بعض ما فيها كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ

بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ...﴾ [المائدة: ٤٤-٤٥] إلى غير ذلك.

فقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بيان لأحكام الكتب المتقدمة التي غيِّرت وبُدلت من أهل الزيغ والضلال، والله أعلم.

* أما قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في القرآن ولا ارتياب، في كونه أُنزل من عند الله ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رب السموات والأرض وما بينهما

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، يقول: ما ينبغي له أن يتخرَّصه أحد من عند غير الله. وذلك نظير قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، بمعنى: ما ينبغي لنبي أن يغلَّه أصحابُه.

وإنما هذا خبرٌ من الله جل ثناؤه أن هذا القرآن من عنده، أنزله إلى محمد عبده، وتكذيبٌ منه للمشركين الذين قالوا: «هو شعر وكهانة»، والذين قالوا: «إنما يتعلمه محمد من يحنّس الروميّ».

يقول لهم جل ثناؤه: ما كان هذا القرآن ليختلقه أحدٌ من عند غير الله، لأن ذلك لا يقدر عليه أحدٌ من الخلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: يقول تعالى ذكره: ولكنه من عند الله أنزله مصدِّقًا لما بين يديه، أي لما قبله من الكتب التي أنزلت على أنبياء الله، كالتوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يقول: وتبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفرائضه التي فرضها عليهم في السابق من علمه يقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه أنه تصديق الذي بين يديه من الكتاب وتفصيل الكتاب من عند رب العالمين، لا افتراءٌ من عند غيره ولا

اختلاقٌ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووَجازته وحَلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنا عليها، ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بيانًا شافيًا كافيًا حقًا لا مرية فيه من الله رب العالمين.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿أَن﴾ مع ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ مصدر، والمعنى: وما كان هذا القرآن افتراء؛ كما تقول: فلان يحب أن يركب، أي يحب الركوب، قاله الكسائي. وقال الفراء: المعنى وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقيل: ﴿أَن﴾ بمعنى اللام، تقديره: وما كان هذا القرآن ليفترى. وقيل: بمعنى لا، أي لا يفترى. وقيل: المعنى ما كان يتهيأ لأحد أن يأتي بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبه إلى الله تعالى لإعجازه؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الكسائي

والفراء ومحمد بن سعدان: التقدير ولكن كان تصديق ؛ ويجوز عندهم الرفع بمعنى: ولكن هو تصديق. ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب، فإنها قد بشرت به فجاء مصدقا لها في تلك البشارة، وفي الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة. وقيل: المعنى ولكن تصديق النبي بين يدي القرآن وهو محمد ﷺ ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن سمعوا منه القرآن. ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين في تصديق. والتفصيل التبيين، أي يبين ما في كتب الله المتقدمة. والكتاب اسم الجنس. وقيل: أراد بتفصيل الكتاب ما بين في القرآن من الأحكام. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الهاء عائدة للقرآن، أي لا شك فيه أي في نزول من قبل الله تعالى.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه تصديق الكتب المتقدمة قاله ابن عباس فعلى هذا إنما قال ﴿ٱلَّذِى﴾ لأنه يريد الوحي.

والثاني: ما بين يديه من البعث والنشور ذكره الزجاج.

والثالث: تصديق النبي ﷺ الذي بين يدي القرآن لأنهم شاهدوا النبي ﷺ وعرفوه قبل سماعهم القرآن ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي وبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد ﷺ الفرائض التي فرضها عليهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿ لَا

يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢] وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وهو كتاب الله الذي تكلم به رب العالمين، فكيف يقدر أحد من الخلق، أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!!.

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته، وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقوله أحد على رب العالمين، لعاجله بالعقوبة، وبادره بالنكال.

﴿ وَلَٰكِن ﴾ الله أنزل هذا الكتاب، رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين.

أنزله ﴿ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها، وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة.

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه.

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾؟

ج: المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ: أيقول هؤلاء المشركون عن رسول الله ﷺ أنه افترى هذا القرآن من عند نفسه أو أملاه عليه آخرون، وادعى أنه من عند الله ﷻ فقل لهم عند ذلك: أنا عربيٌّ وأنتم عرب، ثم إنني لا أقرأ ولا أكتب فام دمتم عربًا كما أنني عربي، فائتوا بسورةٍ مثل سور هذا القرآن، وادعوا من استطعتم من الآلهة التي عبدتموها من دون الله، وادعوا كذلك من استطعتم من الإنس والجن كي يعاونوكم للإتيان بسورةٍ مثل سور هذا القرآن إن كنتم صادقين في قولكم: إنني افتريت هذا القرآن، ولن تستطيعوا أن تفعلوا بحالٍ من الأحوال، وبمثل هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: افترى محمد هذا القرآن من نفسه فاختلقه وافتعله؟ قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون إني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العَرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي مثل كلامكم، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن.

و«الهاء» في قوله ﴿مِّثْلِهِۦ﴾، كناية عن القرآن.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يقول: وادعوا، أيها المشركون على أن يأتوا بسورة مثلها مَنْ قدرتم أن تدعوا على ذلك من أوليائكم وشركائكم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يقول: من عند غير الله، فأجمِعُوا على ذلك واجتهدوا، فإنكم لا تستطيعون أن تأتوا بسورةٍ مثله أبدًا.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، يقول: إن كنتم صادقين في أن محمدًا افتراه، فأتوا بسورة مثله من جميع من يعينكم على الإتيان بها. فإن لم تفعلوا ذلك، فلا

شك أنكم كَذَبَةٌ في زعمكم أن محمدًا افتراه، لأن محمدًا لن يَعْدُوَ أن يكون بشرًا مثلكم، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثله، فالواحد منهم عن أن يأتي بجميعه أعجز.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ ﴾ أي: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذبًا ومَيْنًا: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ ﴾ وكذا في سورة البقرة -وهي مدنية- تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدا، فقال: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها

المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادا، كما عرف السحرة، لعلمهم بفنون السحر، أن هذا الذي فعله موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا يصدر إلا عن مُؤيَّد مُسَدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا**»(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أم هاهنا في موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها. وقيل: هي أم المنقطعة التي تقدر بمعنى بل والهمزة؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١، ٢، ٣] أي بل أيقولون افتراه. وقال أبو عبيدة: أم بمعنى الواو، مجازة: ويقولون افتراه. وقيل: الميم صلة، والتقدير: أيقولون افتراه، أي اختلق محمد القرآن من قبل نفسه، فهو استفهام معناه التقريع. ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ومعنى الكلام الاحتجاج، فإن الآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله؛ لأنه مصدق الذي بين يديه من الكتب وموافق لها من غير أن يتعلم

---

(١) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢-٢٣٩).

محمد عليه السلام عن أحد. وهذه الآية إلزام بأن يأتوا بسورة مثله إن كان مفترى.

وقال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون به عنادًا وبغيًا: ﴿افْتَرَاهُ﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قُلْ﴾ لهم –ملزما لهم بشيء– إن قدروا عليه، أمكن ما ادعوه، وإلا كان قولهم باطلا.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكنًا لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: أن هؤلاء الكفار في حقيقة أمرهم لا يكذبونك يا رسول الله. من دواخلهم لا يكذبونك، ولكنهم لم يحيطوا علمًا بما فيه من الجنة والنار، والثواب والعقاب، فالذي تخبرهم به من أمر البعث والمعاد والثواب والعقاب، والجنة والنار، والصراط والحساب والميزان وغير ذلك، لم يدركه هؤلاء الكفار ولم يحيطوا به علمًا.

فمن ثمَّ فهم يكذبون بذلك ويجحدون الآيات بذلك وكذلك جهلوا ما في هذا القرآن من الخير والفضل والنفع ولم يتذوقوا حلاوته لتكذيبهم به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ معناه: أنه لم يأتهم تحقق ما في هذا القرآن من الوعيد عند تلاوتك لهذا القرآن عليهم، ولم يعاينوا ذلك بأعينهم، لم

يعاينوا ما فيه من الوعيد، إذ وقت الوعيد لم يكن جاءهم آنذاك، وسيأتيهم حتمًا فكلما كذَّب هؤلاء، فقد كذب الذين من قبلهم ممن كانوا على شاكلتهم من أهل الشرك، فانظر يا رسول الله، ولينظر هؤلاء وغيرهم عاقبة المكذبين المستهزئين الظالمين الذي سلفوا ومضوا حتى تحدث العبرة ويحدث لهم الاتعاظ كذلك فالذين من قبلهم تحقق فيهم ما أخبرتهم به أنبياؤهم من الهلاك لما استمروا على كفرهم وطغيانهم فليحذر هؤلاء أيضًا إذا استمروا على الكفر أن يتحقق فيهم ما توعدهم الله ﷻ به في كتابه المنزل على رسوله ﷺ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء المشركين يا محمد، تكذيبك ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ممَّا أنزل الله عليك في هذا القرآن، من وعيدهم على كفرهم بربهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾، يقول: ولما يأتهم بعدُ بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعّدهم الله في هذا القرآن ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يقول تعالى ذكره: كما كذب هؤلاء المشركون، يا محمد، بوعيد الله، كذلك كذّب الأمم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسلهم وكفرهم بربهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فانظر، يا محمد، كيف كان عُقْبى كفر من كفر بالله، ألم نهلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسْف وبعضهم بالغرق؟ يقول: فإن عاقبة هؤلاء الذي يكذبونك ويجحدون بآياتي من كفار قومك، كالتي كانت عاقبة من قبلهم من كفرة الأمم، إن لم ينيبوا من كفرهم، ويسارعوا إلى التوبة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي: ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفهًا ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوا، وكفرا وعنادًا وجهلا فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ أي كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال؛ فهذا يدل على أنه يجب أن ينظر في التأويل. وقوله: ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم. أو كذبوا بما في القرآن من ذكر البعث والجنة والنار، ولم يأتهم تأويله أي حقيقة ما وعدوا في الكتاب؛ قاله الضحاك. وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن (من جهل شيئًا عاداه) قال نعم، في موضعين: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف: ١١]. ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأمم الخالية، أي كذا كانت سبيلهم. والكاف في موضع نصب. ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي أخذهم بالهلاك والعذاب.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المعنى بما لم يحيطوا بعلم ما فيه ذكر الجنة والنار والبعث والجزاء.

والثاني: بما لم يحيطوا بعلم التكذيب به لأنهم شاكون فيه.

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ قولان:

أحدهما: تصديق ما وعدوا به من الوعيد والتأويل ما يؤول إليه الأمر.

والثاني: ولم يكن معهم علم تأويله قاله الزجاج.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علمًا.

فلو أحاطوا به علمًا وفهموه حق فهمه، لأذعنوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم، من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحدًا.

فليحذر هؤلاء، أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على التثبت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده، قبل أن يحيط به علمًا.

❁ ❁ ❁

من جهل شيئًا عاداه

س: من جهل شيئًا عاداه، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وقوله تعالى في شأن موسى مع الخضر عليهما السلام وقول الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٧-٦٨].

وتقدم كلام القرطبي وما أورده عن الحسين بن الفضل، وأنه استدل أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف: ١١].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ج: في هذا أقوال:

أولها: ومن أهل الشرك من سيؤمن بهذا القرآن وإن طال تكذيبه، ومنهم من سيموت على الكفر.

وهذا القول قويٌّ، ووجه قوته أن الآيات التي تقدمته تتحدث عن أهل الشرك.

الثاني: ومن القوم الذين أرسلت إليهم من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وهم أصحابك الذين آمنوا بك، ومنهم من لا يؤمن بهذا القرآن، وهم أهل الكفر القائمون على شركهم.

الثالث: ومن أهل الكتاب من يؤمن بهذا القرآن، ومنهم من لا يؤمن به.

* وأظهر الأقوال، والله أعلم، القول الأول.

أما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾ ففيه تهديدٌ لأهل الشر والإفساد في الأرض وتوعدٌ لهم على إفسادهم، وكذا فإنه سبحانه أعلم، بمن يستحق الهداية فيهديه ويتفضل علي بها، وأعلم بمن يستحق الغواية فيغوي، والله تعالى أعلم، وهذه بعض أقوال العلماء في تأويل الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن قومك، يا محمد، من قريش، من سوف يؤمن به يقول: من سوف يصدِّق بالقرآن ويقرُّ أنه من عند الله ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أبدًا، يقول: ومنهم من لا يصدق به ولا يقرُّ أبدًا ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾ يقول: والله أعلم بالمكذِّبين به منهم، الذين لا يصدقون به أبدًا، من كل أحدٍ، لا يخفى عليه، وهو من وراء عقابه. فأما من كتبتُ له أن يؤمن به منهم، فإني سأتوب عليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾ أي: ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قيل: المراد أهل مكة، أي ومنهم من

يؤمن به في المستقبل وإن طال تكذيبه ؛ لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من السعداء. و﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء والخبر في المجرور. وكذا. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ والمعنى ومنهم من يصر على كفره حتى يموت ؛ كأبي طالب وأبي لهب ونحوهما. وقيل: المراد أهل الكتاب. وقيل: هو عام في جميع الكفار ؛ وهو الصحيح. وقيل. إن الضمير في «به» يرجع إلى محمد ﷺ؛ فأعلم الله سبحانه أنه إنما أخر العقوبة لأن منهم من سيؤمن. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي من يصر على كفره ؛ وهذا تهديد لهم.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في المشار إليهم قولان:

أحدهما: أنهم اليهود. قاله أبو صالح (١) عن ابن عباس.

والثاني: قريش. قاله مقاتل بن سليمان.

وفي هاء به قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى محمد ﷺ ودينه قاله مقاتل.

والثاني: إلى القرآن قاله أبو سليمان الدمشقي.

وهذه الآية تضمنت الإخبار عما سبق في علم الله، فالمعنى: ومنهم مَنْ سيؤمن به. وقال الزجاج: منهم من يعلم أنه حق فيصدق به ويعاند فيظهر الكفر. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: يشكُّ ولا يصدق.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد،

---

(١) وفي سندها مقال.

فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٤١﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وإن كذبك يا رسول الله هؤلاء المشركون وأقاموا على ضلالهم وغيِّهم فقل لهم لي عملي وأنا مجزيٌّ به، ولكم عملكم وأنتم مجزيُّون به، لا أُواخذ بعملكم ولا تؤاخذون بعملي، والله تعالى أعلم.

وبنحوه قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن كذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون، وردُّوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القوم، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضرني عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يُجازَى كل عامل بعمله ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾، لا تُؤاخذون بجريرته ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، لا أوخذ بجريرة عملكم. وهذا كما قال جل ثناؤه: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ

ﭐلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي ﴾ رفع بالابتداء، والمعنى: لي ثواب عملي في التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى. ﴿وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ ﴾ أي جزاؤه من الشرك. ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١ ﴾ مثله ؛ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١ ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ ﴾ [فصلت: ٤٦].

❁ ❁ ❁

س: هل هذه الآية الكريمة منسوخة: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ ﴾ وما وجه القائلين بأنها منسوخة.

ج: الظاهر – والله تعالى أعلم -: أنها ليست بمنسوخة، والذين قالوا بالنسخ قال عددٌ منهم إنها منسوخة بآية السيف، وهذا فيه بُعد، وذلك لأنه لا تعارض بينها وبين آية السيف التي هي: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ...﴾ [التوبة: ٥]. والله تعالى أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: إن هذه الية منسوخة، نسخها الجهاد والأمر بالقتال.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ

عَمَلُكُمْ﴾ الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخه وأمره بجهادهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الآية منسوخة بآية السيف؛ في قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي ...﴾ الآية. قال أبو صالح عن ابن عباس: نسختها آية السيف؛ وليس هذا بصحيح؛ لأنه لا تنافي بين الآيتين.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ (٤٢) وَمِنۡهُم
مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ (٤٣) إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٤٤) وَيَوۡمَ
يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا
مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ
رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٨) قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٤٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ
أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ
ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٥٢)﴾ [يونس: ٤٢-٥٢].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱلصُّمَّ - تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ - يَحۡشُرُهُمۡ - يَلۡبَثُوٓاْ - قُضِىَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ - أُمَّةٍ - وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ - بَيَٰتًا - أَثُمَّ - ءَامَنتُم بِهِۦٓ - عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلصُّمَّ﴾	الذين سُلبت أسماعهم فلا يسمعون.
﴿تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾	توفق من ذهب بصره وبصيرته.
﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾	يجمعهم.
﴿يَلۡبَثُوٓاْ﴾	يمكثوا.
﴿قُضِىَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾	حُكم بينهم بالحق.
﴿أُمَّةٍ﴾	جماعة من الناس – قرنٌ من القرون.
﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾	لا يتقدمون – لا يموتون قبل آجالهم.
﴿بَيَٰتًا﴾	وهم نيام.
﴿أَثُمَّ﴾	أهنالك – (عند حلول العذاب).
﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾	صدقتم به وأقررتم بوقوعه.
﴿عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾	العذاب الدائم الذي لا ينقضي ولا ينتهي.

❁ ❁ ❁

المهتدي من هداه الله

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ومن هؤلاء المشركين من يستمعون إليك، ولكن على ما يبدو والله أعلم، أنهم يستمعون سماع من لا يريد الاهتداء، بل يريد السخرية والاستهزاء، فيستمعون منك كلامك الطيب وما تتلوه عليهم من الذكر الحكيم، وأنت حريص على هدايتهم وتوفيقهم، وحريص كذلك على أن يستفيدوا منك ومن علمك، وحريص على إيمانهم، ولكن أمر الهداية موكولٌ إلى الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي وهو الذي يضل أفأنت تسمع الأصم الذي سلبه الله السمع ولو كان لا يعقل؟! كلَّا فإنك لن تستطيع هداية من أغواه الله، ولن تستطيع إسماع من أذهب اللهُ سمعه.

وكذلك فمن هؤلاء المشركين من ينظر إليك، وأنت ولله الحمد فيك ما فيك من خصال الخير الطيبة والسمت الحسن والخلق الكريم، فيك وفي سمتك ما يدعو إلى الاهتداء، ولكنهم والله أعلم ينظرون إليك ليس بعين راغب الاهتداء، ولكن بعين السخرية والاستهزاء، ومع ذلك فأنت حريص على هدايتهم وتوفيقهم وإيمانهم ولكن أفأنت تهدي العمي الذين سلبهم الله الأبصار؟! كلا بل المبصر المهتدي من هداه الله ولن تستطيع أن تهدي من أعماه الله، هذا، وما فعل الله ﷻ بهم ما فعل من سلبهم السمع الذي يسمعون به ما ينفعهم ومن سلبهم الأبصار إلا وهم يستحقون ذلك فالله أعلم بعباده ويفعل في خلقه ما يشاء ولا يبخس الناس شيئًا من حقوقهم ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بتكذيبهم رسول الله وبجحودهم وإنكارهم آيات الله

ﷻ هم الذين ينزلون أنفسهم أسوأ المنازل في النار والعياذ بالله، بسبب إعراضهم عن طاعة الله، والإيمان به وبرسله.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ومن هؤلاء المشركين من يستمعون إلى قولك: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾، يقول: أفأنت تخلق لهم السمع، ولو كانوا لا سمع لهم يعقلون به، أم أنا؟

وإنما هذا إعلامٌ من الله عبادَه أن التوفيق للإيمان به بيده لا إلى أحد سواه. يقول لنبيه محمد ﷺ: كما أنك لا تقدر أن تسمع، يا محمد، من سلبته السمع، فكذلك لا تقدر أن تفهم أمري ونهيي قلبًا سلبته فهم ذلك، لأني ختمتُ عليه أنه لا يؤمن.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المشركين، مشركي قومِك، من ينظر إليك، يا محمد، ويرى أعلامك وحُججَك على نبوتك، ولكن الله قد سلبه التوفيقَ فلا يهتدي، ولا تقدر أن تهديه، كما لا تقدر أن تحدِث للأعمى بصرًا يهتدي به ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، يقول: أفأنت يا محمد، تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلى أدلتك وحججك، فلا يوفَّقون للتصديق بك أبصارًا، لو كانوا عُمْيًا يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك، ولا يقدر عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدر على أن تبصِّرهم سبيلَ الرشاد أنت ولا أحدٌ غيري، لأن ذلك بيدي وإليّ.

وهذا من الله تعالى ذكره تسليةٌ لنبيه ﷺ عن جماعةٍ ممن كفر به من قومه

وأدبر عنه فكذب، وتعزية له عنهم، وأمرٌ برفع طمعه من إنابتهم إلى الإيمان بالله.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: إن الله لا يفعل بخلقه ما لا يستحقون منه، لا يعاقبهم إلا بمعصيتهم إيّاه، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾، يقول: ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، باجترامهم ما يورثها غضبَ الله وسخطه.

وإنما هذا إعلام من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ والمؤمنين به، أنه لم يسلُبْ هؤلاء الذين أخبر جلّ ثناؤه عنهم أنهم لا يؤمنون الإيمانَ ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم وإخبارٌ أنه إنما سلبهم ذلك باستحقاقٍ منهم سَلْبَه، لذنوبٍ اكتسبوها، فحق عليهم قول ربهم، وطبع على قلوبهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم -وهو الأطرش- فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوءتك لأولي البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون

ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحدا شيئًا، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبًا غلفا، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسْأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ، فيما يرويه عنه ربه ﷻ: **«يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا -إلى أن قال في آخره: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه»**.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ لما ذكر الذين سبق القضاء عليهم بالشقاوة، أخبر أن تقدير ذلك عليهم ليس بظلم، لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء، وهم إذا كسبوا المعاصي فقد ظلموا أنفسهم بذلك؛ لأن الفعل منسوب إليهم، وإن كان بقضاء الله.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ﴾ يريد بظواهرهم، وقلوبهم لا تعي شيئا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي لا تسمع؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفي، وجعلهم

كالصم للختم على قلوبهم والطبع عليها، أي لا تقدر على هداية من أصمه الله عن سماع الهدى. وكذا المعنى في: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أخبر تعالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته. وهذا وما كان مثله يرد على القدرية قولهم؛ كما تقدم في غير موضع. وقال: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَّن﴾ و﴿يَنظُرُ﴾ على اللفظ؛ والمراد تسلية النبي ﷺ، أي كما لا تقدر أن تسمع من سلب السمع ولا تقدر أن تخلق للأعمى بصرا يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألا يؤمنوا. ومعنى: ﴿يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ﴾ أي يديم النظر إليك؛ كما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ﴾ [الأحزاب: ١٩] قيل: إنها نزلت في المستهزئين، والله أعلم.

ولما ذكر أهل الشقاء ذكر أنه لم يظلمهم وأن تقدير الشقاء عليهم وسلب سمع القلب وبصره ليس ظلما منه لأنه تصرف في ملكه بما شاء وهو في جميع أفعاله عادل ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول، ولما جاء به، ﴿وَ﴾ أن ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ إلى النبي ﷺ، وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع، ولا مُجدٍ على أهله خيرًا، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهذا الاستفهام، بمعنى النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول

ولو جهرت به، وخصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك ممتنع إسماعك إياهم، إسماعًا ينتفعون به.

وأما سماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة.

فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ فلا يفيده نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئًا، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ فلا يفيده نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئًا، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، هل هذا اللبث كان في الدنيا أو كان في القبور، وما معنى الآية الكريمة؟

ج: قال بعض أهل العلم:

إن هذا اللبث المراد به مدة مكثهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣]، فحملها البعض أيضًا على مدة بعثهم في الدنيا.

وقال آخرون من أهل العلم: إن المراد بهذا اللبث مدة مكثهم في القبور. والله أعلم.

أما عن معنى الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

فحاصل معناها، والله أعلم، واذكر يوم يجمعهم الله ﷻ يوم القيامة وكأنهم لم يلبثوا في دنياهم أو في قبورهم إلا ساعة من النهار، كانوا يتعارفون على بعضهم فيها ثم ماتوا، أي: أنهم استقلوا الدنيا نسبة إلى الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

أما قوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ فقيل: إن هذا التعارف كان في الدنيا، وقيل: يتعارفون بينهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ [المعارج: ١١] ثمَّ بعد تعارفهم ينشغل كلٌّ بنفسه.

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فحاصل معناه: قد خسر الذين كذبوا بالآخرة وبلقائهم لله وأنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب، وما كانوا مهتدين في تكذيبهم هذا بل كانوا ضالين عن طريق الحق والصواب، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المشركين فنجمعهم في موقف الحساب، كأنهم كانوا قبل ذلك لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون فيما بينهم، ثم انقطعت المعرفة، وانقضت تلك الساعة يقول الله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾، قد غُبن الذين جحدوا ثوابَ الله وعقابه وحظوظَهم من الخير وهلكوا ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ يقول: وما كانوا موفّقين لإصابة الرشد مما فعلوا من تكذيبهم بلقاء الله، لأنه أكسبهم ذلك ما لا قِبَل لهم به من عذاب الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مُذكِّرًا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٤].

وقوله: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ﴾ [المعارج: ١٠، ١٥].

وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المرسلات: ١٥]. لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خَسارة من فُرِّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى، عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؟

ج: هذه الآية الكريمة فيها مواساة لرسول الله ﷺ، وحاصل معناها والله أعلم: وقد نرينك يا رسول الله في دنياك قبل مماتك، قد نرينك في هؤلاء الكفار ما تقرُّ به عينك ويُشفي به صدرك، قد نرينك بعض الذي وعدناهم من العذاب

الدنيوي فتراهم يقتلون ويؤسرون ويهلكون، وقد نؤخر ذلك إلى الآخرة، فسواء عذبناهم في الدنيا أو تركنا تعذيبهم فيها فإن مرجعهم ومردهم إلينا يوم القيامة، وهنالك تُجزى كل نفس بما تستحق وبما كانت تسعى، والله سبحانه وتعالى شهيدٌ عليهم في الدنيا وعلى أعمالهم وعلى نواياهم لا يخفى عليه من أمرهم شيءٌ وسيحاسبهم ويجازيهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإما نرينّك، يا محمد، في حياتك بعضَ الذي نعد هؤلاء المشركين من قومك من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ذلك فيهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، يقول: فمصيرهم بكل حال إلينا، ومنقلبهم ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: ثم أنا شاهد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، وأنا عالم بها لا يخفى عليّ شيء منها، وأنا مجازيهم بها عند مصيرهم إليّ ومرجعهم، جزاءهم الذي يستحقّونه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينُك منهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ قال المفسرون: كانت وقعة بدر مما أراه الله في حياته من عذابهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بعد الموت والمعنى إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا آجلا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، قال الفراء: ثم هاهنا عطف، ولو قيل: معناها: هناك الله شهيد، كان جائزًا.

وقال غيره: ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا بمعنى الواو. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿ثَمَّ الله شهيد﴾ بفتح الثاء يراد به هنالك الله شهيد.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقر به نفسك.

وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون، أحصاه ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلية للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

❁ ❁ ❁

س: هل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ هل هذا في الدنيا أم في الآخرة؟

ج: لأهل العلم في ذلك وجهان:

أحدهما: أن ذلك في الآخرة، وسيأتي بيان معناه إن شاء الله.

الثاني: أن ذلك في الدنيا، وحاصل معناه أن الله ﷻ ارسل لكل أمة رسولًا فإذا جاءها الرسول وكذبته حكم الله ﷻ بينه وبينهم في الدنيا بالحق، وهم لا يظلمون، فانتقم الله من الظالم وسلَّم الله وحفظ أهل التقى والإيمان.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بعد أن أورد نحوًا من الوجه الأول:

ويجوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون في الدنيا حتى يرسل إليهم؛ فمن آمن فاز ونجا، ومن لم يؤمن هلك وعذب. دليله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]. والقسط: العدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ولكل أمةٍ من الأمم الماضية رسولٌ أرسلناه إليهم يحذرهم ويذكرهم، وهذا الرسول يشهد عليهم يوم القيامة بما فعلوه، وهنالك ينتظرونه كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

وهنا قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: محكم بينهم بالعدل، وهم لا يبخسون شيئًا من حقوقهم وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولكل أمة خلت قبلكم، أيها الناس، رسول أرسلته إليهم، كما أرسلت محمدًا إليكم، يدعون من أرسلتهم إليهم إلى دين الله وطاعته ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾، يعني: في الآخرة.

وقوله: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، يقول قضي حينئذ بينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، من جزاء أعمالهم شيئًا، ولكن يجازي المحسن بإحسانه.

والمسيءُ من أهل الإيمان، إما أن يعاقبه الله، وأما أن يعفو عنه، والكافر يخلد في النارِ. فذلك قضاء الله بينهم بالعدل، وذلك لا شكّ عدلٌ لا ظلمٌ.

حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، قال: بالعدل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة.

﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق**» فأمته إنما حازت قَصَب السبق لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: ويستعجل أهل الكفر يوم القيامة

ويستنكرونه ويستبعدون وقوعه فيقولون: متى هذا الوعد الذي وعدتمونا أننا سنحاسب فيه ونجازى بأعمالنا ونبعث أحياءً بعد موتنا ائتونا به الآن إن كنتم صادقين في دعواكم، فقل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين المنكرين للبعث والحساب والثواب والعقاب، أنا لا أملك لنفسي كشف ضرٍّ أو جلب نفع لها ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، فأنا لا أعلم الغيب إلا ما علمني الله وأخبرني الله به وشاء الله لي أن أعلمه، ولكل أمة أجل أجَّلها الله ﷻ إليه، فإذا جاء الوقت الذي تنقضي فيه الآجال فلا تستأخر عنه أمة ساعة ولا تتقدمة أمةٌ كذلك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ويقول هؤلاء المشركون من قومك، يا محمد ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، الذي تعدنا أنه يأتينا من عند الله؟ وذلك قيام الساعة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨﴾، أنت ومن تبعك، فيما تعدوننا به من ذلك.

يقول تعالى ذكره: ﴿قُل﴾، يا محمد، لمستعجليك وعيدَ الله، القائلين لك: متى يأتينا الوعد الذي تعدنا إن كنتم صادقين؟ ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾، أيها القوم، أي: لا اقدرُ لها على ضرٍّ ولا نفع في دنيا ولا دين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أن أملكه، فأجلبه إليها بأذنه.

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل لهم: فإذْ كنت لا أقدر على ذلك إلا بإذنه، فأنا عن القدرة على الوصول إلى علم الغيب ومعرفة قيام الساعة أعجز واعجز، إلا بمشيئته وإذنه لي في ذلك ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، يقول: لكل قوم ميقاتٌ لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم ﴿فَلَا

يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾، عنه ﴿ سَاعَةً ﴾، فيمهلون ويؤخرون، ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾، قبل ذلك، لأن الله قضى أن لا يتقدم ذلك قبل الحين الذي قدَّره وقضاه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أي متى العقاب أو متى القيامة التي يعدنا محمد. وقيل: هو عام في كل أمة كذبت رسولها.

و قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ لما استعجلوا النبي ﷺ بالعذاب قال الله له: قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا ؛ أي ليس ذلك لي ولا لغيري. ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا. ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم في علمه سبحانه. ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي وقت انقضاء أجلهم. ﴿ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين في الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعين، مما لا فائدة فيه لهم كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] أي: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عينا، ولهذا أرشَدَ رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: لا أقول إلا ما علَّمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعني عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على

وقتها، ولكن ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي: لكل قرن مدَّة من العمر مقدَّرة فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم، فمن الله تعالى، ينزله عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية.

فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب، فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ إلى ﴿تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

❁ ❁ ❁

الإيمان لا ينفع عند حضور الموت

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – قل يا رسول الله لهؤلاء الذين يتعجلون نزولا لعذاب عليهم، يا هؤلاء أرأيتم إن أتاكم عذاب الله ﴿بَيَٰتًا ﴾ وأنتم نائمون ليلًا، أو أتاكم هذا العذاب نهارًا فحل بكم من بلاء الله ما حلَّ ونزل

بكم من عذاب الله ما نزل ما الذي تستعجلونه آنذاك كأنه استفهام للتوبيخ والمراد: ماذا يستعجلون أتستعجلون شيئًا نافعًا أتستعجلون عذابًا يأتيكم بياتًا أو نهارًا؟ فإذا جاءكم العذاب فستصلونه وتذوقونه وتقولون: ليتنا ما استعجلناه ﴿ أَثُمَّ ﴾ فهنالك إذا وقع العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ صدقتم ما أخبرناكم به وآمنتم بالله آنذاك، ولكن إيمان غيرُ نافع آنذاك كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ ﴾ [النساء: ١٨].

وكما قال تعالى: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فقوله تعالى: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي: الآية صدقتموه وطلبتم إبعاده عنكم وقد كنتم تستعجلون نزوله؟!!

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ قيل: المعنى، هنالك قيل: للذين أشركوا ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ الذي لا يفارقكم بل أنتم فيه خالدون، وقيل: لهؤلاء المشركين أيضًا على سبيل التوبيخ، هل تجزون إلا على أعمالكم؟! وهل ظلمناكم شيئًا إنكم لا تجزون إلا بما عملتموه واجترمتموه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بياتًا، يقول: ليلا أو نهارا، وجاءت الساعة وقامت القيامة،

أتقدرون على دفع ذلك عن أنفسكم؟ يقول الله تعالى ذكره: ماذا يستعجلُ من نزول العذاب، المجرمون الذين كفروا بالله، وهم الصالون بحرِّه دون غيرهم، ثم لا يقدرون على دفعه عن أنفسهم؟

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: أهنالك إذا وقع عذابُ الله بكم أيها المشركون ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، يقول: صدّقتم به في حال لا ينفعكم فيها التصديق، وقيل لكم حينئذ: آلآنَ تصدّقون به، وقد كنتم قبل الآن به تستعجلون، وأنتم بنزوله مكذبون؟ فذوقوا الآن ما كنتم به تكذّبون.

ومعنى قوله: ﴿ أَثُمَّ ﴾، في هذا الموضع: أهنالك، وليست «ثُمَّ» هذه هاهنا التي تأتي بمعنى العطف.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾، أنفسهم، بكفرهم بالله ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، تجرّعوا عذابَ الله الدائم لكم أبدًا، الذي لا فناء له ولا زوال ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾، يقول: يقال لهم: فانظروا هل تجزون، أي: هل تثابون ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾، يقول: إلا بما كنتم تعملون في حياتكم قبل مماتكم من معاصي الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا ﴾ أي: ليلا أو نهارا، ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا

مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ أي: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيتا وتقريعًا، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الطور: ١٣ -١٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ ظرفان، وهو جواب لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ وتسفيه لآرائهم في استعجالهم العذاب ؛ أي إن أتاكم العذاب فما نفعكم فيه، ولا ينفعكم الإيمان حينئذ. ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم ؛ أي ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أم أمرا يستوخم عاقبته: ماذا تجني على نفسك! والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ قيل: يعود على العذاب، وقيل: يعود على الله سبحانه وتعالى.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا ﴾ وقت نومكم بالليل ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ في وقت غفلتكم ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: أي بشارة استعجلوا بها؟ وأي عقاب ابتدروه؟.

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخًا وعتابًا في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون، ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾

تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾ فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ وأنه يقال له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾.

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [غافر: ٨٥] وقال هنا: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تدعون الإيمان ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾ فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

❋ ❋ ❋

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا
رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٥ هُوَ يُحْيِۦ
وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ
فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم
مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ
تَفْتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ
ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ٦٠ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ
وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ
تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ
أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦١ ﴾ [يونس: ٥٣-٦١].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ - لَافْتَدَتْ بِهِ - وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ - مَوْعِظَةٌ - تَفْتَرُونَ - وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ - تُفِيضُونَ فِيهِ - وَمَا يَعْزُبُ - مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾	ويستخبرونك – يسألونك أن تنبئهم.
﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾	لقدمته فديةً كي تسلم من العذاب.
﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾	أضمروا الندم في أنفسهم وأخفوه.
﴿مَوْعِظَةٌ﴾	ذِكري.
﴿تَفْتَرُونَ﴾	تنسبون إليه ما لم يقله.
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾	وما تكون في حالٍ من أحوالك وشأن من شؤونك
﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾	تخوضونه – تعملونه – تقولونه.
﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾	وما يذهب وما يخفى.
﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾	وزن نملةٍ صغيرة، وقيل: وزن ذرة من ذرات الغبار.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ إشارة إلى ماذا؟

ج: ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أنه عائدٌ على البعث وعلى ما يوعدون به من الثواب والعقاب.

وذهبت قلةٌ منهم إلى أنه عائدٌ على القرآن والأظهر الأول، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ أي: وما أنتم بفائدتين، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المواطن التي أمر النبي ﷺ أن يُقسم فيها بالله ﷻ

س: أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقسم على أن البعث آتٍ، وذلك في ثلاث آيات من كتابه الكريم اذكرها؟

ج: أولًا: هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾ [التغابن: ٧].

وإلى هذا أشار الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –:

ويستخبرونك – يطلبون منك إخبارهم – وهذا من أهل الكفر على سبيل التكذيب والتعنت والعناد والسخرية – يطلبون منك أن تنبأهم أهذا الذي تعدنا به من البعث والحساب والثواب والعقاب، والجنة والنار أحقٌّ هذا؟؟؟ سيكون هذا؟؟؟ فقل لهم: إي وربي، نعم وربي، احلف لهم بالله ولا تتردد ولا ترتاب، قل: إي وربي إنه لحقٌّ إنه لكائن ولن تعجزوا ربكم إذا أرادكم أو اراد بعثكم وتعذيبكم، لن تعجزوه بهربكم منه، فلن تستطيعوا الهرب، ولن تفوتوه

إذا أرادكم، وكذا أفلن يعجز ربي عن إعادتكم أحياء بعد موتكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك، يا محمد، فيقولون لك: أحق ما تقول، وما تعدنا به من عذاب الله في الدار الآخرة جزاءً على ما كنا نكسب من معاصي الله في الدنيا؟ قل لهم يا محمد: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، لا شك فيه، وما أنتم بمعجزي الله إذا أراد ذلك بكم، بهربٍ، أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه وملكه، إذ أراد فعل ذلك بكم، فاتقوا الله في أنفسكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا. ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ ﴾ أي: يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبين والرشاد.

﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أي: أصحيح حشر العباد، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر؟

﴿قُلۡ﴾ لهم مقسمًا على صحته، مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لله أن يبعثكم، فكما ابتدأ خلقكم ولم تكونوا شيئًا، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

لن يقبل من الكافر فداءٌ يوم القيامة مهما افتدى

س: وردت عدة آيات تفيد أن الكافر لن تُقبل منه فديةٌ يفتدي بها نفسه يوم القيامة مهما افتدى اذكر بعض هذه الآيات؟

ج: من هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ [المائدة: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ ..﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾.

ج: قيل – المعنى-: وأخفوا الندامة أي: التندم على ما صدر منهم وكان من كفرهم وضلالهم وتكذيبهم.

أخفوا هذا التندم يوم القيامة في بعض المواطن كما في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقيل: إن كلمة ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ من الأضداد أي: أنها تأتي أحيانًا بمعنى (أخفوا) وأحيانًا بمعنى (أظهروا).

وثمَّ أقوال أُخر.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه تعـالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أخفوهـا؛ يعنـي رؤسـاءهم، أي أخفـوا ندامتهم عن اتباعهم. ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار، فإذا وقعوا في النـار ألهـتهم النـار عـن التصنـع؛ بـدليل قـولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]. فبـين أنهـم لا يكتمـون مـا بهـم. وقيـل: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أظهـروا، والكلمة من الأضداد، ويدل عليه أن الآخرة ليست دار تجلد وتصبر. وقيل: وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها. قال كثير:

فأسررت الندامة يوم نادى بـرد جمال غاضرة المنادي

وذكر المبرد فيه وجهًا ثالثًا: أنه بدت بالندامة أسرة وجوههم، وهي تكاسير الجبهة، واحدها سرار. والندامة: الحسرة لوقوع شيء أو فوت شيء، وأصلها اللزوم؛ ومنه النديم لأنه يلازم المجالس.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾؟

ج: هذا إخبارٌ عن حال الكافر يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ أشركت بالله ﷻ وجحدت آياته وكذبت رسله فظلمت نفسها بذلك وأفقدتها الأمان يوم الوعيد، لو أن لهذا النفس الظالمة كل ما في الأرض وهي تملكه فقدمته يوم القيامة كفديةٍ تفتدي بها نفسها من عذاب الله ما قُبل منها هذا.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ فحاصل معناه – وقد تقدم بتفصيل – أن أهل الكفر، وهم – والله أعلم – المستكبرون منهم – أخفوا التندم في موطن يظنون أن الإخفاء نافعهم وأنكروا أن يكونوا أشركوا بالله في الدنيا، وأخفوا التندم على ما كان منهم في دنياهم أمام أتباعهم، ولكن هذا ما استمر بهم كثيرًا،

بل زاح عنهم، وقضى بينهم، بين الرؤساء: رؤساء الضلال، وأتباعهم المستضعفين بالحق وهم لا يبخسون شيئًا من حقوقهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو أن لكل نفس كفرت بالله و«ظلمها»، في هذا الموضع، عبادتُها غيرَ من يستحق عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، من قليل أو كثير ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾، يقول: لافتدت بذلك كلِّه من عذاب الله إذا عاينته وقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾، يقول: وأخفتْ رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامةَ حين أبصرُوا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾، وذلك أنه لا يعاقب أحدًا منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحدٍ، ولا يعذِّب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يودّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: بالحق، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿و﴾ إذا كانت القيامة فـ ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضر والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وَأَسَرُّواْ﴾ [أي] الذين ظلموا ﴿ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ ندموا على ما قدموا، ولات حين مناص، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾؟

ج: أما قوله تعالى: ﴿أَلَآ﴾ فهي كلمة تنبيه. وقوله: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: هو مالكها سبحانه وتعالى وليس لأحدٍ سواه، فيهما من شيء، وهو سبحانه وتعالى الذي يتصرف فيهما بما يشاء، ووعده سبحانه وتعالى بالبعث والحساب والثواب والعقاب كائن، وليس بمكذوب ولكن أكثر أهل الشرك هؤلاء جهلةٌ بذلك، جهلة بقدرة الله على البعث وهو سبحانه وتعالى الذي يحيي ويميت وإليه المرجع والمآب.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ذكره: ألا إنّ كل ما في السموات وكل ما في الأرض من شيء، لله مِلْك، لا شيء فيه لأحدٍ سواه. يقول: فليس لهذا الكافر بالله يومئذٍ شيء يملكه فيفتدي به من عذاب ربّه، وإنما الأشياء كلها للذي إليه عقابه. ولو كانت له الأشياء التي هي في الأرض ثم افتدى بها، لم يقبل منه بدلا من عذابه، فيصرف بها عنه العذاب، فكيف وهو لا شيء له يفتدى به منه، وقد حقَّ عليه عذاب الله؟ يقول الله جل ثناؤه: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، يعني أن عذابه الذي أوعد هؤلاء المشركين على كفرهم حقٌّ، فلا عليهم أن لا يستعجلوا به، فإنه بهم واقع لا

شك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾، يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوع ذلك بهم، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون.

ويقول تعالى ذكره: إن الله هو المحيي المميت، لا يتعذّر عليه فعلُ ما أراد فعله من إحياء هؤلاء المشركين إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم إذا أراد ذلك، وهم إليه يصيرون بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذبين من وعيدِ الله وعقابه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنَّ وعده حقّ كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزّق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَلَآ﴾ كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام؛ أي انتبهوا لما أقول لكم: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: ٢] فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ ذلك.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي. ولهذا قال: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية.

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير، لا شريك له في ذلك.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: يا ايها الناس قد جاءتكم ذِكري يُذِّكركم بها ربكم ﷻ ويخوِّفكم بها عذابه وعقابه، جاءتكم من ربكم ﷻ لم يختلقها رسول الله ﷺ من عند نفسه، بل الله ﷻ أنزلها عليه وأمره بتبليغها لكم، وكذا جاءكم من الله ﷻ ما يشفي به صدوركم من الشك والريب والحيرة والضلال، ألا وهو القرآن، فهو شفاء كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ ...﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُدٗى﴾ أي: ودلالة لمن أراد الوصول إلى مرضاة الله ﷻ وإلى جنته ولمن أراد الاستبصار في حياته كذلك ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: وجاءكم من ربكم ﷻ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ آياتٌ من الكتاب العزيز إن اتبعتموها يرحمكم الله باتباعها كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا، وخصَّ المؤمنون بذلك؛ لأنهم هم الذين قبلوا هذا القرآن وعملوا به وصدقوه وأقروا بما فيه وأيقنوا.

أما قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ قل: يا رسول الله إن الذي ينبغي أن يُفرح به حق الفرح هو الإسلام الذي وفق الله إليه المسلمون وهو القرآن الذي أنزله الله ﷻ شفاءًا ورحمة، هذا الذي ينبغي أن يفرح به الشخص؛ لأن ذلك هو الذي يجلب للشخص السعادة في الدنيا والآخرة أما

غير ذلك من متاعٍ ففانٍ وزائل وذاهب ومُنتهى.

فما منَّ الله به من القرآن والإيمان والإسلام بلا شك أفضل من المتاع الزائل المنتهي والحطام الفاني.

الذي يجمعه الجامعون في دنياكم من مالٍ وجاهٍ وسلفان ومنصب.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لخلقه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، يعني: ذكرى تذكركم عقابَ الله وتخوّفكم وعيده ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، يقول: من عند ربكم، لم يختلقها محمد ﷺ، ولم يفتعلها أحد، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحةَ لها. وإنما يعني بذلك جلّ ثناؤه القرآن، وهو الموعظة من الله.

وقوله: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، يقول: ودواءٌ لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهلَ الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به ﴿وَهُدٗى﴾، يقول: وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليلٌ على طاعته ومعصيته ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾، يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به، لأن من كفر به فهو عليه عمًى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلودُ في لظًى.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذِّبين بك وبما أنزل إليك من عند ربك ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، أيها الناس، الذي تفضل به عليكم، وهو الإسلام، فبيَّنه لكم، ودعاكم إليه ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم، فعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصَّركم بها معالم دينكم،

وذلك القرآن ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾، يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خيرٌ مما يجمعون من حُطَام الدنيا وأموالها وكنوزها.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن هلال بن يساف:

في قوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ قال: فضل الله إلى الإسلام ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ القرآن.

ونحوه بإسنادٍ حسن عن قتادة:

وأورد عن آخرين القول بأن (فضل الله) هو القرآن ورحمته (الإسلام).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني قريشا. ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ أي وعظ. ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يعني القرآن، فيه مواعظ وحكم. ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي من الشك والنفاق والخلاف، والشقاق. ﴿وَهُدٗى﴾ أي ورشدا لمن اتبعه. ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي نعمة. ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بالإيمان؛ والكل صفات القرآن، والعطف لتأكيد المدح. قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: من الشُبَه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودَنَس، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: محصلٌ لها الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ

ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى - مرغبًا للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: تعظكم، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها.

﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع وأمراض الشبهات، القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة.

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى

درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ فالهدى هو العلم بالحق والعمل به.

والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور.

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به على عباده ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته. ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها، وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦].

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما

جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم –: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين الذين افتروا على الله الكذب فعمدوا إلى رزق الله الحلال الذي أحلَّه لهم من الأنعام التي أنزلها لهم كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وهي الجمل والناقة والثور والبقرة والكبش والنعجة، والجدي والعنز، فجعلوا شيئًا من ذلك حرامًا وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وهي – كما تقدم في سورة الأنعام وغيرها– وهي أي: هذه الأنعام حلالٌ بتحليل الله لها، ولكن أهل الشرك قالوا – على سبيل المثال– إن الناقة إذا ولدت كذا وكذا فتحرم وتكون وقفًا على الآلهة وسدنتها وكذا البقر والضأن والمعز، فيعمدون إلى أذنها فيشقونها بالموسى ويقولون هذه محرمة، ولا يجوز أكلها ولا ركوبها ولا الشرب من لبنها.

وكذا يعمدون إلى الحرث الناتج من الأرض فيجعلون جزءًا منه للآلهة (الأصنام والأوثان وغير ذلك) وجزءًا لله، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا...﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات، فقل: يا رسول الله لهؤلاء الذي حرَّموا ما أحلَّه الله، وفي ذات الوقت أحلوا ما حرموا الله فأكلوا الميتة والدم ولحم

الخنزير وغير ذلك من المحرمة، قل لهؤلاء آالله أذن لكم بهذا التحليل والتحريم أم أنه افتراء افتريتموه على الله ﷻ ونسبتم إليه ما لم تقله. ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أيظنون أن الله يغفر لهم، وقد كذبوا عليه وافتروا عليه، كلا فالكاذب على الله والمفتري على الله يُصليه الله سعيرًا، ويدخله جهنم خالدًا فيها.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ بإمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، بل ينذرهم ويحذرهم ويفتح لهم أبواب التوبة ما داموا أحياء قبل الغرغرة، وكذا فهو يُنعم عليهم ويعافيهم ويرزقهم، ولكن أكثر الناس لا يقابلون ذلك بالشكر، بل بالجحود والنكران والكفر والتكذيب.

وبمثل الذي ذكرت في تفسير الآيات قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرَءَيْتُم ﴾ أيها الناس ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾، يقول: ما خلق الله لكم من الرزق فخوَّلكموه، وذلك ما تتغذون به من الأطعمة ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا ﴾، يقول: فحللتم بعضَ ذلك لأنفسكم، وحرمتم بعضه عليها، وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرِّمونه من حُروثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم الله به فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [سورة الأنعام: ١٣٦].

ومن الأنعام ما كانوا يحرّمونه بالتبحير والتسييب ونحو ذلك، مما قدّمناه فيما مضى من كتابنا هذا.

يقول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ بأن تحرِّموا

ما حرَّمتم منه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾: أي تقولون الباطل وتكذبون؟

وأورد بإسناد حسن عن قتادة، قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾، الآية، يقول: كل رزق لم أحرِّم حرَّمتموه على أنفسكم من نسائكم وأموالكم وأولادكم، آلله أذن لكم فيما حرمتم من ذلك، أم على الله تفترون؟

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وقرأ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقرأ: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ حتى بلغ: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨] فقال: هذا قوله: جعل لهم رزقًا، فجعلوا منه حرامًا وحلالا وحرموا بعضه وأحلوا بعضه.

وقرأ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾، أيّ هذين حرم على هؤلاء الذين يقولون وأحل لهؤلاء،﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، إلى آخر الآيات، [الأنعام: ١٤٤].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما ظن هؤلاء الذين يتخرَّصون على الله الكذب فيضيفون إليه تحريم ما لم يحرّمه عليهم من الأرزاق والأقوات التي جعلها الله لهم غذاءً، أنَّ الله فاعلٌ بهم يوم القيامة بكذبهم وفريتهم عليه؟ أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلا بل يصليهم سعيرًا خالدين فيها أبدًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، يقول: إن الله لذو تفضُّل على خلقه بتركه معاجلة من افترى

عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا، وإمهاله إياه إلى وروده عليه في القيامة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾، يقول: ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على تفضُّله عليهم بذلك، وبغيره من سائر نعمه.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما أخرجه أحمد وغيره بأسانيد صحيحة عن أبي الأحوص – عوف بن مالك – عن أبيه قال:

أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشْف الهيئة، فقال: «**هل لك مال؟**» قال: قلت: نعم. قال: «**من أي المال؟**» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «**إذا آتاك مالا فَلْيُرَ عليك**». وقال: «**هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانُها، فتعمَد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بحر وتشقها، أو تشق جلودها وتقول: هذه صُرُم، وتحرمها عليك وعلى أهلك؟**» قال: نعم. قال: «**فإن ما آتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك**»[1] وذكر تمام الحديث.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد أنكر الله تعالى على من حَرّم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ما ظنهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما

(١) المسند (٣/ ٤٧٣)، وأبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٣٠٠٧)، والنسائي (٨/ ١٨٠) وغيرهم.

خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب على الظرف، أو بالظن؛ نحو ما ظنك زيدا؛ والمعنى: أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي في التأخير والإمهال. وقيل: أراد أهل مكة حين جعلهم في حرم آمن. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني الكفار. ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الله على نعمه ولا في تأخير العذاب عنهم. وقيل: ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ لا يوحدون.

❁ ❁ ❁

الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء

س: وضح معنى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: وما تكون في شأن من شؤونك يا رسول الله، ويا عبد الله، وما تتلو من الوحي الذي أنزل عليك من تلاوة، ولا تعملون من عمل أيها العباد أي عمل كان إلا والله سبحانه وتعالى مطلعٌ عليكم عالمٌ بكم وبعملكم وبأحوالكم، عالمٌ بكم في كل وقتٍ وحينٍ. عالمٌ بكم أثناء عملكم الذي تعملونه أيضًا، فقوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: عند خوضكم في العمل، عند عملكم العمل الذي تعملونه، وعند قولكم القول الذي تقولون ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: وما يذهب عن ربك عليم شيء، وما يفوته علم شيء ولو كان وزن ذرة، قيل: المراد النملة الصغيرة، وقيل: ذرات الغبار، لا يعزب عن ربنا، لا يخفى عليه ولا يغيب عنه شيءٌ ومن عمل خلقه، ولا من قول خلقه ولا من حركات وسكنات ونيات ولو كان وزن ذرة، ولو عُمل هذا العمل في أي مكان في السماء، أو في أي مكان في الأرض، وحتى إن كان هذا العمل أصغر من الذرة أو أكبر منها فعلمه سبحانه وتعالى بالعمل محيط، وكل ذلك مسطرٌ ومكتوب في كتاب مبين للأشياء فطره لها، قيل: ذلك هو اللوح المحفوظ، وقيل: كتاب الأعمال التي عملها الشخص، والأكثر من على الأول والله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾، يا محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾، يعني: في عمل من الأعمال ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾، يقول: وما تقرأ من كتاب الله من قرآن ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، يقول: ولا تعملون من عمل أيها الناس، من خير أو شر ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، يقول: إلا ونحن شهود لأعمالكم وشئونكم، إذ تعملونها وتأخذون فيها.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يا محمد عمل خلقه ولا يذهب عليه علم شيء حيث كان في أرض أو سماء...

ثم قال: وقوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ يعني: من زنة نملةٍ صغيرة.

وقال:

وذلك خبرٌ عن أنه لا يخفى عليه جل جلاله أصغر الأشياء، وإن خف في الوزن كلّ الخفة، ومقاديرُ ذلك ومبلغه، ولا أكبرها وإن عظم وثقل وزنه، وكم مبلغ ذلك. يقول تعالى ذكره لخلقه: فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربّكم عنكم، فإنّا شهود لأعمالكم، لا يخفى علينا شيء منها، ونحن محصُوها ومجازوكم بها.

وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، يقول: وما ذاك كله إلا في كتاب عند الله، ﴿مُّبِينٍ﴾، عن حقيقة خبر الله لمن نظر فيه. أنه لا شيء كان أو يكون إلا وقد أحصاه الله جل ثناؤه فيه، وأنه لا يعزُب عن الله علم شيء من خلقه حيث كان من سمائه وأرضه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿مَا﴾ للجحد؛ أي لست في شأن، يعني من عبادة أو غيرها إلا والرب مطلع عليك. والشأن الخطب، والأمر، وجمعه

شؤون. قال الأخفش: تقول العرب ما شانت شأنه، أي ما عملت عمله. ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ قال الفراء والزجاج: الهاء في ﴿مِنْهُ﴾ تعود على الشأن، أي تحدث شأنا فيتلى من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه، أو ينزل فيه قرآن فيتلى. وقال الطبري: ﴿مِنْهُ﴾ أي من كتاب الله تعالى. ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ أعاد تفخيما؛ كقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يخاطب النبي ﷺ والأمة. وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ خطاب له والمراد هو وأمته؛ وقد يخاطب الرسول والمراد هو وأتباعه. وقيل: المراد كفار قريش. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: نعلمه؛ ونظيره ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تأخذون فيه، والهاء عائدة على العمل؛ يقال: أفاض فلان في الحديث والعمل إذا اندفع فيه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧ -٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام لما سأله جبريل عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

وقال السعدي رحمه الله:

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية. ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإياكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره ومشاهدته ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر، كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما: العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

❊ ❊ ❊

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي
ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ وَلَا
يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ
٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم
مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا
مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾

[يونس: ٦٢-٧٠]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ - يَتَّقُونَ - ٱلْبُشْرَىٰ - لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ - ٱلْعِزَّةَ - يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ - يَخْرُصُونَ - سُبْحَٰنَهُۥ - سُلْطَٰنٍ - يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾	أنصار الله، وأنصار دينه، وهم المؤمنون المتقون المتحابون في الله الذين تذكرك رؤياهم بذكر الله.
﴿يَتَّقُونَ﴾	يتقون الشرك والعصيان والكبائر والبدع.
﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾	ما يبشرون به من الأخبار السارة التي يظهر أثرها على بشرتهم.
﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾	لا تغيير لما قضاه الله وكتبه على العباد، وعلى الخلق عمومًا.
﴿ٱلْعِزَّةَ﴾	الغلبة والقوة والقدرة.
﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	يعبدون مع الله – يسألون مع الله.
﴿يَخْرُصُونَ﴾	يتكلمون بالظنون الباطلة والتخرصات الكاذبة.
﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾	تنزه.
﴿سُلْطَٰنٍ﴾	حجة.
﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾	يكذبون على الله، وينسبون إليه ما لم يقله.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى أولياء الله؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: (أنصار الله).

❊ ❊ ❊

صفات أولياء الله ﷻ

س: ما صفات أولياء الله وما أعمالهم؟

ج: في الجملة هم الموصوفون بصفات المتقين في كتاب الله ﷻ وبصفات المؤمنين، العاملون بأعمالهم القائلون بأقوالهم المعتقدون اعتقادهم، وفي الجملة كل مؤمن تقي هو لله ولي.

ثم إن من العلماء من قال:

هم قوم إذا رآهم أحدًا ذكر الله ﷻ أي: أن رؤيتهم تُذكِّر بالله ﷻ لما عليهم من سيما الفضل والصلاح والإيمان والإخبات.

وبهذا قال عدد كبير من أهل العلم، وقد ورد بذلك حديث في سنده ضعف.

وقال آخرون: هم المتحابون في الله ﷻ.

هذا، وقد وردت في هذا الباب أحاديث عن رسول الله ﷺ لا يخلو حديث منها من مقال.

منها ما أخرجه الطبري[(١)] وغيره من طريق عمارة بن القعقاع الضبي، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير البجلي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء والشهداء! قيل: من هم يا رسول الله؟

(١) الطبري (١٧٧٢٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٢٣٦)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٨٩٩٧) وأعلَّه البيهقي وابن كثير بالإرسال كذلك.

فلعلنا نحبُّهم! قال: هم قوم تحابُّوا في الله من غير أموالٍ ولا أنساب، وجوههم من نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾.

إلا أن الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره أورده من طريق آخر عن عمارة عن أبي زرعة، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله! قالوا: يا رسول الله، أخبرنا من هم وما أعمالهم؟ فإنا نحبهم لذلك! قال: هم قوم تحابُّوا في الله بروح الله، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنورٌ، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾.

كذا أورده الطبري وغيره، وهذا اختلاف على أبي زرعة مرةً عن أبي هريرة، ومرة عن عمر وصوَّب عدد من العلماء رواية من رواه عن أبي زرعة عن عمر، فإذا كان كذلك فأبو زرعة لم يسمع من عمر، وروايته عنه مرسلة.

وبهذا أعلَّه البيهقي وغيره. والله أعلم.

وأخرج الطبري[1] **وأحمد وغيرهما من طريق عبد الحميد بن بهرام قال:** حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي من أفْنَاء الناس ونوازع القبائل، قوم لم تَصل**

---

(١) أحمد (٥/ ٣٤٣) (٢٣٠١٣)، والطبري في تفسير الآية المذكورة (١٧٧٣٠)، وغيرهما، وسنده فيه مقال من أجل شهر بن حوشب ففيه مقال. لكن من العلماء من يقوي رواته عبد الحميد بن بهرام عنه.

بينهم أرحام متقاربة، تحابُّوا في الله، وتصافَوْا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفزع الناس فلا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وثمَّ حديث آخر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: «**الذين إذا رءوا ذكر الله**» أخرجه البزار، وقال: وقد روي عن سعيد مرسلًا.

هكذا قال البزار، كما أورده عنه الحافظ ابن كثير، وأخرجه الطبري وغيره من وجوهٍ عن سعيد بن جبير مرسلًا وهو الصواب، فالخبر لا يثبت عن النبي ﷺ. والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ألا فاعلموا – ألا فاسمعوا إن أولياء الله، أنصاره المؤمنون به المدافعون عن دينه والمستمسكون بشرعه، وهم أهل الإيمان والتقى فكل مؤمنٍ تقي هو لله وليٌّ، فهؤلاء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وآمنوا بالملائكة والكتاب والنبيين وبالقدر خيره وشره، الذين اتقوا الشرك واتقوا مساخط الله ومعاصيه لا خوف عليهم مما هو آت فهم آمنون ولا يحزنون على شيء قد فاتهم من أمر الدنيا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب

الله، لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

و«الأولياء» جمع «ولي»، وهو النصير، وقد بينا ذلك بشواهده.

واختلف أهل التأويل فيمن يستحق هذا الاسم.

وأورد رَحِمَهُ اللَّهُ أقوالًا للعلماء ذكرت حاصلها فيما تقدم.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: «الولي» -أعني «ولي الله»- هو من كان بالصفة التي وصفه الله بها، وهو الذي آمن واتقى، كما قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، من هم يا ربّ؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، قال: أبى أن يُتَقَبَّل الإيمان إلا بالتقوى.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: الذين صدقوا الله ورسوله، وما جاء به من عند الله، وكانوا يتَّقون الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

وقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ من نعت «الأولياء»، ومعنى الكلام: ألا إن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا: أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ على ما وراءهم في الدنيا.

وأورد عن عددٍ من السلف: أولياء الله الذين إذا رءوا ذُكر الله.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال.

﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم، باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالى وليًا، و﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾.

❁ ❁ ❁

تفسير البشرى في الحياة الدنيا

س: ما المراد بالبشرى في الحياة الدنيا؟ وما المراد بالبشرة في الآخرة؟

ج: أما البشرى في الحياة فمن أقوال العلماء فيها ما يلي:

القول الأول: أنها الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن أو تُرى له، وقد وردت بذلك جملة أحاديث عن رسول الله ﷺ في تفسير الآية الكريمة تصح بمجموعها حاصلها أن النبي ﷺ فسَّر الآية الكريمة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾: «**أنها الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له**»(١).

هذا وقد صح عن رسول الله ﷺ أيضًا أنه قال: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**»(٢).

القول الثاني: أنها ثناءُ الناس الحسن على الرجل الصالح الذي يعمل عملًا صالحًا.

أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم في صحيحيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله؛ الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(٣).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

(١) انظر الأحاديث بذلك عند الطبري في تفسير الآية الكريمة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وقد أورد عدة أحاديث في ذلك، وانظر أيضًا مسند أحمد (٦/ ٤٥٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٣١)، وأحمد (٢/ ٢١٩) وغيرهم كم غفير.

(٢) البخاري (٦٩٩٠).

(٣) أحمد (٥/ ١٥٦)، ومسلم (٢٦٤٢).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي حديث البراء: «أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان. فتخرج من فمه، كما تسيل القطرة من فم السقاء».

القول الرابع: أنها البشارات التي بُشِّر بها المؤمنون في كتاب ربهم ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ.

القول الخامس: ما يراه العبد من تيسير الله ﷻ له ومن صرف السوء عنه.

وكل ذلك داخل في البشر في الدنيا.

* أما البشرى في الآخرة: فهي تبشيرهم بالجنة وخولدهم فيها ومنها تبشير الله ﷻ لهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢].

* وتبشير الملائكة لهم قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

* ومنها تبشير ربهم لهم برحمة منه ورضوان كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

هذا، وهناك بشارات أُخر في القبر لمجيء العمل الصالح في صورة رجل أبيض الوجه أبيض الثياب، طيب الريح، يقول: أنا عملك الصالح.

وغير ذلك من البشارات. والله أعلم.

قال الطبري ؒ بعد أن أورد جملة أقوال في البشرى:

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنّ لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له -ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله، كما روي عن النبي ﷺ: «**أن الملائكة التي تحضره عند خروج نفسه، تقول لنفسه: اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه**».

ومنها: بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ الآية، [سورة البقرة: ٢٥].

وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عمه جل ثناؤه: أن ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وأما في الآخرة فالجنة.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

ج: المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ: لهؤلاء المؤمنين المتقين أولياء الله ﷻ، البشرى، ما يبشرون به ويظهر أثره على وجوههم فرحة وسعادة وانشراحًا في الصدور في الدنيا، وهي الرؤيا الصالحة والثناء الحسن وتيسير الأمور وتذليل الصعاب وغير ذلك من طيب الأمور المطمئنة، وكذلك لهم البشرى عند الاحتضار بتبشير الملائكة لهم، وكذلك لهم البشرى في الآخرة يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدًا إن الله عنده أجرٌ عظيم، وتبشير الملائكة لهم كذلك بالجنات وبقولهم هذا يومكم الذي

كنتم توعدون. وثم تبشير في القبر كذلك.

أما قوله تعالى ذكره: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ فمعناها والله أعلم: لا إخلاف لوعد الله، ولا تغيير لما قضاه الله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، فإن معناه: إن الله لا خُلْفَ لوعده، ولا تغيير لقوله عما قال، ولكنه يُمْضي لخلقه مواعيدَه وينجزها لهم.

وأورد بإسنادٍ صحيح من طريق أيوب، عن نافع قال: أطال الحجاج الخطبة، فوضع ابن عمر رأسَه في حِجْري، فقال الحجاج: إن ابن الزبير بدّل كتاب الله! فقعد ابن عمر فقال: لا تستطيع أنت ذاك ولا ابن الزبير! لا تبديل لكلمات الله! فقال الحجاج: لقد أوتيت علمًا إن نفعك! قال أيوب: فلما أقبل عليه في خاصّة نفسه سكَتَ.

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾، يقول تعالى ذكره: هذه البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة «وهي الفوز العظيم»، يعني الظفر بالحاجة والطَّلبة والنجاة من النار.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؟

ج: الجمع بأن يقال: إن عزة رسول الله ﷺ وعزة المؤمنين إنما هي من الله

سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والله تعالى أعلم.

هذا، وتعزز رسول الله ﷺ وتعزز المؤمنين إنما ذلك بالله سبحانه والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: ولا يحزنك قولهم الذي يقولونه ويكذبونك به ويسخرون منك به ويشركون بالله ﷻ، لا يحزنك تكذيبهم لك ولا سخريتهم منك، فإن ه لن ينفعهم شيئًا ولن يستطيعوا إطفاء نور الله ﷻ فالغلبة كلها لله ﷻ دائمًا وأبدًا، وله القدرة التامة وإن شاء أهلكهم أهلكهم فهو عليهم قادر، وهو سبحانه وتعالى سميع لأقوالهم عليم بنواياهم وسميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، فلات حزن ولا تجزع.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنكَ، يا محمد، قول هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام، فإنّ العزة لله جميعًا، يقول تعالى ذكره: فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحدٌ، لأنه لا يُعَازُّه شيء ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يقول: وهو ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه، مُحْصًى ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه؛ فإن العزة لله جميعا، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٥﴾ أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده؛ فهو ناصرك ومعينك ومانعك. ﴿جَمِيعًاۚ﴾ نصب على الحال، ولا يعارض هذا قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فإن كل عزة بالله فهي كلها لله؛ قال الله سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠]. ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٥﴾ السميع لأقوالهم وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدح فيك، وفي دينك فإن أقوالهم لا تعزهم، ولا تضرك شيئًا. ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ يؤتيها من يشاء، ويمنعها ممن يشاء.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي: فليطلبها بطاعته، بدليل قوله بعده: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠].

ومن المعلوم، أنك على طاعة الله، وأن العزة لك ولأتباعك من الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ ﴾ أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو تعالى يسمع قولك، وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلا فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله، فهو حسبه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: اسمعوا وانتبهوا واعملوا أن الله ﷻ له من في السموات ومن في الارض يقضي فيهما بما يشاء، ويقضي في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا شريك له في إلاهيته ولا في ربوبيته ولا في ملكه أما هؤلاء الذين يدعون غير الله ويزعمون أن الآلهة التي يدعونها ويعبدونها شريكة لله فقد زعموا باطلًا وتقولوا كذبًا وزورًا، فهذه الآلهة ليست بشريكة لله ﷻ وإن زعم عابدوها أنها شريكة لله ﷻ، فهم ما يتبعون إلا ظنونًا وأوهامًا، وما يقولون قولًا له حقيقة إنما يتقولون بالظنون والأوهام والتخرصات الباطلة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ألا إن لله يا محمد كلَّ من في السموات ومن في الأرض، ملكًا وعبيدًا، لا مالك لشيء من ذلك سواه. يقول: فكيف يكون إلهًا معبودًا

من يعبُده هؤلاء المشركون من الأوثان والأصنام، وهي لله ملك، وإنما العبادة للمالك دون المملوك، وللرب دون المربوب؟ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾، يقول جل ثناؤه: وأيُّ شيء يتبع من يدعو من دون الله – يعني: غير الله وسواه– شركاء. ومعنى الكلام: أيُّ شيءٍ يتبع من يقول لله شركاء في سلطانه وملكه كاذبًا، والله المنفرد بملك كل شيء في سماء كان أو أرض؟ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، يقول: ما يتبعون في قيلهم ذلك ودعواهم إلا الظن، يقول: إلا الشك لا اليقين ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٦٦﴾، يقول: وإن هم إلا يتقوّلون الباطل تظنّيًا وتخرُّصا للإفك، عن غير علمٍ منهم بما يقولون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئا، لا ضرًا ولا نفعا، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى: أن له ما في السماوات والأرض، خلقًا وملكًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بما شاء من أحكامه، فالجميع مماليك لله، مسخرون، مدبرون، لا يستحقون شيئًا من العبادة، وليسوا شركاء لله بوجه الوجوه، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئًا ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٦٦﴾ في ذلك، خرص كذب وإفك وبهتان.

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئًا أو يرزق، أو

يملك شيئًا من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار، الذي جعله الله قياما للناس؟

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي يحكم فيهم بما يريد ويفعل فيهم ما يشاء سبحانه!.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ ﴾ ﴿مَا﴾ للنفي، أي لا يتبعون شركاء على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهام، أي أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء تقبيحا لفعلهم، ثم أجاب فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي يحدسون ويكذبون.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ قال الزجاج: ألا افتتاح كلام وتنبيه أي: فالذي هم له يفعل فيهم وبهم ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ ﴾ أي: ما يتبعون شركاء على الحقيقة لأنهم يعدونها شركاء لله شفعاء لهم وليست على ما يظنون.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ في ذلك ﴿ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ قال ابن عباس: يكذبون وقال ابن قتيبة: يحدسون ويحزرون.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم – بيان لقدرة الله ﷻ فيبين الله قدرته وانفراده بأنه سبحانه جعل الليل سكنًا يسكن فيه العباد ويهدؤن وينامون فيستريحون كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبأ: ٩] أي: راحة لكم، وكما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ [النبأ: ١٠].

وكذا فإنه سبحانه جعل النهار للعباد يبصرون فيه، يبصرون بضيائه، ومن ثمَّ يسعون للمعاش كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ١١].

إن في ذلك، فيما صنعه الله ﷻ بالليل إذ جعله للسكن، وفي النهار إذا جعله مضيئًا مبصرًا لمعايش الناس وقضاء حوائجهم لدلالات على وحدانيته الله وقدرته، ولكنها لقوم يسمعون الآيات سماع اعتبار واتعاظ، وتفكر وتأمل، ومن ثم اتباع ذلك بالعمل.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إنّ ربكم أيها الناس الذي استوجب عليكم العبادة، هو الرب الذي جعل لكم الليل وفصله من النهار، لتسكنوا فيه مما كنتم فيه في نهاركم من التَّعب والنَّصب، وتهدءوا فيه من التصرف والحركة للمعاش والعناء الذي كنتم فيه بالنهار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، يقول: وجَعَل النهار مبصرًا، فأضاف «الإبصار» إلى «النهار»، وإنما يُبْصَر فيه، وليس «النهار» مما يبصر، ولكن لما كان مفهوما في كلام العرب معناه، خاطبهم بما في لغتهم وكلامهم.

وذلك كما قال جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلانَ فِي السُّرَى ... وَنِمتِ، وَمَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ

فأضاف «النوم» إلى «الليل» ووصفه به، ومعناه نفسه، أنه لم يكن نائمًا فيه هو ولا بَعِيره.

يقول تعالى ذكره: فهذا الذي يفعل ذلك هو ربكم الذي خلقكم وما تعبدون، لا ما لا ينفع ولا يضر ولا يفعل شيئًا.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾، يقول تعالى ذكره: إن في اختلاف حال الليل والنهار وحال أهلهما فيهما، دلالةً وحججًا على أن الذي له العبادة خالصا بغير شريك، هو الذي خلق الليل والنهار، وخالف بينهما، بأن جعل هذا للخلق سكنًا، وهذا لهم معاشًا، دون من لا يخلق ولا يفعل شيئًا، ولا يضر ولا ينفع.

وقال: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾، لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون بها ويتعظون. ولم يرد به: الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه من نَصَبهم وكلالهم وحَرَكاتهم، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مضيئا لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

و﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغشى وجه الأرض، فلو استمر الضياء، لما قروا، ولما سكنوا.

﴿ وَ ﴾ جعل الله ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾ أي: مضيئًا، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معايشهم، ومصالح دينهم ودنياهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ عن الله، سمع فهم، وقبول، واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات، لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ بين أن الواجب عبادة من يقدر على خلق الليل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شيء.

﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي مع أزواجكم وأولادكم ليزول التعب والكلال بكم. والسكون: الهدوء عن الاضطراب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾ أي مضيئا لتهتدوا به في حوائجكم. والمبصر: الذي يبصر، والنهار يبصر فيه. وقال: ﴿مُبۡصِرًاۚ ﴾ تجوزا وتوسعا على عادة العرب في قولهم: «ليل قائم، ونهار صائم». وقال جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى ... وَنِمْتِ، وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

وقال قطرب: قال أظلم الليل أي صار ذا ظلمة، وأضاء النهار وأبصر أي صار ذا ضياء وبصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ ﴾ أي علامات ودلالات. ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ ﴾ أي سماع اعتبار ؟

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ

لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ المعنى: إن ربكم الذي يجب أن تعتقدوا ربوبيته، هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه فيزول تعب النهار وكلاله بالسكون في الليل، وجعل النهار مبصرًا، أي: مضيئًا تبصرون فيه وإنما أضاف الابصار إليه؛ لأنه قد فهم السامع المقصود إذ النهار لا يبصر وإنما هو ظرف يفعل فيه غيره كقوله: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ٢١]، إنما هي مرضية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سماع اعتبار فيعلمون أنه لا يقدر على ذلك إلا الإله القادر.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم -:

قال المشركون اتخذ الله ولدًا يعنون قاتلهم الله أن الملائكة بنات الله، وهذا قول بعض قبائل العرب، ومنسوب إلى قبيلة خزاعة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]

وقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

وكذا فإن اليهود قالوا: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ والنصارى قالوا: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، فنزَّه الله ﷻ عن كل ذلك إذ قال سبحانه أي: تنزَّه هو الغني عن خلقه والغني عن الولد، والغني على كل أحد، فكل ما في السموات وكل ما في الأرض ملك له سبحانه يتصرف فيه كيف يشاء ويقضي به بالذي يريد، وما عندكم أيها الضالون المفترون الزاعمون أنا لله له ولد، ما عندكم من حجة على قولكم الذي قلتموه، وزعمكم الذي زعمتموه أتتقولون على الله بغير الحق، وتتقولون عليه بلا علم وبما ليس لكم به عليم، فقل لهم إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفوزون بمطلوبهم ولا ينجو به من مرهوبهم من ينالوا جنة الله ولن يردوا عليها، وكذا لن يسلموا من عذاب الله ومن نقمته وعقابه.

أما الذي هم فيه في الدنيا فمتاع زائل، متاعٌ يتمتعون به في الدنيا ثم إلى الله ﷻ مرجعهم يوم القيامة، ثم يذيقهم الله ﷻ العذاب الشديد بسبب كفرهم وجحودهم آيات الله، ذلكم الكفر والجحود الذي كان منهم في دنياهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، وذلك قولهم: «الملائكة بنات الله». يقول الله منزهًا نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك: «سبحان الله»، تنزيهًا لله عما قالوا وادَّعوا على ربهم ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ يقول: الله غنيٌّ عن خلقه جميعًا، فلا حاجة به إلى ولد، لأن الولد إنما يَطْلُبه من يطلبه، ليكون عونًا له في حياته وذكرًا له بعد وفاته، والله عن كل ذلك غنيٌّ، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا

يبيدُ فيكون به حاجة إلى خلف بعده ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، يقول تعالى ذكره: لله ما في السموات وما في الأرض مِلْكًا، والملائكةُ عباده وملكه، فكيف يكون عبد الرجل وملكه له ولدًا؟ يقول: أفلا تعقلون أيها القوم خطأ ما تقولون؟ ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾، يقول: ما عندكم أيها القوم، بما تقولون وتدّعون من أن الملائكة بنات الله، من حجة تحتجون بها - وهي السلطان - أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وصحته، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه، جهلا منكم بما تقولون، بغير حجة ولا برهان؟

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، فيقولون عليه الباطل، ويدّعون له ولدًا ﴿لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾، يقول: لا يَبْقَون في الدنيا، ولكن لهم ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ يمتعون به، وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كُتِب فناؤهم فيه ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، يقول: ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم، إلينا مصيرهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾، وذلك إصلاؤهم جهنم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ بالله في الدنيا، فيكذبون رسله، ويجحدون آياته.

ورفع قوله: ﴿مَتَٰعٞ﴾ بمضمر قبله إما «ذلك»، و إما «هذا».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى منكرًا على من ادعى أن له ولدًا: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ أي: تقدس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له؟! ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ إنكار

ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أنه له ولدا، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال ها هنا: ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: مدة قريبة، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ أي: الموجع المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: يختلقون. ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي: لا يفوزون ولا يأمنون؛ وتم الكلام. ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: ذلك متاع، أو هو متاع في الدنيا؛ قاله الكسائي. وقال الأخفش: لهم متاع في الدنيا. قال أبو إسحاق: ويجوز النصب في غير القرآن على معنى يتمتعون متاعا. ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي: رجوعهم. ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ أي: الغليظ. ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي: بكفرهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أي: تنزه عما يقول الظالمون

في نسبة النقائص إليه علوًا كبيرًا، ثم برهن على ذلك، بعدة براهين:

أحدها: قوله: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنيًا من كل وجه، فلأي شيء يتخذ الولد؟

ألحاجة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولدًا إلا لنقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مماليك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقًا ولا مملوكًا. فملكيته لما في السماوات والأرض عمومًا، تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدًا، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحداهم وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي: لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم، في الدنيا، قليلا ثم ينتقلون إلى الله، ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون. ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ قال ابن عباس: يعني: أهل مكة جعلوا الملائكة بنات الله.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عما قالوا ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الزوجة والولد ﴿إِنْ عِندَكُم ﴾ أي: ما عندكم ﴿مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي: حجة بما تقولون.

قوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يبقون في الدنيا. والثاني: لا يسعدون في العاقبة. والثالث: لا يفوزون. قال الزجاج: وهذا وقف التمام. وقوله: ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ مرفوع على معنى ذلك متاع في الدنيا.

❁ ❁ ❁

شيءٌ من ذكر نبي اللّه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي
وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا
يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا
سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ
رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ
كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤ ﴾.

[يونس: ٧١-٧٤].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ - نَبَأَ - مَّقَامِي - وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ - تَوَكَّلۡتُ - فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ - وَشُرَكَآءَكُمۡ - غُمَّةً - ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ - وَلَا تُنظِرُونِ - تَوَلَّيۡتُمۡ - ٱلۡفُلۡكِ - خَلَٰٓئِفَ - ٱلۡمُنذَرِينَ - بِٱلۡبَيِّنَٰتِ - نَطۡبَعُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾	أخبرهم – اقصص عليهم.
﴿نَبَأَ﴾	خبر.
﴿مَّقَامِي﴾	إقامتي فيكم ومكثي معكم لدعوتكم إلى الله.
﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾	تخويفي لكم ووعظي لكم بحجج الله وآياته ودلالاته.
﴿تَوَكَّلۡتُ﴾	اعتمدت.
﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾	اعزموا رايكم – اجمعوا همتكم.
﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾	آلهتكم التي جعلتموها شريكةً لله وعبدتموها.
﴿غُمَّةً﴾	ملتبسًا – مشوشًا عليه – غير واضح.
﴿ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾	نفذوا فيَّ رايكم وقراركم.
﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾	لا تمهلون – لا تؤخرون.
﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾	أعرضتم عن الإيمان.
﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾	السفينة العظيمة.

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾	ناس يأتون من بعد أناسٍ يخلفونهم في أماكنهم.
﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾	المخوَّفين الذين أنذرتهم رسلهم.
﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾	بالحجج الواضحات والدلالات الظاهرات.
﴿نَطۡبَعُ﴾	نختم.

❁ ❁ ❁

من الأدلة على نبوة النبي محمد ﷺ

س: استدل البعض بقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ...﴾ على نبوة نبينا محمد ﷺ فما وجه هذه الدلالة؟

ج: وجهها أن النبي ﷺ كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك أخبرهم بقصة هذا النبي ﷺ، نبي الله نوح مع أنه لم يتعلمها ولم يتعلموها من أحدٍ كذلك.

قال ابن الجوزي في (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ فيه دليل على نبوته حيث أخبر عن قصص الأنبياء ولم يكن يقرأ الكتب وتحريض على الصبر وموعظة لقومه بذكر قوم نوح وما حل بهم من العقوبة بالتكذيب.

❁ ❁ ❁

استحباب التذكير بالقصص القرآني

س: في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ استحباب التذكير بالقصص القرآني، اذكر مزيدًا من الاستدلالات على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾.

* قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الشعراء: ٦٩].

* وقوله تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦].

* وقوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود:١٢٠].

* وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

* وقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ...﴾ [المائدة: ٢٧].

إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم -:

واذكر يا رسول الله لقومك ولمن أُرسلت إليهم خبر نبي الله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، ذكِّرهم بخبره، وبقوله لقومه يا قوم إن كان ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ شقَّ عليكم وعظم عليكم ﴿مَّقَامِي﴾ فيكم إقامتي بينكم ومكثي زمنًا طويلًا أدعوكم إلى الله وأذكركم ببيات الله فأردتم قتلي أو أردتم إخراجي من بلادكم أو أردتم أن تفعلوا بي أي شيء تريدونه فإني معتمد على

الله فهو حسبي وكافيني وحافظي فأجمعوا أمركم، فاعزموا على ما تريدون ولا يتشتت عليكم أمركم ولا ترددوا في فعل ما تريدونه بي، وكذا ادعوا شركاءكم من الآلهة والأوثان التي عبدتموها مع الله ﷻ ثم لا يكن أمركم ملتبسًا عليكم بل ليكن أمركم واضحًا ظاهرًا ثم نفذوا فيَّ مرادكم إن استطعتم ولا تؤخروني ولا تمهلوني.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱتۡلُ﴾ على هؤلاء المشركين الذي قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، من قومك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾، يقول: خبر نوح ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، يقول: إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم وشقّ عليكم، ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يقول، ووعظي إياكم بحجج الله، وتنبيهي إياكم على ذلك ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، يقول: إن كان شق عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآيات الله، فعزمتم على قتلي أو طردي من بين أظهركم، فعلى الله اتكالي وبه ثقتي، وهو سَنَدي وظهري ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾، يقول: فأعدُّوا أمركم، واعزموا على ما تنوُون عليه في أمري.

يقال منه: «أجمعت على كذا»، بمعنى: عزمت عليه، ومنه قول النبي ﷺ: «**من لم يُجْمِع على الصوم من الليل فلا صَوْم له**»، بمعنى: من لم يعزم، ومنه قول الشاعر:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لا تَنْفَعُ ... هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعني بـ«الشركاء»، آلهتهم وأوثانهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً﴾، يقول: ثم لا يكن أمركم عليكم ملتبسًا مشكلا مبهمًا.

من قولهم: «غُمَّ على الناس الهلال»، وذلك إذا أشكل عليهم فلم يتبيَّنوه، ومنه قول العجاج:

بَلْ لَوْ شَهِدْتِ النَّاسَ إذْ تُكُمُّوا ... بِغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا

وقيل: إن ذلك من «الغم»، لأن الصدر يضيق به، ولا يتبين صاحبه لأمره مَصدرًا يَصْدُرُه يتفرَّج عليه ما بقلبه، ومنه قول خنساء:

وَذِي كُرْبَةٍ رَاخَى ابْنُ عَمْرٍو خِنَاقَهُ ... وَغُمَّتَهُ عَنْ وَجْهِهِ فَتَجَلَّتِ

وقال:

وأما قوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾، فإن معناه: ثم امضوا إليّ ما في أنفسكم وافرغوا منه.

واختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾.

فقال بعضهم: معناه: امضوا إلي، كما يقال: «قد قضى فلان»، يراد: قد مات ومَضَى.

وقال آخرون منهم: بل معناه: ثم افرغوا إليّ، وقالوا: «القضاء»، الفراغ، والقضاء من ذلك. قالوا: وكأنّ «قضى دينه » من ذلك، إنما هو فَرَغ منه.

وقد حُكي عن بعض القراء أنه قرأ ذلك: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾، بمعنى: توجَّهوا إليّ حتى تصلوا إليّ، من قولهم: «قد أفْضَى إليّ الوَجَع وشبهه».

وقوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، يقول: ولا تؤخرون.

من قول القائل: «أنظرت فلانًا بما لي عليه من الدين».

قال أبو جعفر: وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ

لقومه: إنه بنُصرة الله له عليهم واثق، ومن كيدهم وبوائقهم غير خائف وإعلامٌ منه لهم أن آلهتهم لا تضرّ ولا تنفع، يقول لهم: أمضوا ما تحدّثون أنفسكم به فيَّ، على عزم منكم صحيح، واستعينوا من شايعكم عليّ بآلهتكم التي تدْعون من دون الله، ولا تؤخروا ذلك، فإني قد توكلت على الله، وأنا به واثق أنكم لا تضروني إلا أن يشاء ربي.

وهذا وإن كان خبرًا من الله تعالى عن نوح، فإنه حثٌّ من الله لنبيه محمد ﷺ على التأسّي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرشاد فيما قلَّده من الرسالة والبلاغ عنه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودَمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ أي: عَظُم عليكم، ﴿مَّقَامِى ﴾ أي فيكم بين أظهركم، ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بحججه وبراهينه، ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا! ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صَنَم ووثن، ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ولا تنظرون، أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّىٓ

أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه: واتل على قومك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانًا، فتمللوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إن كان مقامي عندكم، وتذكيري إياكم ما ينفعكم ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي: اعتمدت على الله، في دفع كل شر يراد بي، وبما أدعو إليه، فهذا جندي، وعدتي. وأنتم، فأتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العَدَد والعُدد.

﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا من مجهودكم شيئًا.

﴿ وَ ﴾ أحضروا ﴿ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين.

﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي: مشتبهًا خفيًا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية.

﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ ﴾ أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء، الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ أي: لا تمهلوني ساعة من نهار. فهذا برهان قاطع، وآية

عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه، وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقًّا، وهم الكاذبون فيما يدعون

❊ ❊ ❊

شجاعة نبي الله نوح عليه السلام وثباته

س: في الآية الكريمة شجاعة نبي الله نوح ﷺ وثباته، وضح ذلك؟

ج: إيضاحه من قوله لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلم يُبال بآلهتهم ولم يُبال بصنيعهم، بل حسن توكله على الله ﷻ وازداد يقينه وثباته وطلب من قومه اجتماع الرأي وعدم تشتته وفعل ما يريدونه به وعدم إمهاله، ثقةً في الله ﷻ أنه ناصره وحافظه. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: فإن أعرضتم عن الإيمان والتصديق وتوحيد الله ﷻ فلست أنا المتسبب في إعراضكم فأنا ما سألتكم أجرًا حتى تعرضوا وتقولوا هذا جاءنا يسألنا أموالنا ويسلبنا إياها، بل أطلب الأجر من الله ﷻ على تبليغي رسالاته إليكم وعلى نصحي لكم، وأدعوكم على أمرٍ أنه مأمور به أدعوكم إلى الإسلام، وأنا مأمور أن أكون من المسلمين فامتثلت ما أمرني الله ﷻ به، ولتمتثلوا ما أمركم الله ﷻ به.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نبيه نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أيها القوم، عني بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم، مدبرين، فأعرضتم عمّا دعوتكم إليه من الحقّ، والإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وترك إشراك الآلهة في عبادته، فتضيعٌ منكم وتفريطٌ في واجب حق الله عليكم، لا

بسبب من قبلي، فإني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرًا، ولا عوضًا أعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحق والهدى، ولا طلبت منكم عليه ثوابًا ولا جزاءً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يقول جل ثناؤه: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القوم، ولا على غيركم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾، وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره ونهيه، المذللين له، ومن أجل ذلك أدعوكم إليه، وبأمره آمركم بترك عبادة الأوثان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئًا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عَزَّ وَجَلَّ، والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتكم إليه، فلا موجب لتوليكم، لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده.

ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على دعوتي، وعلى إجابتكم، فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا، فتمتنعون لأجل ذلك.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه، ﴿وَ﴾ أيضا فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده، بل ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

فأنا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به.

الإسلام دين الأنبياء جميعًا

س: الإسلام دين الأنبياء جميعا دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى في شأن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة استدلالات على ذلك فقال:....

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]. وَقَالَ مُوسَى: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس: ٨٤]. وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وقالت بلْقيس: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١١]

وقال خاتم الرسل وسيد البشر: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه

الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه[(١)]: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات، ديننا واحد**» أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «**أولاد علات**»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: فلما دعا نوحٌ عليه السلام قومه إلى توحيد الله عز وجل كذَّبوه وأرادوا قتله وأرادوا به السوء والمكروه فنجيناه ومن معه في السفينة العظيمة التي أمرناه بصناعتها، وأرسلنا الطوفان على قومه فأغرقناهم وأهلكناهم وسلمناه عليه السلام ومن معه من المؤمنين به، وجعلناهم خلائف يخلفون من سبقهم ويعمرون الأرض من بعد إهلاكهم، وأغرض الله المكذبين من قوم نوح الذين جحدوا الآيات، فانظر يا رسول الله إلى العاقبة التي عُوقب بها من أنذرهم نوحٌ عليه السلام فكذبوه. فليحذر قومك أن يحل بهم ما حلَّ بالمكذبين من قوم نوحٍ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فكذب نوحًا قومه فيما أخبرهم به عن الله من الرسالة والوحي -﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ ممن حمل معه- ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾، يعني في السفينة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾، يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوح في السفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعني

(١) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

حججنا وأدلتنا على توحيدنا، ورسالة رسولنا نوح.

يقول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱنظُرۡ﴾، يا محمد ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ وهم الذين أنذرهم نوحٌ عقابَ الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام. يقول له جل ثناؤه: انظر ماذا أعقبهم تكذيبهم رسولَهم، فإن عاقبة من كذَّبك من قومك إن تمادوا في كفرهم وطغيانهم على ربهم، نحو الذي كان من عاقبة قوم نوح حين كذبوه.

يقول جل ثناؤه: فليحذروا أن يحلّ بهم مثل الذي حلّ، بهم إن لم يتوبوا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: على دينه ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهي: السفينة، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: في الأرض، ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد ما دعاهم ليلا ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له إذا فار التنور: فـ ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ [هود: ٤٠] ففعل ذلك.

فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا، فالتقى الماء على أمر قد قدر: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: ١٣] تجري بأعيننا، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ في الأرض بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته، هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان، ﴿فَٱنظُرۡ

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وهو: الهلاك المخزي، واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوما، ولا ترى إلا قدحًا وذمًا.

فليحذر هؤلاء المكذبون، أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك، والخزي، والنكال.

س: من هؤلاء الرسل الذين أرسلوا من بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ج: منهم رسلٌ قصَّهم الله علينا وذكرهم الله لنا، ومنهم رسلٌ ما ذُكرت لنا قصصهم، كما قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

أما الرسل الذي قصَّهم الله علينا فمنهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وغيرهم. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ثم بعثنا من بوعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ رسلًا إلى قومهم، فجاؤوهم من عند الله بالدلالات الواضحات والمعجزات الظاهرات الباهرات الدالة على نبوتهم، كناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أسلافهم، بل ساروا على درب أسلافهم المكذبين الجاحدين فكفروا كما كفر أسلافهم وعاندوا كما عاند أسلافهم وكذلك، ولما طبع الله على قولب أسلافهم ختم عليها فلم يؤمنوا، فكذلك ختم على قلوب هؤلاء المعتدين على حدود الله المتجاوزين لها المرتكبين للكفر والكبائر المتمردين العصاة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم، فأتوهم ببينات من الحجج والأدلّة على صدقهم، وأنهم لله رسل، وأن ما يدعونهم إليه حقّ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾، يقول: فما كانوا ليصدّقوا بما جاءتهم به رسلهم بما كذب به قوم نوح ومن قبلَهم من الأمم الخالية من قبلهم ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾، يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبَلون من أنبياء الله نصيحتَهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيّاهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب واكتسبوا من الآثام كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربّه فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربَّهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم، فجاءوهم بالبينات، أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم،

وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحا، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: «**أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»(١).

وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنَّكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

وقال السعدي رحمه الله:

أي: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ المكذبين، يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم من أسباب الردى.

﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أي: كل نبي أيد دعوته، بالآيات الدالة على صحة ما جاء به.

﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ولهذا قال هنا: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي: نختم عليها، فلا

---

(١) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

يدخلها خير، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

❁ ❁ ❁

شيءٌ من قصة موسى عليه السلام

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ
وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ
﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ
﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ
﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا
ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ
تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ

ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ
رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ
﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٧٥-٨٩].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿وَمَلَإِيْهِۦ - بِـَٔايَٰتِنَا - مُّبِينٌ - وَلَا يُفْلِحُ - لِتَلْفِتَنَا - ٱلْكِبْرِيَآءُ - سَيُبْطِلُهُۥٓ - وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ - بِكَلِمَٰتِهِۦ - ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ - وَمَلَإِيْهِمْ - يَفْتِنَهُمْ - لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ - ٱلْمُسْرِفِينَ - تَوَكَّلُوٓاْ - فِتْنَةً - تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا - وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً - لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ - ٱطْمِسْ - وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ - سَبِيلَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾	أشراف قومه.
﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾	بحججنا وبراهيننا وأدلتنا.
﴿مُّبِينٌ﴾	مظهرٌ – موضحٌ – ظاهرٌ واضحٌ.
﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾	لا يظفر بمطلوبه ولا ينجو من مرهوبه.
﴿لِتَلْفِتَنَا﴾	لتصرفنا.
﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾	العظمة والسلطان والوجاهة والرئاسة.
﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾	سيمحوه – سيزيله – سيبين فساده.
﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾	يظهر الله الحق ويقرره.
﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾	بأمره وقدرته وكلماته التي قضاها وتكلَّم بها من قبل.
﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾	قليل من قومه – شبابٌ من قومه من بني إسرائيل.
﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾	أشراف قومهم.
﴿يَفْتِنَهُمْ﴾	يصرفهم عن دينهم.

﴿لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾	لمستكبر في الأرض مفسدٌ فيها.
﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾	المتجاوزين الحد في الذنوب.
﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾	اعتمدوا.
﴿فِتْنَةً﴾	سببًا لصرف الناس عن دينهم.
﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾	اتخذا لقومكما – أنزلا قومكما – ابنيا لقومكما.
﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾	اجعلوا بيوتكم مساجد – صلوا في بيوتكم.
﴿ٱطْمِسْ﴾	أهلكها – أتلفها – حوَّلها إلى حجارة.
﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾	اجعلها قاسية لا تؤمن.
﴿سَبِيلَ﴾	طريق.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ثم بعثنا من بعد الرسل الذين أرسلناهم بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرسلنا بعدهم موسى وهارون ابني عمران عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون، وهو الطاغية المعروف الذي كان يحكم مصر في ذاك الزمان، وأرسلناهما إلى ملئه أيضًا، وهم أشراف أهل مصر آنذاك، وأيَّدنا موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بآياتنا، بحججنا الدالة على قدرتنا والدالة على وحدانيتنا، والدالة على صدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدق أخيها هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن هذه الآيات وتلك الحجج، الآيات التسع التي قال تعالى في شأنها: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ... ﴾ [الإسراء: ١٠١] والتي من أعظمها العصا التي تتحول إلى حية تسعى والتي انفلق بها البحر والتي انفجر بها الحجر، واليد التي يُدخلها جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، فاستكبر فرعون والملأ من قومه وبطروا الحق وجحدوه ووصفوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحجر وتوعدوه وتهددوه بالقتل، وكانوا قبل مجيئه لهم وبعد مجيئه من أهل الأجرام والشر والفساد، الذي يجترمون الجرائم والكبائر والآثام، وازداد جُرمهم بتكذيبهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل وبتعاليهم على الله، إذ قال فرعون أنا ربكم الأعلى، وقال: ما علمت لكم من إله غيري.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم من بعد نوح إلى قومهم، موسى وهارون ابني عمران، إلى فرعون مصر وملئه، يعني: وأشراف قومه وسادتهم ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾، يقول: بأدلتنا على حقيقة ما دعوهم إليه من الإذعان لله بالعُبُودة، والإقرار لهما بالرسالة ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾، يقول:

فاستكبروا عن الإقرار بما دعاهم إليه موسى وهارون ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾، يعني: آثمين بربهم، بكفرهم بالله.

وقال الحافظ ابن كثير:

يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أي: قومه. ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي: حججنا وبراهيننا، ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: فلما جاء فرعون وملأه الحقُّ من عندنا، الحجج الواضحات والدلالات البينات الجليات الظاهرات الباهرات والمعجزات الواضحات الدالات على صدق موسى وهارون عليهما السلام، والتي منها العصا واليد، والتي منها البرهان الساطع الواضح من عند الله، ما كان جواب فرعون وقومه إلا أن قالوا إن هذا الذي جئت به يا موسى سحرٌ موضحٌ ومظهر أنك ساحر، وأيضًا إنه لسحرٌ ظاهر واضح، قال موسى عليه السلام رادًّا عليهم، أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ والمعنى أتقولون للحق لما جاءكم سحرٌ. أسحرُ هذه المجزات الواضحات والآيات البينات الظاهرات ألا فاعلموا أنه لا يفلح الساحرون لا يفوزون بمطلوبٍ ولا ينجون من مرهوب، ولا يدركون أمنا ولا أمانًا.

فقالوا حينئذٍ متمادين في غيرهم أجئتنا يا موسى بالذي جئتنا به لتصرفنا

عن عبادة ما وجدنا آباءنا يعبدونه، وتكون لك ولأخيك هارون العظمة والسلطة والرئاسة والوجاهة والريادة في الأرض، قيل: أرض مصر، وقيل عمومًا. وعلى كل حال فما نحن لكما بمصدقين ولا بمقربين لكما على صدق ما جئتما به.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا ﴾، يعني: فلما جاءهم بيانُ ما دعاهم إليه موسى وهارون، وذلك الحجج التي جاءهم بها، وهي الحق الذي جاءهم من عند الله ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ ﴾، يعنون أنه يبين لمن رآه وعاينه أنه سحر لا حقيقة له ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ ﴾، لهم: ﴿ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ ﴾، من عند الله ﴿ أَسِحۡرٌ هَٰذَا ﴾ ؟.

واختلف أهل العربية في سبب دخول ألف الاستفهام في قوله: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟ فقال بعض نحويي البصرة: أدخلت فيه على الحكاية لقولهم، لأنهم قالوا: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟ فقال: أتقولون: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟

وقال بعض نحويي الكوفة: إنهم قالوا: ﴿هذا سحر﴾، ولم يقولوه بالألف، لأن أكثر ما جاء بغير ألف. قال: فيقال: فلم أدخلت الألف؟ فيقال: قد يجوز أن تكون من قِيلهم وهم يعلمون أنه سحر، كما يقول الرجل للجائزة إذا أتته: أحقٌّ هذا؟ وقد علم أنه حق. قال: وقد يجوز أن تكون على التعجّب منهم: أسحر هذا؟ ما أعظمه!

قال أبو جعفر: وأولى ذلك في هذا بالصواب عندي أن يكون المفعولُ محذوفًا، ويكون قوله: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾، من قيل موسى، منكرًا على فرعون

ومثله قولَهم للحق لما جاءهم: ﴿سحر﴾، فيكون تأويل الكلام حينئذ: قال موسى لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ﴾ وهي الآيات التي أتاهم بها من عند الله حجة له على صدقه سحرٌ، أسحرٌ هذا الحقّ الذي ترونه؟ فيكون «السحر» الأوّل محذوفًا، اكتفاءً بدلالة قول موسى ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾، على أنه مرادٌ في الكلام، كما قال ذو الرمة.

فَلَمَّا لَبِسْنَ اللَّيْلَ، أَوْ حِينَ نَصَّبَتْ لَهُ مِنْ خَذًا آذَانِهَا وَهْوَ جَانِحُ

يريد: أو حين أقبل، ثم حذف اكتفاءً بدلالة الكلام عليه، وكما قال جل ثناؤه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، والمعنى: بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، فترك ذلك اكتفاء بدلالة الكلام عليه، في أشباه لما ذكرنا كثيرة، يُتْعب إحصاؤها.

وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾، يقول: ولا ينجح الساحرون ولا يَبْقون.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾.

يقول تعالى ذكره: قال فرعون وملأه لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾، يقول: لتصرفنا وتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾، من قبل مجيئك، من الدين.

وقال: وقوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يعني العظمة، وهي «الفعلياء» من «الكبر».

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾، يقول: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا﴾ يا موسى وهارون ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، يعني بمقرِّين بأنكما رسولان أرسلتما إلينا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كأنهم -قبَّحهم الله- أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب

وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ منكرا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: الدّين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك ولهارون ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾.

وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رَبَّى هذا الذي يُحذَّر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولّى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئا بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وَمَلَؤه - قبحهم الله -على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرَد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ

ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون -لعنه الله- أراد أن يَتَهَرَّج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكَس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، و ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨] فظن فرعون أن يستنصر بالسحَّار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ يريد فرعون وقومه ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ حملوا المعجزات على السحر قال لهم موسى: ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا ﴾ قيل: في الكلام حذف المعنى: أتقولون للحق هذا سحر ف أتقولون إنكار وقولهم محذوف أي هذا سحر ثم استأنف إنكارا آخر من قبله فقال: أسحر هذا فحذف قولهم الأول اكتفاء بالثاني من قولهم منكرا على فرعون وملئه وقال الأخفش: هو من قولهم ودخلت الألف حكاية لقولهم لأنهم قالوا أسحر هذا فقيل لهم: أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا وروي عن الحسن ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ أي لا يفلح من أتى به.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وقال فرعون للملإ من قومه ائتوني بكل ساحرٍ له علم وخبرة واسعة بالسحر فاستُدعي السحرةُ فحضروا، وهنالك ساوموا فرعون قائلين – كما في موطن آخر أئن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين قال: نعم وإنكم إذن لمن المقربين، فقالوا لموسى عليه السلام: إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى، فقال لهم موسى عليه السلام بل ألقوا أنتم أولًا، وهنا قال لهم ألقوا أي: العصى التي تريدون أن تلقونها والحبال التي تريدون إلقاءها وغير ذلك مما تريدون إلقاءه، فألقوا حبالهم وعصيهم فخيل لموسى عليه السلام أنه حيات تسعى، فثبته الله عليه السلام لما أوجس في نفسه خيفة موسى، وبشره الله بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، فهاهنا قال لهم موسى عليه السلام: لما ثبته الله ﷻ، ما جئتم به، أي: ما صنعتموه من إلقاء الحبال والعصي وتحولها في أعين الناس إلى حيات تسعى، هو السحر بعينه وأنتم ما صنعتم إلا أنكم سحرتم أعين الناس واسترهبتموهم، وإن الله ﷻ سيظهر بطلان هذا السحر الذي صنعتموه وسيبين حقيقة الأمر، ولما كنتم قد جئتم للإفساد في الأرض ولسحر أعين الناس ولتخويفهم وجئتم لإبطال حجج الله ﷻ الدالة على وحدانيته، جئتم لتعافي الأجر على باطلكم جئتم لمناصرة من يقول: أنا ربكم الأعلى، ويقول: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري! وأي فساد أعظم من هذا فمن كان هذا عمله وكان هكذا سعيه فإن الله ﷻ لا يوفقه ولا يبارك في سعيه بل يبطل سعيه ويحبط عمله، وهكذا كل مفسدٍ في الأرض كل عامل فيها بمعصية الله لا يبارك

في عمله.

أما الحق وأهله وأهله فإن الله ناصره وناصر أهله، فقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٤] يظهر الله الحق ويعليه بكلماته التي قضاها وبأوامره التي يأمره بها، وأمره إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، ولو كره ذلك أهل الإجرام فإن أمر الله ﷻ نافذٌ وواقع وإن رغمت أنوف أهل الإجرام.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقال فرعون لقومه: ائتوني بكل من يسحر من السحرة، عليم بالسحر، ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾، فرعونَ قال موسى: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، من حبالكم وعصيّكم.

وفي الكلام محذوف قد ترك، وهو: «فأتوه بالسحرة، فلما جاء السحرة»، ولكن اكتفى بدلالة قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾، على ذلك، فترك ذكره.

وكذلك بعد قوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾، محذوفٌ أيضًا قد ترك ذكرُه، وهو: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤]، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ [يونس: ٨١]، ولكن اكتفى بدلالة ما ظَهَر من الكلام عليه، فتُرك ذكره.

ويقول تعالى ذكره: فلما ألقوا ما هم ملقوه، قال لهم موسى: ما جئتم به السحر. واختلفت القراء في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ على وجه الخبر من موسى عن الذي جاءت به سحرة فرعون، أنه سحرٌ. كأن معنى الكلام على تأويلهم: قال موسى: الذي جئتم به أيّها السحرة، هو السحر.

وقرأ ذلك مجاهد وبعض المدنيين البصريين: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ على

وجه الاستفهام من موسى إلى السحرة عما جاؤوا به، أسحر هو أم غيره؟

قال أبو جعفر: وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، قراءة من قرأه على وجه الخبر لا على الاستفهام، لأن موسى صلوات الله وسلامه عليه، لم يكن شاكا فيما جاءت به السحرة أنه سحر لا حقيقة له، فيحتاج إلى استخبار السحرة عنه، أي شيء هو؟

وأخرى أنه صلوات الله عليه قد كان على علم من السحرة، إنما جاء بهم فرعون ليغالبوه على ما كان جاءهم به من الحق الذي كان الله آتاه، فلم يكن يذهب عليه أنهم لم يكونوا يصدِّقونه في الخبر عمّا جاءوه به من الباطل، فيستخبرهم أو يستجيز استخبارهم عنه، ولكنه صلوات الله عليه أعلمهم أنه عالم ببطول ما جاؤوا به من ذلك بالحق الذي أتاه، ومبطلٌ كيدهم بحَدِّه.

وهذه أولى بصفة رسول الله ﷺ من الأخرى.

فإن قال قائل: فما وجه دخول الألف واللام في «السحر» إن كان الأمر على ما وصفت، وأنت تعلم أن كلام العرب في نظير هذا أن يقولوا: «ما جاءني به عمرو درهمٌ، والذي أعطاني أخوك دينار»، ولا يكادون أن يقولوا: الذي أعطاني أخوك الدرهم، وما جاءني به عمرو الدينار؟

قيل له: بلى، كلام العرب إدخال «الألف واللام » في خبر «ما» و«الذي» إذا كان الخبر عن معهود قد عرفه المخاطَب والمخاطِب، بل لا يجوز إذا كان ذلك كذلك إلا بالألف واللام، لأنّ الخبر حينئذ خبرٌ عن شيء بعينه معروف عند الفريقين، وإنما يأتي ذلك بغير «الألف واللام»، إذا كان الخبر عن مجهول غير معهود ولا مقصود قصدَ شيء بعينه، فحينئذ لا تدخل الألف واللام في الخبر. وخبرُ موسى كان خبراً عن معروف عنده وعند السحرة، وذلك أنها

كانت نسبت ما جاءهم به موسى من الآيات التي جعلها الله عَلَمًا له على صدقه ونبوته، إلى أنه سحرٌ، فقال لهم موسى: السحرُ الذي وصفتم به ما جئتكم به من الآيات أيها السحرة، هو الذي جئتم به أنتم، لا ما جئتكم به أنا.

ثم أخبرهم أن الله سيبطله. فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾، يقول: سيذهب به، فذهب به تعالى ذكره، بأن سلط عليه عصا موسى قد حوّلها ثعبانًا يتلقّفه، حتى لم يبق منه شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، يعني: أنه لا يصلح عمل من سعى في أرض الله بما يكرهه، وعمل فيها بمعاصيه.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن موسى أنه قال للسحرة: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾، يقول: ويثبت الله الحق الذي جئتكم به من عنده، فيعليه على باطلكم، ويصححه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، يعني: بأمره ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾، يعني الذين اكتسبوا الإثم بربِّهم، بمعصيتهم إياه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطفوا -وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البَدَاءة منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٧، ٦٩]، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟!!

وهكذا كل مفسد عمل عملا واحتال كيدًا، أو أتى بمكر، فإن عمله سيبطل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما، فإن مآله الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة، مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها، وينميها على الدوام، فألقى موسى عصاه، فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-:

فما اتبع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصدقه وأقرَّه على ما جاء به إلا ذرية من قومه، قيل: المراد قليل من قومه، وقيل: شبابٌ من قومه من بني إسرائيل، وثَمَّ قولٌ آخر ضعيف، وهو أن المراد بقوله: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي: من قوم فرعون كمؤمن آل فرعون ويسية امرأة فرعون وخازن فرعون، وامرأة خازن فرعون، وهؤلاء وإن كانوا آمنوا إلا أنهم ليسوا المعنيين بقوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ بل المعنى بها، والله أعلم، قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ أي: آمنوا

وهم متخوِّفون من فرعون ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي: أشراف قومهم أن يفتنهم، أي: أن هؤلاء القلة الذين آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آمنوا وهم متخوِّفون أن يعذبهم فرعون، ويُعذبهم أشراف قومهم كي يصرفوهم عن الإيمان بالله وحده لا شريك له.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مستكبر فيها بغير الحق ساع فيها بالفساد والشر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾ المتجاوزين الحد في الطغيان والكفر والتمرد والعصيان.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلم يؤمن لموسى، مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ خائفين من فرعون وملئهم.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الذرية في هذا الموضع.

فقال بعضهم: الذرية في هذا الموضع: القليل.

وقال آخرون: معنى ذلك: فما آمن لموسى إلا ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل لطول الزمان، لأن الآباء ماتوا وبقي الأبناء، فقيل لهم «ذرية»، لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال عندي بتأويل الآية، القولُ الذي ذكرته عن مجاهد، وهو أن «الذرية»، في هذا الموضع أريد بها ذُرّية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقرُّوا بنبوته لطول الزمان، فأدركت ذريّتهم، فآمن

منهم من ذكر الله، بموسى.

وإنما قلت: «هذا القولُ أولى بالصواب في ذلك»، لأنه لم يجر في هذه الآية ذكرٌ لغير موسى، فَلأن تكون «الهاء»، في قوله: «من قومه»، من ذكر موسى لقربها من ذكره، أولى من أن تكون من ذكر فرعون، لبعد ذكره منها، إذ لم يكن بخلاف ذلك دليلٌ، من خبرٍ ولا نظرٍ.

وبعدُ، فإن في قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾، الدليلُ الواضح على أن الهاء في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، من ذكر موسى، لا من ذكر فرعون، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام، «على خوف منه»، ولم يكن ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾.

وأما قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾، فإنه يعني على حال خوف ممن آمن من ذرية قوم موسى بموسى، فتأويل الكلام: فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾، فإن «الملأ»: الأشراف. وتأويل الكلام: على خوف من فرعون ومن أشرافهم.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: «الهاء والميم» عائدتان على «الذرية». ووجَّه معنى الكلام إلى أنه: على خوف من فرعون، وملأ الذرية، لأنه كان في ذرية القرن الذين أرسل إليهم موسى من كان أبوه قبطيًا وأمه إسرائيلية. فمن كان كذلك منهم، كان مع فرعون على موسى.

وقوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، يقول: كان إيمان من آمن من ذرية قوم موسى على

خوف من فرعون ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ بالعذاب، فيصدّهم عن دينهم، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله.

وقال: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾، فوحَّد ولم يقل: «أن يفتنوهم»، لدليل الخبر عن فرعون بذلك: أن قومه كانوا على مثل ما كان عليه، لما قد تقدم من قوله: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يقول تعالى ذكره: وإن فرعون لجبّارٌ مستكبر على الله في أرضه ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٨٣﴾، وإنه لمن المتجاوزين الحقّ إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به، وجحودُه وحدانية الله، وادّعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حِلِّها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية -وهم الشباب- على وجل وخوف منه ومن مَلَئِه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتوّ، وكانت له سَطْوة ومَهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا.

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حَذَر

كل الحذر فلم يُجْد عنه شيئا. ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟.

﴿ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ ﴾ أي: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يَفتِنَ عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاويا إلى فرعون، متصلا به، متعلقا بحباله ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿ وَمَلَإِيْهِمۡ ﴾ عائد إلى فرعون، وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه -فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾ أي: شباب من بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان.

﴿ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ ﴾ عن دينهم ﴿ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته.

﴿ وَ ﴾ خصوصا ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ كان ﴿ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣ ﴾ أي: المتجاوزين للحد، في البغي والعدوان.

والحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقيادًا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة- أبعد من

الحق من غيرهم.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ من المعنيون بقوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾.

ج: لأهل العلم أقوال في ذلك:

أحدهما: علية القوم من بني إسرائيل الذين لم يؤمنوا.

الثاني: أن المراد بالملأ علية قوم مصى من حاشية فرعون وتقدمت أقوالٌ في ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ لأنه كان مسلطا عليهم عاتبا. ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ ولم يقل وملئه ؛ وعنه

ستة أجوبة:

أحدها: أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه بفعل الجميع.

الثاني: أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره، فعاد الضمير عليه وعليهم ؛ وهذا أحد قولي الفراء.

الثالث: أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود.

الرابع: أن يكون التقدير: على خوف من آل فرعون ؛ فيكون من باب حذف المضاف مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، [يوسف: ٨٢] وهو القول الثاني للفراء. وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما قامت هند، وأنت تريد غلامها.

الخامس: مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية، أي

ملأ الذرية ؛ وهو اختيار الطبري.

السادس: أن يكون الضمير يعود على قومه. قال النحاس: وهذا الجواب كأنه أبلغها.

❁ ❁ ❁

س: المؤمن لا يحب أن يفتن ولا أن يُفتن به غيره وضح ذلك.

ج: ذلك واضح من أقوال العلماء في الآية الكريمة في إيضاح قول أهل الإيمان إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فلها معنيان:

أحدهما: لا تجعلنا سببًا في فتنة القوم الظالمين، فإنهم إذا انتصروا علينا ظنوا أنهم على الحق فبقوا على كفرهم وتمادوا فيه وانصرفوا عن الإيمان.

الثاني: لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا ويصرفوننا عنه ويحملوننا على الكفر.

والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم –: وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه من بني إسرائيل يا قوم إن كنتم صدقتم بوحدانية الله وقدرته فاعتمدوا عليه وحده واطلبوا من العون والتجئوا إليه كي يكشف ما بكم من ضرٍّ إن كنتم أسلتم أقررتم بوحدانيته وخضعتم لأمره واستسلمتم ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ اعتمدنا على الله وسألوا ربهم قائلين يا ربنا سلمنا من الكفار والظالمين واحفظنا من فتنتهم لنا ولا تجعلنا

سببًا أيضًا في فتنتهم، أي: لا تسلطهم علينا فينتصروا علينا فيفتنوا بذلك، وكذا لا تسلطهم أن الإسرائيليين كانوا مستعبدين لدى فرعون وقومه، وكان - كما هو معلوم - يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستضعف رجالهم. فسألهم الله النجاة من هذا كله.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل موسى نبيِّه لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدقتم بربوبيته ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾، يقول: فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾، يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا.

يقول تعالى ذكره: فقال قوم يا موسى لموسى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾، أي به وثقنا، وإليه فوَّضنا أمرنا.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾، يقول جل ثناؤه مخبراً عن قوم موسى أنهم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا لا تختبر هؤلاء القوم الكافرين، ولا تمتحنهم بنا! يعنون قوم فرعون.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي سألوه ربَّهم من إعاذته ابتلاء قوم فرعون بهم.

فقال بعضهم: سألوه أن لا يظهرهم عليهم، فيظنُّوا أنهم خيرٌ منهم، وأنهم إنما سُلِّطوا عليهم لكرامتهم عليه وهوان الآخرين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن القوم رغبوا إلى الله في أن يُجيرهم من أن يكونوا محنة لقوم فرعون وبلاءً، وكلُّ ما كان من أمر كان لهم مصدَّة عن اتباع موسى والإقرار به، وبما جاءهم به، فإنه لا شك أنه كان لهم «فتنة»، وكان من أعظم الأمور لهم إبعادًا من الإيمان بالله ورسوله. وكذلك من المصدَّة كان لهم عن الإيمان: أن لو كان قوم موسى عاجلتهم من الله محنةٌ في أنفسهم، من بلية تنزل بهم، فاستعاذ القوم بالله من كل معنى يكون صادًّا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم.

ويقول تعالى ذكره[(١)]: ونجِّنا يا ربنا برحمتك، فخلِّصنا من أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون، لأنهم كان يستعبدونهم ويستعملونهم في الأشياء القَذِرة من خدمتهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ أي: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ

---

(١) يعني في ذكر قولهم.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي: لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مِجْلَز، وأبي الضُّحى.

وقال ابن أبي نَجِيح وغيره واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فيفتنوا بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن نَجِيح، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ لا تسلطهم علينا، فيفتنونا.

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا علي.

❋ ❋ ❋

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: وأوحينا إلى موسى عليه السلام وإلى أخيه هارون عليه السلام أن اتخذا، ابنيا واشتريا لقومكما من بني إسرائيل، بيوتنا مستقرة واجعلوا بيوتكم قبلة، قيل: أمروا أن يصلوا في البيوت لما كان فرعون يؤذيهم إذا ذهبوا إلى المساجد فلما خافون رخص لهم في الصلاة في البيت.

وقيل: اجعلوا بيوتكم قبل بعض.

وقيل: أُمروا بالإكثار من الصلاة دفعًا للمصائب.

قال ابن كثير رحمه الله:

وكأن هذا -والله أعلم -لما اشتد بهم البلاء من قبَل فرعون وقومه،

وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾ أي: بالثواب والنصر القريب.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ أي: حافظوا عليها في أوقاتها وبأركانها، وبشر المؤمنين بأن لهم الحسنى، لهم الجنة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذا لقومكما بمصر بيوتًا. يقال منه: «تبوَّأ فلان لنفسه بيتًا»، إذا اتخذه. وكذلك تبوَّأ مصْحفًا»، إذا اتخذه، «وبوأته أنا بيتًا»: إذا اتخذته له.

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾، يقول: واجعلوا بيوتكم مساجدَ تصلُّون فيها.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾.

فقال بعضهم بنحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا مساجدكم قِبَل الكعبة.

وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾، يقول تعالى ذكره: وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾، يقول جل ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام: وبشر مقيمي الصلاة المطيعي الله، يا محمد، المؤمنين بالثواب

الجزيل منه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذوا لبني إسرائيل بيوتا بمصر، أي مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة. هذا قول إبراهيم وابن زيد والربيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا. والقول الأول أصح؛ أي اجعلوا مساجدكم إلى القبلة؛ قيل: بيت المقدس، وهي قبلة اليهود إلى اليوم؛ قال ابن بحر. وقيل الكعبة. عن ابن عباس قال: وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه، وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعا لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة؛ فإن ذلك أبلغ في التكليف وأوفر للعبادة. وقيل: المراد صلوا في بيوتكم سرا لتأمنوا؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨] الآية. وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم. قال ابن العربي: والأول أظهر القولين؛ لأن الثاني دعوى.

قلت: قوله: «دعوى» صحيح؛ فإن في الصحيح قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا**» وهذا مما خص به دون الأنبياء؛ فنحن بحمد الله

نصلي في المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة.

❁ ❁ ❁

س: يجوز الدعاء على الكفار إذا تمادوا في كفرهم وأصروا عليه وظلموا العباد، دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦].

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم عليك الملأ من قريش...» والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

ج: هذا - والله أعلم -: دعاء نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن رأى من فرعون وآل فرعون ما رأى من الجحود والتكذيب والعناد، ندى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلًا: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وسعت عليهم في الدنيا توسعة كبيرة، فعندهم من الذهب وسائر الحلي ما قد رزقتهم إياه يتزينون به ويتحلون به وكذا آتيتهم أفخر المراكب وأحسن البيوت، وأجمل الثياب، وكذا آتيتهم من صنوف المال أصنافًا واسعة من ذهب وفضة وغير ذلك، ومن الحاشية والحرث وغير ذلك ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن

سَبِيلِكَ﴾ أي: يا ربنا ما استفادوا من هذه النعم والأرزاق التي رزقتهم إياها هداية وتقًى وصلاحًا بل تمادوا في كفرهم وأضلوا الناس عن طريقك المستقيم، فصرفوا الناس عن سلوك طريقك الموصل إلى مرضاتك وجناتك.

وقيل: المعنى يا ربنا إنك أعطيتهم ما أعطيتهم فتنة لهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فظنوا أنهم على حق بتوسعة الله عليهم، فيا رب ها هم قد فتنوا وصُرفوا عن الحق فانتقم منهم وثمَّ وجوه أُخر، والوجه الأول أراه أقوى، والله أعلم.

ثم إن نبي الله موسى عليه السلام لما رأى تماديهم على الكفر دعا عليهم قائلًا: ربنا اطمس على أموالهم، قيل امحها فطمست معالم الأموال والعُملات، وقيل: تحولت إلى حجارة وكذا تحول سكَّرهم إلى حجارة، وقيل المعنى: معنى ﴿ٱطْمِسْ﴾ أي: أهلكها ودمِّرها يا رب.

أما قوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع عليها واجعلها قاسية لا تؤمن حتى يأتيها العذاب، وقيل: المراد به الغرق. والله أعلم.

فأجاب الله عز وجل دعاء موسى عليه السلام، ودعاء هارون عليه السلام، فيبدو أنه كان يدعو هو الآخر ومن ثمَّ قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

وقال بعض أهل العلم: إن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون عليه السلام كان يؤمن أي يقول آمين، ومن ثمَّ قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

أما قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: على ما أمركما الله به.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: ولا تسلكوا طريق أهل الجهل ومكة العلم بالله عز وجل وشرائعه وأحكامه.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقال موسى يا ربَّنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم -وهم «الملأ» - ﴿زِينَةً﴾، من متاع الدنيا وأثاثها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ من أعيان الذهب والفضة ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾، يقول موسى لربه: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من ذلك ليضلُّوا عن سبيلك.

واختلفت القراء في قراءة ذلك.

فقرأه بعضهم: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾، بمعنى: ليضلوا الناسَ، عن سبيلك، ويصدّوهم عن دينك.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾، بمعنى: ليضلوا هم عن سبيلك، فيجورُوا عن طريق الهدى.

فإن قال قائل: أفكان الله جل ثناؤه، أعطَى فرعون وقومه، ما أعطاهم من زينة الدنيا وأموالها، ليضلوا الناس عن دينه -أو ليَضلُّوا هم عنه؟- فإن كان لذلك أعطاهم ذلك، فقد كان منهم ما أعطاهم لذلك، فلا عتب عليهم في ذلك؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما توهمت.

وقد اختلف أهل العلم بالعربية في معنى هذه «اللام» التي في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾.

فقال بعض نحويي البصرة: معنى ذلك: ربنا فَضَلوا عن سبيلك، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، [القصص: ٨]، أي فكان لهم وهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا، وإنما التقطوه فكان لهم. قال: فهذه «اللام» تجيء في هذا المعنى.

وقال بعض نحويي الكوفة: هذه «اللام»، «لام كي» - ومعنى الكلام: ربنا

أعطيتهم ما أعطيتهم، كي يضلوا- ثم دعا عليهم.

وقال آخر: هذه اللامات في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ و﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾، وما أشبهها بتأويل الخفض: آتيتهم ما أتيتهم لضَلالهم - والتقطوه لكونه - لأنه قد آلت الحالة إلى ذلك. والعرب تجعل «لام كي»، في معنى «لام الخفض»، و«لام الخفض» في معنى «لام كي»، لتقارب المعنى، قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥] أي لإعراضكم، ولم يحلفوا لإعراضهم، وقال الشاعر:

سَمَوْتَ وَلَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِتَسْمُو ... وَلَكِنَّ المُضَيِّعَ قَدْ يُصَابُ

قال: وإنما يقال: «وما كنت أهلا للفعل»، ولا يقال «لتفعل» إلا قليلا.

قال: وهذا منه.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أنها «لام كي» - ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك، عقوبة منك. وهذا كما قال جل ثناؤه: ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧].

وقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها، وذلك نحو قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾، [النساء: ٤٧]. يعني به: من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها.

وأورد الطبري آثارًا عن التابعين مفادها أن أموالهم تحوَّلت إلى حجارة، وكذا زروعهم.

وقال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك أهلكها.

وقال في تفسير قوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ قال: واطبع عليها حتى لا تليق ولا تنشرح بالإيمان.

وقال في قوله: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ معناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويقروا بوحدانيته حتى يروا العذاب الموجع.

ثم قال: وأما قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ كان يقول معناه حتى يروا الغرق.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾.

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم. يقول جل ثناؤه: ﴿قَالَ﴾ الله لهما: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾، في فرعون وملئه وأموالهم.

فإن قال قائل: وكيف نسبت «الإجابة» إلى اثنين و«الدعاء»، إنما كان من واحد؟

قيل: إن الداعي وإن كان واحدًا، فإن الثاني كان مؤمِّنًا، وهو هارون، فلذلك نسبت الإجابة إليهما، لأن المؤمِّن داعٍ. وكذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾، فإنه أمرٌ من الله تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرهما، من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد الله وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرهما أنه أجَابَهما فيه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾، يقول: ولا تسلكانّ طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعْدي لا خلف له، وإن وعيدي نازلٌ بفرعون وعذابي واقع به وبقومه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، على فرعون وَمَلَئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلما وعلوا وتكبراً وعتوا، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ -بفتح الياء -أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم.

وأورد أقوالًا في تفسير قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ مفادها أهلكها فأهلكها وحولها إلى حجارة وقال:

وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيهم هذه الدعوة، التي أَمَّنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع

بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنزل منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمن».

وقال تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾ أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري.

قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ فامضيا لأمري، وهي الاستقامة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

فلما رأى موسى، القسوة والإعراض من فرعون وملئه، دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدام، ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ عظيمة ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون.

﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أي: أتلفها عليهم: إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة، غير منتفع بها.

﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: قسها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قال ذلك، غضبًا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

❁ ❁ ❁

س: اذكر مزيدًا من الأقوال في قوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾.

ج: من الأقوال في ذلك أن اللام لام العاقبة:

أن فكانت العاقبة أنهم أضلوا عن سبيلك.

الثاني: أن المعنى إنك يا رب ما أعطيتهم الذي أعطيتهم لإضلال الناس ولكنهم أضلوهم يا رب فانتقم منهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ اختلف في هذه اللام، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والصيرورة؛ وفي الخبر «إن لله تعالى ملكا ينادي كل يوم لدوا للموت وابنوا للخراب». أي لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا. وقيل: هي لام كي أي أعطيتهم لكي يضلوا ويبطروا ويتكبروا. وقيل: هي لام أجل، أي أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم. وزعم قوم أن المعنى: أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا، فحذفت لا كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. والمعنى: لأن لا تضلوا. قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن، إلا أن العرب لا تحذف «لا» إلا مع أن؛ فموه صاحب هذا الجواب بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَن تَضِلُّوا﴾. وقيل: اللام للدعاء، أي ابتلهم بالضلال عن سبيلك؛ لأن بعده: ﴿اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ﴾. وقيل: الفعل معنى المصدر أي إضلالهم كقوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥] قرأ الكوفيون: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء من الإضلال، وفتحها الباقون.

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١
فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ
ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ
فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ
ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ
٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥ ﴾

[يونس: ٩٠-٩٥].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ - فَأَتۡبَعَهُمۡ - بَغۡيٗا - وَعَدۡوًاۖ - أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ - ٱلۡمُسۡلِمِينَ - ءَايَةٗۚ - لَغَٰفِلُونَ - بَوَّأۡنَا - مُبَوَّأَ صِدۡقٖ - ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾	جعلناهم يجتازون البحر ويمرون آمنين مطمئنين.
﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾	فتبعهم.
﴿بَغۡيٗا﴾	ظُلمًا.
﴿وَعَدۡوًاۖ﴾	اعتداءً.
﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾	أحاط به الماء وتيقن من الغرق.
﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾	المستسلمين الخاضعين.
﴿ءَايَةٗۚ﴾	دلالة وعلامة (على وحدانية الله وقدرته).
﴿لَغَٰفِلُونَ﴾	لمعرضون.
﴿بَوَّأۡنَا﴾	أنزلنا.
﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾	منزلًا مباركًا محمودًا.
﴿ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾	الشاكين المرتابين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم: ومكَّنا بني إسرائيل من تجاوز البحر والمرور به والانتهاء منه فتبعهم فرعون وجنوده ظلمًا وتعديًا، وقيل ظلمًا وجريًا وقتًا ومتابعةً لموسى عليه السلام حتى إذا توسط فرعون البحر، وكان يبسًا التئم البحر ثانيةً على فرعون ومن معه حتى إذا أيقن فرعون أنه هالك وأن الماء محيط به من كل جانب، وأيقن بالغرق قال: صدقت، بالذي صدقت به بنو إسرائيل من توحيد الله ﷻ ونبوة موسى وهارون عليهما السلام وأنا من المستسلمين الخاضعين لأمر الله ﷻ. فقيل له: الآن آمنت، وقد عصيت في هذا من قبل وكذبت وكنت من المفسدين في الأرض، وقد قيل إن قائل ذلك هو الله ﷻ، وقيل إنه جبريل عليه السلام، وثمَّ أقوالٌ أخر هذا، ولما كان هناك من تشكك من الإسرائيليين في هلاك فرعون وغرته، وكذا فقد كانت هنالك بقايا من آل فرعون بمصر لم يخر جوامعه، وهؤلاء وأولئك كلاهما لم يوقن بموت فرعون وإغراقه وإهلاكه طرحه الله ﷻ على البرِّ، كما قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ ﴾ أي: فاليوم نلقيك على نجوة من الأرض كي يراك الناس وأنت ميت قد أهلكك الله فيتعظون بك ويعتبرون بهلاكك، وإن كان كثيرون من الناس عن آيات الله المعرضون غير ملتفتين لها، ولا منتفعين بها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾، يقول: فتَبِعهم فرعون ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾.

﴿بَغْيًا﴾ على موسى وهارون ومن معهما من قومهما من بني إسرائيل ﴿وَعَدْوًا﴾، يقول: واعتداء عليهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ يقول: حتى إذا أحاط به الغرق، وفي الكلام متروك، قد ترك ذكره لدلالة ما ظهر من الكلام عليه، وذلك: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ فغرقناه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾.

وقوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل فرعون حين أشفى على الغرق، وأيقن بالهلكة: ﴿ءَامَنتُ﴾، يقول: أقررت، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

يقول تعالى ذكره، معرِّفًا فرعون قبح صنيعه أيام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في طغيانه، ومعصيته ربه، حين فزع إليه في حال حلول سَخطه به ونزول عقابه، مستجيرًا به من عذابه الواقع به، لما ناداه وقد علته أمواج البحر، وغشيته كَرْبُ الموت: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية الآن تقرُّ لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادِّين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مَهَلٍ، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقرٌّ؟

ويقول تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكًا من كذّب بهلاكك، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، يقول: لمن

بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك، فينزجرون عن معصية الله، والكفر به والسعي في أرضه بالفساد.

و«النجوة»، الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾، يقول تعالى ذكره: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا ﴾، يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة لنا خالصةٌ ﴿ لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾، يقول: لساهون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: وما وجه قوله: ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾؟ وهل يجوز أن ينجيه بغير بدنه، فيحتاج الكلام إلى أن يقال فيه ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾؟

قيل: كان جائزًا أن ينجيه بهيئته حيًّا كما دخل البحر. فلما كان جائزًا ذلك قيل: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾، ليعلم أنه ينجيه بالبدن بغير روح، ولكن ميّتًا.

وأخرجه الطبري بسندٍ صحيح عن أبي السليل، عن قيس بن عباد، قال: - وكان من أكثر الناس- أو: أحدث الناس - عن بني إسرائيل، قال: فحدثنا أن أول جنود فرعون لما انتهى إلى البحر، هابت الخيل اللهب؛ قال: ومثل لحصان منها فرس وَدِيق، فوجد ريحها -أحسبها أنا قال: -فانسلَّ، فاتبعه. قال: فلما تتامّ آخر جنود فرعون في البحر، وخرج آخر بني إسرائيل، أمر البحر فانطبق عليهم، فقالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون وما كان ليموت أبدًا، فسمع الله تكذيبهم نبيه، قال: فرمى به على الساحل، كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾

أي: أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس، ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص: ٤١].

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذاك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي: نرفعك على نشز من الأرض، ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: (**لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**) أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون بها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة.

الآية: ٩١ ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

قيل: هو من قول الله تعالى. ومِيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرهما من الملائكة له صلوات الله عليهم. وقيل: هو من قول فرعون في نفسه، ولم يكن ثم قول اللسان بل وقع ذلك في قلبه فقال في نفسه ما قال: حيث لم تنفعه الندامة؛ ونظيره. ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] أثنى عليهم الرب بما في ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم، والكلام الحقيقي كلام القلب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نلقيك على نجوة من الأرض. وذلك أن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق، وقالوا: هو أعظم شأنا من ذلك، فألقاه الله على نجوة من الأرض، أي مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه قال أوس بن حجر يصف مطرا:

فمن بعقوته كمن بنجوته ... والمستكن كمن يمشي بقرواح

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي لبني إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينته إليه هذا الخبر. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي سبب إخراجه من البحر بعد غرقه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن موسى وأصحابه لما خرجوا، قال من بقي في المدائن من قوم فرعون: ما أُغرق فرعون، ولكنه هو وأصحابه يتصيدون في جزائر البحر، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عريانًا، فكانت نجاةَ عِبرةٍ، وأوحى الله تعالى إلى البحر: أن الفظ ما فيك، فلفظهم البحر بالساحل، ولم يكن يلفظ غريقًا، فصار لا يقبل غريقًا إلى يوم القيامة، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن أصحاب موسى قالوا: إنا نخاف أن يكون فرعون ما غرق، ولا نؤمن بهلاكه، فدعا موسى عليه السلام ربه، فأخرجه حتى أيقنوا بهلاكه، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإلى نحوه ذهب قيس بن عُبَاد، وعبد الله بن شداد، والسدي، ومقاتل. وقال السدي: لما قال بنو إسرائيل: لم يغرق فرعون، دعا موسى، فخرج فرعون في ستمائة ألف وعشرين ألفًا عليهم الحديد، فأخذته بنو إسرائيل يمثِّلون به. وذكر غيره أنه إنما أخرج من البحر وحده دون أصحابه. وقال ابن جريج: كذَّب بعض بني إسرائيل بغرقه، فرمى به البحر على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل قُصَيِّرًا أحمر كأنه ثور. وقال أبو سليمان: عرفه بنو إسرائيل بدرع كانت له من لؤلؤ لم يكن لأحد مثلها. فأما وجهه فقد غيَّره سخط الله تعالى.

والثالث: أنه كان يدَّعي أنه ربٌّ، وكان يعبده قوم، فبيَّن الله تعالى أمره، فأغرقه وأصحابه، ثم أخرجه من بينهم، قاله الزجاج. وفي قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: بجسدك من غير روح، قاله مجاهد. وذِكر البدن دليل على عدم الروح.

والثاني: بدرعك، قاله أبو صخر. وقد ذكرنا أنه كانت له درع من لؤلؤ، وقيل: من ذهب، فعُرِف بدرعه.

والثالث: نلقيك عريانًا، قاله الزجاج.

والرابع: ننجِّيك وحدك، قاله ابن قتيبة.

وفي قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: لتكون لمن بعدك في النكال آية لئلا يقولوا مثل مقالتك، فإنك لو

كنت إِلهًا ما غرقت، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: «خلفك» بمعنى بعدك، والآية: العلامة.

والثاني: لتكون لبني إِسرائيل آية، قاله السدي.

والثالث: لمن تخلّف من قومه، لأنهم أنكروا غرقه على ما ذكرنا في أول الآية، فخرج في معنى الآية قولان:

أحدهما: عبرة للناس.

والثاني: علامة تدل على غرقه. وقال الزجاج: الآية أنه كان يدَّعي أنه ربٌّ، فبان أمره، وأخرج من بين أصحابه لما غرقوا. وقرأ ابن السميقع، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء ﴿لِمَنْ خَلَفَكَ﴾ بالقاف.

❁ ❁ ❁

س: هل ثبت أن جبريل عليه السلام كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة بقوله: لا إله إلا الله؟

ج: ورد هذا من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ تصح بمجموعها لكنها أُعلت بالوقف على ابن عباس[(١)]، وقد روى أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفي سندها مقالٌ أيضًا.

وعلى كلٍّ فإن صححها بالمجموع مصحح فله وجه والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما اليوم الذي أهلك الله فيه فرعون؟

ج: **كان هذا يوم عاشوراء.**

---

(١) انظر الطبري (١٧٨٧٢) فما بعده، ومسند أحمد (١/ ٣٠٩، ٢٤٥)، وعبد بن حميد (٦٦٤)، والترمذي (٣١٠٦)، والطيالسي (٢٦١٨).

أخرج البخاري(١) ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فقال: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا**».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل محمودة مباركة كثيرة خيراتها، وكثيرةٌ زروعها، قيل: إنها مصر، وقيل: الشام، ومنها الأردن وفلسطين، وقيل: إن المراد بني إسرائيل الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وهم بنو قريظة وبنو النضير.

والظاهر الأول، أي: أنها مصر، وذلك؛ لأن فرعون كان بمصر، وقد أغرقه الله ﷻ وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥–٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩].

ولا يمنع أيضًا أن يكون الله ﷻ أنزلناهم منازل مباركة طيبة أخرى كالشام وغيرها، والله أعلم.

ثم إن الله ﷻ رزقهم مع هذه المنازل الطيبة الثمرات الطيبة والمطاعم الطيبة فساروا على نهج واحد على ما هم عليه ولكن لما جاءهم المعلوم لديهم والموصوف عندهم، وهو النبي محمد ﷺ وما معه من القرآن الذي

(١) البخاري (٤٦٨٠)، ومسلم (١١٣٠).

أنزله الله عليه حدث بينهم اختلاف فمنهم من آمن وصدق، ومنهم من تولى واستغنى ثم أخبر الله ﷻ أنه يقضي بينهم يوم القيامة، فيما كانوا يختلفون فيه في دنياهم ويجازي كلًّا بما يستحق.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازلَ صِدْق.

قيل: عني بذلك الشأم وبيت المقدس.

وقيل: عُنِي به الشأم ومصر. وقوله: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، يقول: ورزقنا بني إسرائيل من حلال الرزق وهو ﴿الطيب﴾.

وقوله: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾، يقول جل ثناؤه: فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين. وذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد النبيّ ﷺ مجمعين على نبوّة محمدٍ والإقرار به وبمبعثه، غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم وآمن به بعضهم، والمؤمنون به منهم كانوا عددًا قليلا. فذلك قوله: فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه نبيًّا لله فوضع ﴿ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ مكان ﴿المعلوم﴾.

وكان بعضهم يتأول ﴿ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ ههنا، كتابَ الله ووحيَه.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾، قال: ﴿ٱلۡعِلۡمُۚ﴾، كتاب الله الذي أنزله، وأمره الذي أمرهم به، وهل اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيًا بينهم ؟ أهل هذه الأهواء، هل اقتتلوا إلا على البغي قال: و«البغي» وجهان: وجه النفاسة في الدنيا ومن اقتتل عليها من أهلها، وبغى في

«العلم»، يرى هذا جاهلا مخطئًا، ويرى نفسه مصيبًا عالمًا، فيبغي بإصابته وعلمه عَلَى هذا المخطئ.

قال الطبري:

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٩٣﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربَّك، يا محمد، يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل فيك يوم القيامة، فيما كانوا فيه من أمري في الدنيا يختلفون، بأن يدخل المكذبين بك منهم النار، والمؤمنين بك منهم الجنة، فذلك قضاؤه يومئذ فيما كانوا فيه يختلفون من أمر محمد ﷺ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فـ﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩] ولكن استمروا مع موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم، موسى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت

المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في تلك المدة، فاستعانت اليهود - قبحهم الله -على معاداة عيسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ثم بعد المسيح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بنحو من ثلثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان -في دين النصرانية، وكان فيلسوفا قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعًا أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيَع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل، والمعابد، والقلايات. وانتشر دين النصرانيةفي ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار، واستحوذت يدُ النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقُمَامة، وبيت لحم، وكنائس بلاد بيت المقدس، ومدن حَوْران كبُصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له

القوانين، وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعا وشرعا.

وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس. وقد ورد في الحديث: «**أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار**».

قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي منزل صدق محمود مختار، يعني مصر. وقيل: الأردن وفلسطين. وقال الضحاك: هي مصر والشام. ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من الثمار وغيرها. وقال ابن عباس: يعني قريظة والنضير وأهل عصر النبي ﷺ من بني إسرائيل؛ فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وينتظرون خروجه، ثم لما خرج حسدوه؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ أي في أمر محمد ﷺ. ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي القرآن، ومحمد ﷺ. والعلم بمعنى المعلوم؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه؛ قال ابن جرير الطبري. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي يحكم بينهم ويفصل. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

﴿يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾ في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

❁ ❁ ❁

س: هل كان رسول الله ﷺ شاكًّا حتى يُقال له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؟

ج: لم يكن النبي ﷺ شاكًّا بحالٍ من الأحوال ولكن هذا مزيدٌ من التثبيت له وقذف الطمأنينة في قلبه، وكذا توجيه لأمته وإرشاد لهم.

وقد طرح الطبري نحو هذا السؤال وأجاب عليه فقال:

فإن قال قائل: أو كان رسول الله ﷺ في شكٍّ من خبَرِ الله أنه حقٌّ يقين، حتى قيل له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾؟

قيل: لا وكذلك قال جماعة من أهل العلم.

وأورد بأسانيد صحيحة عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، فقال: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل.

وأورد نحوه عن الحسن قال: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة مرسلًا قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال: فما وجه مخرج هذا الكلام، إذنْ، إن كان الأمر على ما وصفت؟

قيل: قد بيّنا في غير موضع من كتابنا هذا، استجازة العرب قول القائل منهم لمملوكه: «إن كنت مملوكي فانته إلى أمري» والعبد المأمور بذلك لا يشكُّ سيدُه القائل له ذلك أنه عبده. كذلك قول الرجل منهم لابنه: «إن كنت ابني فبرَّني»، وهو لا يشك في ابنه أنه ابنه، وأنّ ذلك من كلامهم صحيح مستفيض فيهم، وذكرنا ذلك بشواهده، وأنّ منه قول الله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ

قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، [المائدة: ١١٦]، وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك. وهذا من ذلك، لم يكن ﷺ شاكًّا في حقيقة خبر الله وصحته، والله تعالى ذكره بذلك من أمره كان عالمًا، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضًا، إذْ كان القرآن بلسانهم نزل.

وقال الطبري أيضًا:

ولو قال قائل: إن هذه الآية خوطب بها النبي ﷺ، والمراد بها بعضُ من لم يكن صحَّت، بصيرته بنبوته ﷺ، ممن كان قد أظهر الإيمان بلسانه، تنبيها له على موضع تعرف حقيقة أمره الذي يزيل اللبس عن قلبه، كما قال جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾، [الأحزاب: ١]، كان قولا غيرَ مدفوعةٍ صحته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره، أي لست في شك ولكن غيرك شك. قال أبو عمر محمد بن عبدالواحد الزاهد: سمعت الإمامين ثعلبا والمبرد يقولان: معنى ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ أي قل يا محمد للكافر فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ أي يا عابد الوثن إن كنت في شك من القرآن فأسأل من أسلم من اليهود، يعني عبدالله بن سلام وأمثاله ؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ؛ فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا من يقرون بأنهم أعلم منهم، هل يبعث الله برسول من بعد موسى. وقال القتبي: هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه ﷺ، بل كان في شك. وقيل: المراد بالخطاب النبي ﷺ لا غيره، والمعنى: لو كنت

يلحقك الشك فيه فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: فإن كنت يا رسول الله في شكٍّ من القرآن، وأننا أنزلناه عليك من عندنا فاسأل أهل الكتابين اليهود أهل التوراة والنصارى أهل الإنجيل، فإن ما أنزلناه إليك موصوف عندهم وأنت كذلك موصوف عندهم، فتأكد أن الحق قد جاءك من ربك، لم يأتك به شيطان وليست الآيات بوساوس ولا هواجس، فلا تكونن من المتشككين المرتابين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما اخترناك فأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوّتك قبل أن تبعث رسولا إلى خلقه، لأنهم يجدونك عندهم مكتوبًا، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتابهم في التوراة والإنجيل ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴾، من أهل التوراة والإنجيل، كعبد الله بن سلام ونحوه، من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك منهم.

ثم قال:

وأما قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية، فهو خبرٌ من الله مبتدأ.

يقول تعالى ذكره: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بأنك لله رسولٌ، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحّة ذلك، ويجدون نعتك عندهم في

كتبهم ، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، يقول: فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم.

❃ ❃ ❃

س: كيف يؤمر رسول الله ﷺ بسؤال أهل الكتاب، وكثيرٌ منهم مكذبون، بل وأكثرهم الفاسقون؟

ج: المراد – والله أعلم –: سؤال العدول منهم الذين آمنوا وصدقوا كعبد الله بن سلام ونحوه.

وقد استفاض السعدي في الإجابة على هذا السؤال فقال:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: اسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته.

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانًا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده و«كعب الأحبار» وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

فإذا كان موجودًا في التوراة، ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب، رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعًا واختيارًا، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين

أهل كتاب.

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسمًا لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي، ترويجًا لملكهم، وتمويهًا لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم – نهيٌ بعد نهيٍّ، فقد نهى النبي ﷺ عن أن يكون من الممترين، نهيٌ عن التشكك والارتياب، وأمته له تبع، وكذا نهي عن التكيب بآيات الله، فإنه إن كان من المكذبين لآيات الله كان، والعياذ بالله من أهل الخسران يوم القيامة، خسران ليس بعده خسران، وليس فوقه خسران.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تكونن يا محمدُ، من الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته، فتكون ممن غُبن حظه، وباع رحمةَ الله ورضاه، بسَخَطه وعقابه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك، التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلا وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه، علمًا وعملا.

فبذلك يكون العبد من الرابحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ
كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ
إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ
أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ
إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ فَهَلۡ
يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم
مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا
نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾ [يونس: ٩٦-١٠٣].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿حَقَّتْ - كَلِمَتُ رَبِّكَ - عَذَابَ ٱلْخِزْيِ - وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ - تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ - ٱلرِّجْسَ - وَٱلنُّذُرُ - أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ - حَقًّا عَلَيْنَا﴾.

ج:

معناها	الكلمة
وجبت عليهم – تحققت فيهم. قضى الله في شأنهم بأنهم سيموتون على الكفر	﴿حَقَّتْ﴾
ما تكلم الله به وقضاه وأمر به أن يكون، وقد قضى في حق الكفار أنهم سيموتون على الكفر.	﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾
العذاب المخزي المهين المذل.	﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾
تركناهم يتمتعون في الدنيا بالعام والشراب والملاذ حتى تنقضي آجالهم..	﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾
تُجبر الناس.	﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾
العذاب – العقاب – اللعن.	﴿ٱلرِّجْسَ﴾
الرسل – صور الإنذار عمومًا.	﴿وَٱلنُّذُرُ﴾
الأيام التي حلت فيها العقوبات – أيام العقوبات التي حلَّت بالذين مضوا من قبلهم (الأمم التي سلفت ومضت).	﴿أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾
واجبًا علينا (أوجبه الله على نفسه وجعله حقًّا لأهل الإيمان).	﴿عَلَيْنَا﴾

من كتبت عليه الشقاوة فلم يهتدي

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾.

ج: المعنى – والله أعلم: إن الذين وجبت عليهم كلمة الله بأنهم سيموتون على الكفر وسيعذبون ويستحقون اللعنة لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل الآيات والمعجزات حتى يروا العذاب أمام أعينهم فحينئذٍ قد يؤمنوا ولكن لا ينفعهم ذلك الإيمان كما حدث لفرعون لعنه الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين وجبت عليهم يا محمد ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، هي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾، [هود: ١٨]، فثبتت عليهم.

يقال منه: «حق على فلان كذا يحقُّ عليه»، إذا ثبت ذلك عليه ووجب.

وقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾، يقول: لا يصدقون بحجج الله، ولا يقرُّون بوحدانية ربهم، ولا بأنك لله رسول ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾، وموعظة وعبرة، فعاينوها، حتى يعاينوا العذاب الأليم، كما لم يؤمن فرعون وملؤه، إذ حقَّت عليهم كلمة ربّك حتى عاينوا العذاب الأليم، فحينئذ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، [يونس: ٩٠]، حين لم ينفعه قيله، فكذلك هؤلاء الذين حقت عليهم كلمة ربك من قومك من عبدة الأوثان وغيرهم، لا يؤمنون بك فيتبعونك، إلا في الحين الذي لا ينفعهم إيمانهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ أي: لا يؤمنون إيمانا ينفعهم، بل

حين لا ينفع نفسًا إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿ ۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ ﴾ أي: وجبت ﴿ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي: قوله. وبماذا حقت الكلمة عليهم، فيه أربعة أقوال:

أحدها: باللعنة.

والثاني: بنزول العذاب.

والثالث: بالسَّخط.

والرابع: بالنقمة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ قال الأخفش: إنما أنَّث فعل «كل» لأنه أضافه إلى «آية» وهي مؤنثة.

وقال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا، وغيا إلى غيهم. وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق، لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم، وأبصارهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، الذي وعدوا به. فحينئذ يعلمون حق اليقين، أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئًا،

فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم، ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

الآيات لا تنفع من كتبت عليهم الشقاوة

س: الآيات (المعجزات) لا تنفع من كتبت عليه الشقاوة دلِّل على ذلك:

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ...﴾ [الإسراء: ٥٩].

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

إلى غير ذلك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

ج: أما قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ ففيه وجهان للعلماء:

أحدهما: أن معناها (فلم) فيكون المعنى فلم تكن هناك قريةٌ كافرة آمنت لما رأت العذاب فانتفعت بإيمانهم وكشف عنهم ربهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: العذاب المخزي المُهين المُذل في الحياة الدنيا، ومتعناهم إلى حين، وهو انقضاء

آجالهم.

وبمزيدٍ من الإيضاح لهذا الوجه أقول إن فرعون مثلًا لما آمن عند معاينة الموت وإحاطة أسبابه به ورأى الغرق لا محالة تلفظ بقوله: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فلم ينتفع بهذا الإيمان الذي كان منه عند إحاطة الموت به وعند غرقه.

وهكذا سائر الأمم المعذبة التي أهلكها الله لم تنتفع بإيمانها عند معاينتها العذاب لكن قوم يونس راوا العذاب وكان سيحلُّ بهم استغفروا وآمنوا فانتفعوا بذلك فكشف عنهم العذاب.

أي أن الأمم المعذبة التي رات العذاب لكن قوم يونس استثناهم الله ﷻ من ذلك فكشف عنهم العذاب لما آمنوا.

الوجه الثاني: أن المعنى فهلا كانت قرية آمنت لما جاءها المرسلون فكانت حينئذٍ تنتفع بالإيمان وكلن ما حدث هذا، وما هنالك قريةٌ آمنت فانتفعت بالإيمان، لكن قوم يونس آمنوا لما خرج نبيهم من عندهم مغاضبًا وأيقنوا أن العذاب واقع بهم آمنوا كلهم أجمعون فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا في الحياة الدنيا إلى الوقت الذي تنقضي فيه آجالهم التي كتبها الله لهم.

فتلخيص القول في الوجهين على النحو التالي:

الأول: فما كانت هنالك قرية رات العذاب مقبلًا عليها فآمنت وتابت فنفعها ذلك الإيمان وتلك التوبة، فالإيمان والتوبة في هذا الوقت لا ينفعان، إلا قوم يونس استثنوا من هذا فنفعهم الإيمان.

الثاني: فهلا كانت هناك قرية آمنت فانتفعت بإيمانها بتصديقها الرسل، ولكن قوم يونس آمنوا فانتفعوا.

هذا، والمراد والله أعلم القرية بكاملها.

والله تعالى أعلى وأعلم.

ثم هذه أقوال بعض العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فهلا كانت قرية آمنت؟ وهي كذلك فيما ذكر في قراءة أبيّ.

ومعنى الكلام: فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب، ونزول سَخَط الله بها، بعصيانها ربها واستحقاقها عقابه، فنفعها إيمانها ذلك في ذلك الوقت، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق بعد تماديه في غيّه، واستحقاقه سَخَط الله بمعصيته - إلا قوم يونس، فإنهم نفعهم إيمانهم بعد نزول العقوبة وحلول السخط بهم.

فاستثنى الله قوم يونس من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم منهم، وأخبر خلقه أنه نفعهم أيمانهم خاصة من بين سائر الأمم غيرهم.

وأورد بإسنادٍ حسن: عن قتادة قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨﴾، يقول: لم يكن هذا في الأمم قبلهم لم ينفع قريةً كفرت ثم آمنت حين حضرها العذابُ، فتُرِكت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيَّهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجُّوا إلى الله أربعين ليلةً. فلما عرف الله الصِّدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلَّى عليهم. قال: وذكر لنا أن

قوم يونس كانوا بنينوى أرضِ الموصل.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، يقول: لما صدّقوا رسولهم، وأقروا بما جاءهم به بعد ما أظلّهم العذاب وغشيهم أمْرُ الله ونزل بهم البلاء كشفنا عنهم عَذَاب الهوان والذلّ في حياتهم الدنيا ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، يقول: وأخَّرنا في آجالهم ولم نعاجلهم بالعقوبة، وتركناهم في الدنيا يستمتعون فيها بآجالهم إلى حين مماتهم، ووقت فناء أعمارهم التي قَضَيْتُ فَنَاءها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣] وفي الحديث الصحيح: «**عرض علي الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد**»(١) ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي.

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب

(١) انظر لفظه عند البخاري (٣٤١٠)، ومسلم (٣٧٤) (٢٢٠).

الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية. والقول الثاني فيهما لقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨] فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ من قرى المكذبين ﴿ ءَامَنَتْ ﴾ حين رأت العذاب ﴿ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه، حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبًا، لما قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فقيل له ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وكما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

والحكمة في هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ بعدما رأوا العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ فهم مستثنون من العموم السابق.

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩] إلى قوله ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]، ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: هل قوم يونس رأوا العذاب فعلًا أم رأوا علاماته ومن ثَمَّ بادروا بالإيمان؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنهم رأوا العذاب أمامهم.

الثاني: رأوا علامات وأمارات تدل على أن العذاب سيحلّ بهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الطبري: خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قلت: قول الزجاج حسن؛ فان المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك. ويعضد هذا قوله عليه السلام: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**». والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا. والله أعلم.

... ثم قال رحمه الله:

ويكون معنى ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي العذاب الذي وعدهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنهم رأوه عيانا ولا مخايلة؛ وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص، والله أعلم. وبالجملة فكان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾ أي: أهل قرية. وفي «لولا» قولان:

أحدهما: أنها بمعنى: لم تكن قرية آمنت ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي: قُبِلَ منها ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾، قاله ابن عباس. وقال قتادة: لم يكن هذا لأمة آمنت عند نزول العذاب، إلا لقوم يونس.

والثاني: أنها بمعنى: فهلاّ، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. قال الزجاج: والمعنى: فهلاّ كانت قرية آمنت في وقت نفعها إيمانها، إلا قوم

يونس؟ و«إِلا» هاهنا استثناء ليس من الأول، كأنه قال: لكن قومُ يونس.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أنك يا رسول الله لا تستطيع إجبار أحدٍ على الإيمان، ولن تستطيع توفيق أحدٍ لذلك ولا إكراهه على ذلك بل هذا الأمر أمر إيمان القلوب موكول إلى الله ﷻ، لا يملكه إلا هو، ولو شاء الله ﷻ لأمن من في الأرض كلهم جميعًا، ولن تستطيع ولو حرصت هداية من أغواه الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

وفي معنى الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢].

كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص: ٥٦].

وما كان لأي نفسٍ أن تؤمن إلا إذا وفقها الله ﷻ لذلك وأذن بذلك، ويجعل ربنا عذابه وغضبه وعقابه وسخطه ولعنته على الذين لا يعقلون عن الله أمره، ولا يتبعون رسله ولا يصدقون بوحدانيته، فهؤلاء يجعل الله الرجس عليهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾، يا محمد، ﴿رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ

كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾، بك، فصدَّقوك أنك لي رسول، وأن ما جئتهم به وما تدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبودة له، حقٌّ، ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سبق من قضاء الله قبل أن يبعثك رسولا أنه لا يؤمن بك، ولا يتّبعك فيصدقوك بما بعثك الله به من الهدى والنور، إلا من سبقت له السعادةُ في الكتاب الأوّل قبل أن تخلق السموات والأرض وما فيهن، وهؤلاء الذين عجبوا من صِدْق إيحائنا إليك هذا القرآن لتنذر به من أمرتك بإنذاره، ممَّن قد سبق له عندي أنهم لا يؤمنون بك في الكتاب السابق.

فإن قال قائل: فما وجه قوله: ﴿لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾، فـ «الكل» يدل على «الجميع»، و«الجميع» على «الكل»، فما وجه تكرار ذلك، وكل واحدة منهما تغني عن الأخرى؟

قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك:

فقال بعض نحويي أهل البصرة: جاء بقوله «جميعًا» في هذا الموضع توكيدًا، كما قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، [النحل: ٥١]، ففي قوله: «إلهين» دليل على «الاثنين».

وقال غيره: جاء بقوله «جميعًا» بعد «كلهم»، لأن «جميعًا» لا تقع إلا توكيدًا، و«كلهم» يقع توكيدًا واسمًا، فلذلك جاء بـ «جميعًا» بعد «كلهم». قال: ولو قيل إنه جمع بينهما ليعلم أن معناهما واحد، لجاز ههنا. قال: وكذلك: ﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، العدد كله يفسر به، فيقال: «رأيت قومًا أربعة». إلى آخر ما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾، يقول جل ثناؤه لنبيّه محمد ﷺ: إنه لن يصدقك يا محمد، ولن يتبعك ويقرّ بما جئت به إلا من شاء

ربك أن يصدّقك، لا بإكراهك إياه، ولا بحرصك على ذلك ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ لك، مصدقين على ما جئتهم به من عند ربك؟ يقول له جل ثناؤه: فاصدَعْ بما تؤمر، وأعرض عن المشركين الذين حقَّت عليهم كلمة ربّك أنَّهم لا يؤمنون.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه: وما كان لنفس خلقتُها من سبيل إلى تصديقك، يا محمد، إلا بأن آذن لها في ذلك، فلا تجهدنّ نفسك في طلب هداها، وبلِّغها وعيدَ الله، وعرِّفها ما أمرك ربك بتعريفها، ثم خلِّها، فإن هداها بيد خالقها.

وأما قوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾، فإنه يقول تعالى ذكره: إن الله يهدي من يشاء من خلقه للإيمان بك يا محمد، ويأذن له في تصديقك فيصدقك ويتبعك، ويقرّ بما جئت به من عند ربك، ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾، وهو العذابُ، وغضب الله ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾، يعني الذين لا يعقلون عن الله حججه ومواعظه وآياته التي دلّ بها جل ثناؤه على نبوّة محمد ﷺ، وحقيقة ما دعاهم إليه من توحيد الله، وخَلْع الأنداد والأوثان.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ -يا محمد- لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلّهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾

[الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل [إلى] الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من ضل.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: بقضاء الله وقدره.

والثاني: بأمر الله، رُويا عن ابن عباس.

والثالث: بمشيئة الله، قاله عطاء.

والرابع: إلا أن يأذن الله في ذلك، قاله مقاتل.

والخامس: بعلم الله.

والسادس: بتوفيق الله، ذكرهما الزجاج، وابن الأنباري.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾

بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين.

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بإرادته ومشيئته، وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلا لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهداه.

﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ ﴾ أي: الشر والضلال ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقوا بالا لنصائحه ومواعظه.

❃ ❃ ❃

س: لماذا انتفع قوم يونس بالتوبة عند معاينة العذاب دون غيرهم؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن الله ﷻ اختصهم بذلك لعلمه بهم.

الثاني: أنهم آمنوا قبل حلول العذاب، وذلك أنهم آمنوا عندما رأوا أسباب العذاب قادمة.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

فإن قيل: كيف كُشف العذاب عن قوم يونس بعد إِتيانه إِليهم، ولم يُكشَف عن فرعون حين آمن؟

فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن ذلك كان خاصًّا لهم كما ذكرنا في أول الآية.

والثاني: أن فرعون باشره العذاب، وهؤلاء دنا منهم ولم يباشرهم، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية، فأما الذي يعاين، فلا توبة له ذكره

الزجاج.

والثالث: أن الله تعالى علم منهم صدق النيات، بخلاف مَن تقدَّمهم من الهالكين، ذكره ابن الأنباري.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: انظروا يا عباد الله ماذا في السموات والأرض من الآيات الدالة على قدرة الله ﷻ ووحدانيته، انظروا إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت، انظروا كذلك في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، انظروا إلى الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال وسائر المخلوقات تستدلوا بذلك على وحداينة الله ﷻ، ولكن الذي يستدل من كان له قلب يعقل به، ومن كتبت له الهداية أما من كتبت عليه الشقاوة والغواية فمهما أتته من آيات وحجج وبينات فكل ذلك لن يؤثر فيه ولن يتسبب في هدايته لأن الله أغواه.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ أي: وماذا تجدي المعجزات، وماذا يُجدي المرسلون المنذورن وماذا تجدي كافة النذر مع القوم الذين كتبت عليهم الغواية، إنهم لا ينتفعون بآية ولا يتذكرون بنذير فماذا عساهم أن يطلبوا كي يؤمنوا؟! ماذا ينتظرون كي يؤمنوا هل ينتظرون إلا مثل الأيام التي حلَّت

فيها المصائب والنقم بالأمم التي مضت من قبلهم؟! فقل لهؤلاء المكذبين الذين يكذبون بالقرآن ويكذبون بالنقم انتظروا ونحن معكم ننتظر حتى يأتي ما وعد الله به فسيأتيكم نحو ما جاء الأمم من قبلكم وسيحل بكم من عذاب الله ونكاله مثل ما حلَّ بالأمم السابقة فإذا جاء هذا العذاب، وحلَّ هذا النكال نجينا رسلنا والذين آمنوا كما أنجينا رسلنا من قبل، وأنجينا أهل الإيمان، ننجي رسول الله ﷺ وأهل الإيمان، وهذا الحق الذي قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: لأهل الإيمان أن ننجيهم، هو سبحانه بفضله وكرمه أوجبه على نفسه، كذا قال فريق من أهل العلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآياتِ على صحّة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السمواتِ من الآيات الدّالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلافِ ليلها ونهارِها، ونزول الغيث بأرزاق العبادِ من سحابها وفي الأرض من جبالها، وتصدُّعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبَّرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالةً على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يُغْنيكم عما سواه من الآيات.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾، يقول جل ثناؤه: وما تغني الحجج والعبر والرسل المنذرة عبادة الله عقابه، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى لهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، لا

يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدّقون به. ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾؟

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، محذِّرًا مشركي قومه من حلول عاجل نقمه بساحتهم نحوَ الذي حلَّ بنظرائهم من قبلهم من سائر الأمم الخالية من قبلهم، السالكة في تكذيب رسل الله وجحود توحيد ربِّهم سبيلَهم: فهل ينتظر، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك المكذِّبون بما جئتهم به من عند الله، إلا يومًا يعاينون فيه من عذاب الله مثل أيام أسلافهم الذي كانوا على مثل الذي هم عليه من الشرك والتكذيب، الذين مضوا قبلهم فخَلَوْا من قوم نوح وعاد وثمود؟ قل لهم، يا محمد، إن كانوا ذلك ينتظرون: فانتظروا عقابَ الله إياكم، ونزول سخطه بكم، إني من المنتظرين هلاككم وبوارَكم بالعقوبة التي تحلُّ بكم من الله.

ويقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك: انتظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلكم من الأمم السالفة الذين هلكوا بعذاب الله، فإن ذلك إذا جاء لم يهلك به سواهم، ومن كان على مثل الذي هم عليه من تكذيبك، ثم ننجّي هناك رسولَنا محمدًا ﷺ ومن آمن به وصدّقه واتبعه على دينه، كما فعلنا قبل ذلك برُسلنا الذين أهلكنا أممهم، فأنجيناهم ومن آمن به معهم من عذابنا حين حقّ على أممهم، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾، يقول: كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناها والمؤمنين معها وأهلكنا أممها، كذلك نفعل بك، يا محمد، وبالمؤمنين، فننجيك وننجي المؤمنين بك، حقًّا علينا غير شك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ أي: وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي حقًّا: أوجبه تعالى على نفسه الكريمة: كقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢] كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي**

سبقت غضبي».

❁ ❁ ❁

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ
بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ
وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

[يونس: ١٠٤-١٠٩]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ - ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ - ﴿حَنِيفًا﴾ - ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ - ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - ﴿يَمْسَسْكَ﴾ - ﴿بِضُرٍّ﴾ - ﴿ٱلْحَقُّ﴾ - ﴿بِوَكِيلٍ﴾ - ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾	يميتكم عند استيفاءكم الأجل. يميتكم عند حلول آجالكم.
﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾	ابتغي بعملك وجه الله، وليكن عملك وفق شريعة الله.
﴿حَنِيفًا﴾	مائلًا عن الشرك إلى التوحيد.
﴿وَلَا تَدْعُ﴾	ولا تعبد – ولا تسأل.
﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	المشركين.
﴿يَمْسَسْكَ﴾	يصبك.
﴿بِضُرٍّ﴾	مرض – قلة مال – ابتلاء بمكروه.
﴿ٱلْحَقُّ﴾	القرآن – الرسول عليه الصلاة والسلام.
﴿بِوَكِيلٍ﴾	بموكل بهدايتهكم وهداية التوفيق.
﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾	يقضي الله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين يا أيها الناس، يا أهل الشرك، إن كنتم في شكٍّ من ديني الذي أنا عليه، وهو عبادتي ربي ﷻ وعدم الإشراك به فلا ينبغي أن تشكو فيه، ولا تطمعوا في رجوعي عنه فإنني لا أعبد أصنامكم وأوثانكم التي تدعونها من دون الله، والتي لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها شيئًا فضلًا عن كونها لا تملك شيئًا لغيرها، وسأستمر في عبادة ربي ﷻ موحدًا غير مشرك، سأستمر في عبادة الله الذي يحيي ويميت، ويتوفاكم عند انقضاء آجالكم، وأمرني ربي أن أكون من أهل الإيمان به وبأنه واحد لا شريك له وبالتصديق بكل ما قاله ربي.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك الذين عجبوا أن أوحيت إليك: إن كنتم في شك، أيها الناس، من ديني الذي أدعوكم إليه، فلم تعلموا أنه حقّ من عند الله: فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئًا، فتشكُّوا في صحته.

وهذا تعريض ولحنٌ من الكلام لطيفٌ.

وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شك من ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئًا ولا تضر ولا تنفع. فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، لأني أعبد الله

الذي يقبض الخلق فيميتهم إذ شاء، وينفعهم ويضرُّهم إن شاء. وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة. وأما عبادة الأوثان فينكرها كل ذي لبٍّ وعقل صحيح.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، يقول: ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند آجالكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، يقول: وهو الذي أمرني أن أكون من المصدّقين بما جاءني من عنده.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: قل: يا أيها الناس، إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقا، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

ج: هذا ـ والله أعلم ـ: مفاده أن الله ﷻ أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقيم وجهه للدين حنيفًا، وأن يعمل ويخلص في عمله لله، ويعبد الله ويجتهد مخلصًا في ذلك لله موحدًا له مائلًا عن الشرك إلي التوحيد، ونهى أن يكون من المشركين فقال الله له ولا تكونن من المشركين الذين يعبدون مع الله آلهة أخرى.

وكذا نهى رسول الله ﷺ عن دعاء أحدٍ سوى الله والدعاء هنا يتضمن العبادة والسؤال فلا يعبد مع الله غيره، ولا يدعو من دون الله سواه، فإنه إن دعا أحدًا مع الله فلن ينفعه هذا المدعو من دون الله ولن يضره كذلك بشيء، وفضلًا عن ذلك فإنه بدعاء غير الله وبعبادة غير الله سيدخل في عداد الظالمين المركين الكافرين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾، و﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ ﴾ و«أن» الثانية عطفٌ على «أن» الأولى.

ويعني بقوله: ﴿أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾، أقم نفسك على دين الإسلام، ﴿حَنِيفٗا﴾ مستقيمًا عليه، غير معوَجّ عنه إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، ولا عبادة وثن ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥﴾، يقول: ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهةَ والأندادَ، فتكون من الهالكين.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾.

يقول تعالى ذكره: ولا تدع، يا محمد، من دون معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام. يقول: لا تعبدها راجيا نفعها أو خائفًا ضرَّها، فإنها لا تنفع ولا تضر، «فإن فعلت»، ذلك، فدعوتها من دون الله، ﴿فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾، يقول: من المشركين بالله، الظالمي أنفُسِهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وقوله: ﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي: أخلص

العبادة لله وحده حنيفا، أي: منحرفا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

الذي يكشف الضر ويجيب المضطر هو الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

ج: هذا ـ والله أعلم ـ: إخبار وتذكير في نفس الوقت والمعنى، وإن يصبك الله ﷻ بضرٍّ، بأي نوع من أنواع الضرِّ كان، فلن يستطيع أحد أن يكشفه عنك سواه سبحانه وتعالى هو الذي يكشفه عنك سواه سبحانه وتعالى هو الذي يكشفه عنك فلم تلجأ إلى عبادة غيره وإلى سؤال أحدٍ سواه لكشف الضرِّ عنك، وكذا إن يردك الله بخيرٍ فلن يستطيع أحدٌ أن يرد هذا الخير عنك، ولن يستطيع أن يمنع هذا الفضل منك، فربك ﷻ الذي يصيب بالخير وبالضر من يشاء من عباده، وهو الغفور لذنوب عباده فإنهم إذا استغفروه غفر الله، وإذا تابوا إليه تاب عليهم الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، ورحمته في الآخرة خاصة بأهل الإيمان. قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن يصبك الله، يا محمد، بشدة أو بلاء، فلا كاشف لذلك إلا ربّك الذي أصابك به، دون ما يعبده هؤلاء المشركون من الآلهة والأنداد ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، يقول: وإن يردك ربك برخاء أو نعمة وعافية وسرور ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، يقول: فلا يقدر أحدٌ إن يحول بينك وبين ذلك، ولا

يردّك عنه ولا يحرمكه؛ لأنه الذي بيده السّرّاء والضرّاء، دون الآلهة والأوثان، ودون ما سواه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾، يقول: يصيب ربك، يا محمد بالرخاء والبلاء والسراء والضراء، من يشاء ويريد ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾، لذنوب من تاب وأناب من عباده من كفره وشركه إلى الإيمان به وطاعته ﴿ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ بمن آمن به منهم وأطاعه، أن يعذبه بعد التوبة والإنابة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أيّ ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ لأن الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا، لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله، ولهذا قال: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه، كبارها، وصغارها.

﴿ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغنى عن إحسانه، طرفة عين، فإذا عرف العبد

بالدليل القاطع، أن الله، هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدًا من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: قل يا رسول الله: يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم وهو القرآن الذي أنزله الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ، فهو الحق، وقد جاء من عند الله، لا من عند أحدٍ سواه، فمن اهتدى بما في هذا القرآن واتبع ما فيه فإنما يهتدي لنفسه، ثواب اهتدائه عائدٌ عليه كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني**»، وكذا من ضل فإثم ضلاله على نفسه، ولن يضل الله شيئًا، وفي الحديث القدسي: «**لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**».

هذا، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: ولست موكلًا بتوفيقكم إنما التوفيق من الله، وبالله، ولست بمجبركم على الهداية، ولا بمسلطٍ على قلوبكم كي تؤمنوا. ثم يأمر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بالصبر واتباع ما يوحى إليه حتى يقضى الله نبيه وبين أعدائه، وذلك قد يكون في الدنيا، وقد يؤجل هذا القضاء للآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ

وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد: ٤٠] ويُذكِّر الله سبحانه بأنه جل وعلا خير الحاكمين خيرٌ من أعطى كل ذي حق حقه، وخير من انتصر للمظلوم من ظالمه، وخير من قضى بين العباد وحكم

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾، يا محمد، للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾، يعني: كتاب الله، فيه بيان كل ما بالناس إليه حاجة من أمر دينهم، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾، يقول: فمن استقام فسلك سبيل الحق، وصدّق بما جاء من عند الله من البيان، ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾، يقول: فإنما يستقيم على الهدى، ويسلك قصد السبيل لنفسه، فإياها يبغي الخيرَ بفعله ذلك لا غيرها، ﴿وَمَن ضَلَّ ﴾، يقول: ومن اعوج عن الحق الذي أتاه من عند الله، وخالف دينَه، وما بعث به محمدًا والكتابَ الذي أنزله عليه، ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾، يقول: فإن ضلاله ذلك إنما يجني به على نفسه لا على غيرها، لأنه لا يؤخذ بذلك غيرها، ولا يورد بضلاله ذلك المهالكَ سوى نفسه. ولا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾، يقول: وما أنا عليكم بمسلَّط على تقويمكم، إنما أمركم إلى الله، وهو الذي يقوّم من شاء منكم، وإنما أنا رسول مبلّغ أبلغكم ما أرسلتُ به إليكم.

ويقول تعالى ذكره: واتبع، يا محمد وحي الله الذي يوحيه إليك، وتنزيله الذي ينزله عليك، فاعمل به، واصبر على ما أصابك في الله من مشركي قومك من الأذى والمكاره، وعلى ما نالك منهم، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره بفعلٍ فاصلٍ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾، يقول: وهو خير القاضين وأعدل

الفاصلين. فحكم جل ثناؤه بينه وبينهم يوم بَدْرٍ،، وقتلهم بالسيف، وأمر نبيه ﷺ فيمن بقي منهم أن يسلك بهم سبيل من أهلك منهم، أو يتوبوا ويُنيبوا إلى طاعته.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.

❁ ❁ ❁

س: هل قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ منسوخ؟

ج: قال ذلك بعض العلماء إنها منسوخة بآية السيف والظاهر عدم النسخ.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي: في منعكم من اعتقاد الباطل، والمعنى: لست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك. قال ابن عباس: وهذه منسوخة بآية القتال، والتي بعدها أيضًا، وهي قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ لأن الله تعالى حكم بقتل المشركين، والجزية على أهل الكتاب، والصحيح: أنه ليس هاهنا نسخ. أما الآية الأولى، فقد ذكرنا

الكلام عليها في نظيرتها في (الأنعام: ١٠٧). وأما الثانية، فقد ذكرنا نظيرتها في سورة (البقرة: ١٠٩) قوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

ونقل الطبري بسندٍ صحيح عن ابن زيد قال: نسختها آية السيف.

وكذا قال غير واحدٍ من العلماء.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة هود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ
إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ
كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ
لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾.

[هود: ١-٥].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أُحْكِمَتْ - فُصِّلَتْ - لَّدُنْ - يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا - أَجَلٍ مُّسَمًّى - كُلَّ ذِى فَضْلٍ - يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ - لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ - يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أُحْكِمَتْ﴾	بيِّنت الأوامر والنواهي والحلال والحرام. أُتقنت – حفظت من الباطل.
﴿فُصِّلَتْ﴾	بيّنت الثواب والعقاب. بيِّنت الحلال والحرام كذلك – أُنزلت شيئًا بعد شيء.
﴿لَّدُنْ﴾	عند.
﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾	يرزقكم رزقًا حسنًا ويعافيكم ويحفظكم.
﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾	وقت محدد (انتهاء آجالكم).
﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾	كل محسن وكل عامل للصالحات.
﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾	يخفي أحدهم ليختفي عن رسول الله. ينحني ويستتر كيلا يراه الله (بظنه وزعمه) يضمرون ما في أنفسهم.
﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾	كي لا يراهم.
﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾	يتعظون بثيابهم.

❁ ❁ ❁

س: ما مدى صحة هذا الحديث الذي فيه أن أبا بكر ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ ما شيبك؟ قال: شيبتني هود وأخواتها، وفي رواية: «شيبتني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»؟

ج: هذا الحديث[1] رواه عددٌ من أهل العلم من طرق عن النبي ﷺ، وكل طرقه ضعيفة، ولا يخلو طريق منها من مقال.

وإن كان بعض أهل العلم قد صححها بمجموع طرقها إلا أنني لا أنشط لتصحيحها فأراها ضعيفة والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالإحكام والتفصيل في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ بالأوامر والنواهي، وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ ثم بُيِّنت بالثواب والعقاب.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ أُتقنت وأُصلحت فلا يتسرب إليها خلل ولا يعتريها نقص ولا يأتيها الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ ببيان الحلال والحرام، والثواب والعقاب، ومُيِّز بعضها عن بعض.

الثالث: أن معنى قوله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ جُمعت وأُجملت (معانيها) ثم

---

(١) وانظر بعض مصادره في الترمذي (٣٢٩٣)، وأبي يعلى (١٠٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٦)، ومعجم الطبراني (١٠٠٩٢) وغيرها.

فصِّلت بيِّنت ووضحت بعد إجمالٍ.

الرابع: أن ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ لم ينسخها كتاب آخر، (إنما آيات القرآن ينسخ بعضها بعضًا).

وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: نزلت شيئًا بعد شيء.

الخامس: أن قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ المراد به أُتقنت وحُسِّنت ففيها إعجاز النظم والبلاغة ﴿فُصِّلَتۡ﴾ بينت. وهذا راجع إلى بعض ما تقدم.

وهنالك أقوالٌ أُخر في كونها فصِّلت:

منها: فصلت بجميع ما يُحتاج إليه من الدلالة على التوحيد، وتثبيت نبوة الأنبياء وإقامة الشرائع. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

دفع إشكالٍ وجمعٌ بين آيات

س: قال تعالى في شأن آيات الكتاب العزيز: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فدلَّ ذلك على أنها كلها محكمة، وقال في آية أُخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: ٧] فأفادت هذه الآية أن بعض الآيات محكمات فما وجه الجمع؟

ج: الجمع – والله تعالى أعلم – أن الإحكام في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ غير الإحكام في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾.

فالإحكام الأول: المراد به – على قولٍ من الأقوال – حفظ القرآن من الخلل وحفظه من الشيطان وإتقانه وجزالة ألفاظه وحسن عباراته.

أما الإحكام الثاني، فالمراد به: وضوح معنى بعض الآيات حتى إن العالم وغير العالم يوف معناها، والمتشابهات يعلم معناها – بإذن الله – أهل العلم. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

ج: أما قوله: ﴿الٓرۚ﴾ فأحرف مقطعة بُدئت بها بعض سور الكتاب العزيز، الله أعلم بمعناها، والظاهر – كما أسلفت من قبل – أنها سيقت للتحدي والإعجاز، ووجه ذلك أنها أحرف تعرفونها ولا تستطيعوا أن تأتوا منها بسورة ولا بآية، والله أعلم.

أما قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ فالمراد به القرآن، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ فقد تقدم القول فيها بما حاصله أن العلماء لهم في ذلك أقوال:

منها: أن الحلال والحرام والأمر والنهي بُيِّن فيها، ثم بُيِّن ثواب ذلك وعقابه، أي: ثواب من امتثل الأمر، وعقاب من اقترف النهي، ومنها: أجملت آياته ثم وضحت وأظهرت، ومنها: أتقنت آياته وحفظت من الخلل، وحفظت من أي نقص ثم بينت الأحكام، والحلال والحرام، والأمر والنهي، وقد تقدمت سائر المعاني في هذا.

أما قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ بتدبير الأمور والأشياء وتقديرها ﴿خَبِيرٍ ١﴾ بخلقه وبشؤونهم وبما يُصلحهم، وكان مما في هذا الكتاب العزيز الذي أحكمت آياته ثم فصلت، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، ولا تعبدوا مع إلهًا آخر ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ﴾ مخوِّف ومُذكِّر ﴿وَبَشِيرٞ ٢﴾ لمن أطاع بفسيح الجنان وإحلال رضوان الله عليه، وكان مما في هذا الكتاب العزيز كذلك الأمر بالاستغفار والتوبة ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ اطلبوا من الله أن يغفر لكم سالف ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم ارجعوا إليه بعد ابتعادكم عنه واسلكوا طريقه الموصل إلى جنته ومرضاته، ومن العلماء من قال إن قوله: ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى (و)، ثم إن الله ﷻ بيَّن ثمرة التوبة والاستغفار فقال: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: يمتعكم في دنياكم بالعافية في الأبدان والسعة في الأرزاق وهدوء البال والراحة إلى وقت انقضاء أعماركم فتعيشون آمنين مطمئنين وتحيون حياة طيبة إلى أجل مسمى إلى أن تموتوا على خير.

أمـا قولـه تعـالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: ويتفضـل ربنـا علـى أهـل الطاعـة والفضـل، يتفضـل علـيهم يـوم القيامـة بجميـل الثـواب علـى صـالح الأعمـال التـي عملوهـا في دنيـاهم ويُثيبهم عليهـا خيـر إثابـة ويجـازيهم عليهـا أحسن جزاء، هذا، وقد أعاد بعض العلماء الغير في قوله: ﴿فَضْلَهُ﴾ إلـى الله ﷻ أي أن الله يجازي من فضله الذين أحسنوا في الدنيا وكان من أهل الفضل فيها.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ أي: إن تعرضـوا عن طاعة الله وتصروا علـى الكفـر الـذي أنـتم فيـه وتنصـرفوا عـن الإيمـان فـإني أخشـى علـيكم مـن العـذاب الـذي يلحـق بكـم إن أقمـتم علـى كفـركم، وأي عذاب؟؟ إنه عذاب يوم كبير، وهو يوم القيامة، يوم طويل والعذاب فيه شديد.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ مردكم إليه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾ ومن قدرته إحياؤكم بعد إماتتكم وجمعكم ليوم القيامة.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾، يعنـي: هـذا الكتـاب الـذي أنزلـه الله علـى نبيـه محمد ﷺ، وهو القرآن.

وأما قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويلـه، فقـال بعضـهم: تأويلـه: أحكمـت آياتـه بـالأمر والنهـي، ثـم فصـلت بـالثَّواب والعقاب.

وقال آخرون: معنـى ذلـك: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ مـن الباطـل، ثـم فصـلت، فبـين منها الحلال والحرام.

وأورد بما يصح عن قتادة قولـه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، قـال: أحكمهـا

الله من الباطل، ثم فَصَّلها، بيَّنها.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ من قال: معناه: أحكم الله آياته من الدَّخَل والخَلَل والباطل، ثم فصَّلها بالأمر والنهي.

وذلك أن «إحكام الشيء» إصلاحه وإتقانه و«إحكام آيات القرآن»، إحكامها من خلل يكون فيها، أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قِبَله. وأما «تفصيل آياته» فإنه تمييز بعضها من بعض، بالبيان عما فيها من حلال وحرام، وأمرٍ ونهي.

وكان بعض المفسرين يفسر قوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾، بمعنى: فُسِّرت، وذلك نحو الذي قلنا فيه من القول.

وأما قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، فإن معناه: ﴿حَكِيمٍ﴾ بتدبير الأشياء وتقديرها، خبير بما تؤول إليه عواقبُها.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم فُصّلت بأن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، وتخلعوا الآلهة والأنداد. ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للناس ﴿إِنَّنِى لَكُم﴾، من عند الله ﴿نَذِيرٌ﴾ ينذركم عقابه على معاصيه وعبادة الأصنام ﴿وَبَشِيرٌ﴾، يبشركم بالجزيل من الثواب على طاعته وإخلاص العبادة والألُوهَةِ له.

يقول تعالى ذكره: ثم فصلت آياته، بأن لا تعبدوا إلا الله، وبأن استغفروا ربكم. ويعني بقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، وأن اعملوا أيها الناس من الأعمال ما يرضي ربكم عنكم، فيستر عليكم عظيمَ ذنوبكم التي ركبتموها بعبادتكم

الأوثان والأصنام، وإشراككم الآلهة والأنداد في عبادته.

وقوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، يقول: ثم ارجعوا إلى ربكم بإخلاص العبادة له دون ما سواه من سائر ما تعبدون من دونه بعد خلعكم الأنداد وبراءتكم من عبادتها.

ولذلك قيل: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، ولم يقل: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، لأن «التوبة» معناها الرجوع إلى العمل بطاعة الله، والاستغفار: استغفار من الشرك الذي كانوا عليه مقيمين، والعملُ لله لا يكون عملا له إلا بعد ترك الشرك به، فأما الشرك فإنّ عمله لا يكون إلا للشيطان، فلذلك أمرهم تعالى ذكره بالتوبة إليه بعد الاستغفار من الشرك، لأن أهل الشرك كانوا يرون أنهم يُطِيعون الله بكثير من أفعالهم، وهم على شركهم مقيمون.

وقوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، يقول تعالى ذكره للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، فأنتم في ذلك المتاع، فخذوا بطاعة الله ومعرفة حقّه، فإن الله منعم يحبّ الشاكرين، وأهل الشكر في مزيدٍ من الله، وذلك قضاؤه الذي قضى.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، يعني الموت.

وأما قوله: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾، فإنه يعني: يثيب كل من تفضَّل بفضل ماله أو قوته أو معروفه على غيره محتسبًا بذلك، مريدًا به وجه الله، أجزلَ ثوابه وفضله في الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾، يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتُهم إليه، من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله والتوبة إليه، فأدبروا مُوَلِّين عن ذلك، ﴿فَإِنِّىٓ﴾، أيها القوم، ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، شأنُه عظيمٍ هَوْلُه، وذلك يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون.

وقال جل ثناؤه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾، ولكنه مما قد تقدّمه قولٌ، والعرب إذا قدَّمت قبل الكلام قولا خاطبت، ثم عادت إلى الخبر عن الغائب، ثم رجعت بعدُ إلى الخطاب، وقد بينا ذلك في غير موضع، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، أيها القوم، مآبكم ومصيركم، فاحذروا عقابه إن توليتم عما أدعوكم إليه من التوبة إليه من عبادتكم الآلهة والأصنام، فإنه مخلدكم نارَ جهنم إن هلكتم على شرككم قبل التوبة إليه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، يقول: وهو على إحيائكم بعد مماتكم، وعقابكم على إشراككم به الأوثانَ وغير ذلك مما أراد بكم وبغيركم قادرٌ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ما روي عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور.

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، قال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «**يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم، ألستم مصدقي؟**» فقالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[(١)].

وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ أي: في الدنيا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧]، وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «**وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أُجِرْتَ بها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك**»[(٢)].

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ هذا تهديد شديد لمن

---

(١) البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) بنحوه.

(٢) البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ أي: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤﴾ أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

وأحسن ما قيل في معنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قول قتادة ؛ أي جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل. والإحكام منع القول من الفساد، أي نظمت نظما محكما لا يلحقها تناقض ولا خلل. وقال ابن عباس: أي لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل. وعلى هذا فالمعنى ؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخا غير منسوخ. وقد تقدم القول فيه. وقد يقع اسم الجنس على النوع ؛ فيقال: أكلت طعام زيد ؛ أي بعض طعامه. وقال الحسن وأبو العالية: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالأمر والنهي. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام. مجاهد: أحكمت جملة، ثم بينت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها. وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت في التنزيل. وقيل: «فصلت» أنزلت نجما نجما لتتدبر.

وقال:

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ عطف على الأول. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال الفراء: «ثم» هنا بمعنى الواو ؛ أي وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار. وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم.

ثم قال أيضًا:

﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع ثم سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: يمتعكم يعمركم؛ وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أمتع الله بك ومتع. وقال سهل بن عبدالله: المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق. وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه وأمر مخوف، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكربها؛ والأول أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢] وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

الاستغفار سبب لسعة الأرزاق

س: الاستغفار والعمل الصالح من أسباب سعة الرزق دلِّل على ذلك.

ج: أورد الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الأدلة على ذلك فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم ...﴾:

هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى. لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه.

والظاهر أن المراد بالمتاع الحسن. سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأن المراد بالأجل المسمى الموت، ويدل لذلك قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] وقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] الآية. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] إلى غير ذلك من الآيات.

❋ ❋ ❋

س: ما سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾؟

ج: أخرج البخاري من طريق مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ﴾ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْهَا فَقَالَ: أُنَاسٌ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) البخاري (٤٦٨١، ٤٦٨٢).

علم الله ﷻ بأحوال بني آدم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

ج: أما قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ﴾ فمن العلماء من قال إنها في المنافقين وضعفاء الإيمان، ومنهم من قال: إنها في شأن المؤمنين عمومًا.

أما قوله: ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ فلأهل العلم فيها أقوال:

أحدها: يغطون وجوههم ويثنون ظهورهم.

الثاني: أنهم يضمرون ما في صدورهم ويخفونه.

الثالث: أنهم يعرضون وينصرفون وينحرفون عن الحق.

الرابع: أنهم كانوا يفعلون ذلك عند مناجاة بعضهم لبعض يثنون صدورهم ليحدث بعضهم بعضًا.

أما قوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ ففيها وجهان للعلماء:

أحدهما: ليستخفوا من الله ﷻ بزعمهم.

الثاني: ليستخفوا من رسول الله ﷺ.

أما عن المعنى الإجمالي للآية الكريمة، ففيه من الوجوه ما يلي:

الأول: إذا نزّلنا الآية الكريمة على أهل النفاق، فالمعنى: ألا فاعلموا إن أهل النفاق كان بعضهم إذا مرَّ برسول الله ﷺ غطَّى وجهه وثنى ظهره حتى لا يرى النبي ﷺ ولا يراه النبي ﷺ، وقد أخرج الطبري بإسنادٍ صحيح عن عبد الله بن شداد في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ قال: كان أحدهم إذا مرّ برسول الله ﷺ قال بثوبه على وجهه، وثنى ظهره.

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يعلم أحوالهم وإن تغطوا بثيابهم، وكذا فإنه

يعلم ما يسرون وما يعلنون.

الوجه الثاني: أن أهل النفاق كانوا يضمرون شرورًا في أنفسهم ويخفون حقدهم وكراهيتهم لرسول الله ﷺ، وكذا يخفون شكوكهم وارتيابهم في صدورهم ولا يفضحون بذلك، فقال تعالى: ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يخفون ما في أنفسهم ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

الوجه الثالث: قول من قال إن هذا في أهل الإيمان، وحاصله أن أهل الإيمان بلغ بهم الحياء من الله وشدة المراقبة له أنهم كانوا يستحيون أن يفضوا بفروجهم حياءً من الله، فكان أحدهم يبالغ في الاستتار عند الجماع أو عند قضاء الحاجة مبالغةً قد تخرج عن حد الاعتياد، فخفف عنهم الأمر، وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥﴾ بالأمور الملاصقة للصدور والمخفية في الصدور والله أعلم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

اختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، فقرأته عامة الأمصار: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، على تقدير «يفعلون» من «ثنيت»، و«الصدور» منصوبة.

واختلف قارئو ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضهم: ذلك كان من فعل بعض المنافقين، كان إذا مرّ برسول الله ﷺ غطَّى وجهه وثَنَى ظهره.

وقال آخرون: بل كانوا يفعلون ذلك جهلا منهم بالله وظنًّا أن الله يخفى عليه ما تضمره صدورهم إذا فعلوا ذلك.

وقال آخرون: إنما كانوا يفعلون ذلك لئلا يسمعوا كتاب الله.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ الآية، قال: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله، قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم، إذا حنى صدره واستغشى بثوبه، وأضمر همَّه في نفسه، فإن الله لا يخفى ذلك عليه.

وقال آخرون: إنما هذا إخبارٌ من الله نبيَّه ﷺ عن المنافقين الذين كانوا يضمرون له العداوة والبغضاء، ويبدون له المحبة والمودة، أنهم معه وعلى دينه. يقول جل ثناؤه: ألا إنهم يطوون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله، ثم أخبر جل ثناؤه أنه لا يخفى عليه سرائرهم وعلانيتهم.

وقال آخرون: كانوا يفعلون ذلك إذا ناجى بعضهم بعضًا.

فأولى التأويلات بتأويل ذلك، تأويلُ من قال: إنهم كانوا يفعلون ذلك جهلا منهم بالله أنه يخفى عليه ما تضمره نفوسهم، أو تناجوه بينهم.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالآية، لأن قوله: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾، بمعنى: ليستخفوا من الله، وأن الهاء في قوله، ﴿مِنۡهُ﴾، عائدة على اسم الله، ولم يجر لمحمّدٍ ذكر قبلُ، فيجعل من ذكره ﷺ وهي في سياق الخبر عن الله. فإذا كان ذلك كذلك، كانت بأن تكون من ذكر الله أولى. وإذا صحّ أن ذلك كذلك، كان معلومًا أنهم لم يحدِّثوا أنفسهم أنهم يستخفون من الله، إلا بجهلهم به. فأخبرهم جل ثناؤه أنه لا يخفى عليه سرُّ أمورهم وعلانيتها على أيّ حالٍ كانوا، تغشَّوا بالثياب، أو أظهروا بالبَرَاز، فقال: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾، يعني: يتغشَّون ثيابهم، يتغطونها ويلبسون.

يقال منه: «استغشى ثوبه وتغشّاه»، قال الله: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: ٧]،

وقالت الخنساء:

أرْعَى النُّجُومَ وَمَا كُلِّفْتُ رِعْيَتِهَا ... وَتَارَةً أتَغَشَّى فضْلَ أطْمَارِي

﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾، يقول جل ثناؤه: يعلم ما يسرُّ هؤلاء الجهلة بربهم، الظانُّون أن الله يخفى عليه ما أضمرته صدورهم إذا حنوها على ما فيها، وثنوها، وما تناجوه بينهم فأخفوه ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾، سواء عنده سرائرُ عباده وعلانيتهم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾، يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بكل ما أخفته صدور خلقه، من إيمان وكفر، وحق وباطل، وخير وشر، وما تستجنُّه مما لم تُجنُّه بعدُ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون في صُدُوركم الشكّ في شيء من توحيده أو أمره أو نهيه، أو فيما ألزمكم الإيمان به والتصديق، فتهلكوا باعتقادكم ذلك.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الأضواء):

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة. أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما يعلن وما يسرن والآيات المبينة لهذا كثيرة جداًن كقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦] وقوله جل وعلا: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١] الآية. وزلا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية

بهذا المعنى.

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ
فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ
وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن
قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا
سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا
يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ
ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ
مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

[هود: ٦-١٢].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ دَآبَّةٍ – مُسْتَقَرَّهَا – وَمُسْتَوْدَعَهَا – كِتَٰبٍ مُّبِينٍ – لِيَبْلُوَكُمْ – أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ – مَا يَحْبِسُهُۥٓ – مَصْرُوفًا – وَحَاقَ بِهِم – رَحْمَةً – نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ – لَيَـُٔوسٌ – كَفُورٌ – نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ – ٱلسَّيِّـَٔاتُ – فَخُورٌ – وَكِيلٌ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ دَآبَّةٍ ﴾	كل ما يدب على الأرض.
﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾	المكان الذي تستقر فيه (قيل: الأرحام، وقيل: المبيت ليلًا أو نهارًا، وقيل: القبر).
﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾	المكان الذي تصير إليه، قيل: القبر، وقيل: الموت، وقيل: الجنة والنار، وقيل غير ذلك.
﴿ كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾	كتاب موضح مظهر (اللوح المحفوظ).
﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾	ليختبركم.
﴿ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾	أجل مسمى، وزمن مُحدد، ووقت معلوم.
﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾	ما يؤخره – ما يمنعه (ما يمنع العذاب).
﴿ مَصْرُوفًا ﴾	منصرفًا – مدفوعًا.
﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾	نزل بهم – حلَّ بهم.
﴿ رَحْمَةً ﴾	نعمة من نعم الدنيا.
﴿ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ ﴾	سلبناها منه.

﴿لَيَـُٔوسٌ﴾	يأس شديد اليأس من رحمة الله.
﴿كَفُورٌ﴾	جحود لنعم الله السابقة
﴿نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ﴾	نعمة من نعم الدنيا، غنًى بعد فقر، عافية بعد سقم، سراء بعد ضراء....
﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾	السوء والمكروه، ما يسيء الشخص من فقر ومرض وذل وهزيمة وغير ذلك، فتفتخر على غيره
﴿فَخُورٌ﴾	مفتخر على غيره.
﴿وَكِيلٌ﴾	حفيظ – شاهد

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –:

وما هنالك من دابة في الأرض إلا ومن الله ﷻ رزقها فكل رزق يُساق إليها إنما هو من الله سبحانه، وهو ﷻ يعلم مستقرها الذي تستقر منه، ومستودعها الذي تصير إليه، كل ذلك في اللوح المحفوظ، ثم إن من العلماء من قال إن قوله: ﴿وَمَا مِن﴾ أي: من زائدة، والمعنى، وما دابة...

وقيل في المستقر والمستودع جملة أقوال:

أحدها: أن المستقر الرحم والمستودع الأرض.

الثاني: أن المستقر الذي تستقر فيه عند نومها ليلًا أو نهارًا والمستودع هو القبر.

الثالث: أن المستقر ما تكون فيه في دنياها والمستودع القبر، وقيل: المستقر القبر والمستودع الجنة والنار.

والرابع: أن المستقر الدنيا والمستودع الجنة أو النار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾، وما تدبّ دابّة في الأرض.

و«الدابّة» «الفاعلة»، من دبّ فهو يدبّ، وهو دابٌّ، وهي دابّة.

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾، يقول: إلا ومن الله رزقها الذي يصل إليها، هو به متكفل، وذلك قوتها وغذاؤها وما به عَيْشُها.

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾، حيث تستقر فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه

ليلا أو نهارًا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الموضع الذي يودعها، إما بموتها، فيه، أو دفنها.

وقال آخرون: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾، في الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، في الصلب.

وقال آخرون: «المستقر» في الرحم، و«المستودع»، حيث تموت.

وقال آخرون: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾، أيام حياتها، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت فيه.

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه فيه، لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ما رزقت الدواب من رزق فمنه، فأولى أن يتبع ذلك أن يعلم مثواها ومستقرها دون الخبر عن علمه بما تضمنته الأصلاب والأرحام.

ويعني بقوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ﴾، مبين، عدد كل دابة، ومبلغ أرزاقها، وقدر قرارها في مستقرها، ومدة لبثها في مستودعها. كل ذلك في كتاب عند الله مثبت مكتوب، ﴿مُّبِينٍ﴾، يبين لمن قرأه أن ذلك مثبت مكتوب قبل أن يخلقها ويوجدها. وهذا إخبارٌ من الله جل ثناؤه الذين كانوا يثنون صدورهم ليستخفوا منه، أنه قد علم الأشياء كلها، وأثبتها في كتاب عنده قبل أن يخلقها ويوجدها، يقول لهم تعالى ذكره: فمن كان قد علم ذلك منهم قبل أن يوجدهم، فكيف يخفى عليه ما تنطوي عليه نفوسهم إذا ثنوا به صدورهم، واستغشوا عليه ثيابهم؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وأنه ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها.

ثم قال:

وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام:٥٩].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ أي من الأرض حيث تأوي إليه. ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ أي الموضع الذي تموت فيه فتدفن؛ قاله مقسم عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا. وقال الربيع بن أنس: ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾ أيام حياتها. ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ حيث تموت وحيث تبعث. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾ في الرحم «ومستودعها» في الصلب. وقيل: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ في الجنة أو النار. «ومستودعها» في القبر؛ يدل عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة وأهل النار: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ [الفرقان: ٧٦] ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٦]. ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي، أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها على الله.

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ ﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

﴿كُلّٞ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها

رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علما بذواتها، وصفاتها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: والله هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكذا خلق ما فيهن في هذه الأيام الستة أيضًا، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ أي: قبل خلق السموات والأرض ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، وقد قال ذلك النبي ﷺ أيضًا – كما سيأتي في الأحاديث بذلك.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولم يخلقهن عبثًا ولا باطلًا، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ إنما خلقها الله ﷻ لحكمة يعلمها الله.

ومنها: ابتلاء العباد أيهم أحسنُ عملًا.

وحسن العمل يتأتى بالاتباع للكتاب والسنة وبإخلاص النية لله ﷻ، ولئن قلت يا رسول الله لأهل الشرك هؤلاء: إنكم مبعوثون من بعد الموت، وذلك يوم القيامة، للحساب والثواب والعقاب، ليقولن الذين كفروا ما هذا إلا سحرٌ مظهرٌ لمن تأمله أنه سحرٌ، وقيل: المعنى ما هذا إلا سحر واضحٌ وظاهر.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الله الذي إليه مرجعكم أيها الناس جميعًا، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾، يقول: أفيعجز من خلق ذلك من غير شيء أن يعيدكم أحياءً بعد أن يميتكم؟

وقيل: إن الله تعالى ذكره خلق السموات والأرض وما فيهن في الأيام الستة، فاجْتُزِئَ في هذا الموضع بذكر خلق السموات والأرض، من ذكر خلق ما فيهنّ.

وقوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، يقول: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن.

وأورد حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الصدد وسيأتي إن شاء الله.

ثم قال الطبري:

وقوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، يقول تعالى ذكره: وهو الذي خلق السموات والأرض أيها الناس، وخلقكم في ستة أيام، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾، يقول: ليختبركم، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، يقول: أيكم أحسن له طاعة.

وقوله: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولئن قلت لهؤلاء المشركين من قومك: إنكم مبعوثون أحياء من بعد مماتكم! فتلوت عليهم بذلك تنزيلي ووحيي ﴿ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، أي: ما هذا الذي تتلوه علينا مما تقول، إلا سحر لسامعه، مبينٌ لسامعه عن حقيقته أنه سحر.

وهذا على تأويل من قرأ ذلك: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ**:**

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في

ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شَدَّاد، عن صفوان بن مُحْرِزْ، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقبلوا البشرى يا بني تميم**». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. قال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن**». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «**كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء**»[1]. قال: فأتاني آت فقال: يا عمران، انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي.

وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**» - وفي رواية: «**غيره**»[2] -وفي رواية: «**معه**»[3] -**وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء، ثم خلق السموات والأرض**».

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**».

وقال البخاري في تفسير هذه الآية[4]: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزِّنَادِ، عن الأعرج، عن أبي هريرة، ؓ؛ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، والبخاري بنحوه (٣١٩٠)، والبخاري (٧٤١٨).

(٢) البخاري (٣١٩١).

(٣) لم أقف عليها في البخاري.

(٤) البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

«**قال الله ﷻ: أنفِق أُنفقْ عليك**». وقال: «**يد الله ملأى لا يَغيضها نفقة، سحَّاءَ الليلَ والنهار**» وقال: «**أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**».

وقوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي: ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل: أكثر عملا بل ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله ﷻ، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا

كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ ﴾ [لقمان:٢٨] وقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾ أي: يقولون كفرا وعنادا ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

❁ ❁ ❁

بعض معاني كلمة الأمة

س: اذكر بعض المعاني التي تطلق عليها كلمة الأمة.

ج: من هذه المعاني ما يلي:

الجماعة من الناس: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧].

البرهة من الزمن (المدة الزمنية): ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى أجلٍ محددٍ مُسمى.

الإمام المقتدى به: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

الدين والملة: ومنه قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وأيضًا على قول لبعض المفسرين، قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

قيل في تفسيرها: إن هذه ملتكم ملةً واحدة.

هذا، وقد تطلق الأمة على جماعة الناس الذين أرسل إليهم رسولٌ مؤمنهم وكافرهم فيطلق عليها حينئذٍ أمة الدعوة كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، كما قال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[1].

أما المستجيبون للرسول فيقال عنهم أمة الإجابة كما في قوله تعالى:

---

(١) مسلم (٢٤٠) (١٥٣).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والمراد الذين اتبعوا رسول الله ﷺ مؤمنين.

هذا، وللأمة معان أخر أشار إليها القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أهل العلم فراجعها إن شئت.

جُلُّها يرجع إلى ما قد تقدم والله أعلم.

❁ ❁ ❁

استعجال الكفار نزول العذاب عليهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين المكذبين المعاندين العذاب إلى وقت محددٍ حددناه وأجل مسمى سميناه ليقولن على سبيل التكذيب والاستنكار والاستهزاء ﴿مَا يَحْبِسُهُ ۗ﴾، ما الذي يؤخر هذا العذاب ائت به إن كنت من الصادقين، فقال تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ أي: العذاب، ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ لن يستطيع أحدٌ أن يصرفه عنهم ولا أن يحوله عنهم ولا أن يمنعهم من حلوله بهم، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١-٢]، أما قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم وحلَّ بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جزاء استهزائهم وتكذيبهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين من قومك، يا محمد، العذابَ فلم نعجله لهم، وأنسأنا في آجالهم ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، ووقت محدود وسنين معلومة.

وأصل «الأمة» ما قد بينا فيما مضى من كتابنا هذا، أنها الجماعة من الناس تجتمع على مذهب ودين، ثم تستعمل في معان كثيرة ترجع إلى معنى الأصل الذي ذكرت. وإنما قيل للسنين «المعدودة» والحين، في هذا الموضع ونحوه: أمة، لأن فيها تكون الأمة.

وإنما معنى الكلام: ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى مجيء أمة وانقراض

أخرى قبلها.

وقوله: ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾، يقول: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المشركون ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾؟ أي شيء يمنعه من تعجيل العذاب الذي يتوعَّدنا به؟ تكذيبًا منهم به، وظنًّا منهم أن ذلك إنَّما أخر عنهم لكذب المتوعّد.

وقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، يقول تعالى ذكره تحقيقًا لوعيده وتصحيحًا لخبره: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذابُ الذي يكذبون به ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، يقول: ليس يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه عنهم دافع، ولكنه يحل بهم فيهلكهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾، يقول: ونزل بهم وأصابهم الذي كانوا به يسخرون من عذاب الله. وكان استهزاؤهم به الذي ذكره الله، قيلهم قبل نزوله ﴿ما يحبسه﴾، و «هلا تأتينا» ؟

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالا ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت مقدر فتباطأوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!!

﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ العـذاب ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ فيتمكنـون مـن النظـر في أمرهم.

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي: نزل ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨ ﴾ من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

* * *

أحوال الإنسان أمام الابتلاءات

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

ج: هذا – والله تعالى أعلم-:

بيانٌ لحال الإنسان – إلا من رحم الله – وما هو عليه يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ سعة في المال والرزق والأهل والولد والصحة والعافية والأمن والأمان والنصر والظفر وغير ذلك من النعم التي ينعم الله بها على عباده في الدنيا، ثم سلبناها منه فمرض أو خسر أو مات له ميت أو دارت عليه دائرة، أو قل رزقه لأي سبب كان ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ إذا به يائسٌ من رحمة الله يظن أن لا انكشاف لها ولا زوال، وأنها محيطةٌ به وملازمة له لن تزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

ثم إن هذا الإنسان الذي سُلبت منه النعم، يجحد ما سبق من نعم الله عليه ولا يذكرها، فهذا قوله: ﴿كَفُورٌ﴾ أي: جحود للنعم السابقة، ولا يذكر أن الذي أنعم عليه هو الله، وأن الذي سلب منه تلك النعم هو الله.

وهذا الإنسان من حاله أيضًا ما بيَّنه الله إذ قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ سعة في الرزق وعافية في النفس والمال والأهل والولد، والجاه والسلطان وغير ذلك من النعم بعد الضرِ الذي أصابه ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: انصرف السوء والمكروه عني ولن يعود إلى سوء ولا مكروه أبدًا، فيفرح ويسعد ويطغى على العباد ويفخر عليهم، هذا حال الإنسان في غالب الأحوال وحال أكثر الناس

إلا من رحم الله.

لكن الذين صبروا على قضاء الله وقدره، إن كان خيرًا حمدوا الله وشركوه، وإن كان شرًّا صبروا على قضاء الله وبلائه، واتبعوا كل ذلك بصالح الأعمال الموافقة لكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، هؤلاء لهم مغفرةٌ لذنوبهم بسبب صبرهم وإيمانهم، ولهم أجرٌ كبير مُدخر لهم عند الله ﷻ، وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾. والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولئن أذقنا الإنسان منّا رخاء وسعةً في الرزق والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا وهي «الرحمة» التي ذكرها تعالى ذكره في هذا الموضع ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾، يقول: ثم سلبناه ذلك، فأصابته مصائب أجاحته فذهبت به ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾، يقول: يظل قَنِطًا من رحمة الله، آيسًا من الخير.

وقوله: «يئوس»، «فعول»، من قول القائل: «يئس فلان من كذا، فهو يئوس»، إذا كان ذلك صفة له.

وقوله: ﴿كَفُورٞ﴾، يقول: هو كفُور لمن أنعم عليه، قليل الشكر لربّه المتفضل عليه، بما كان وَهَب له من نعمته.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولئن نحن بسطنا للإنسان في دنياه، ورزقناه رخاءً في عيشه، ووسعنا عليه في رزقه، وذلك هي النّعم التي قال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ﴾ وقوله: ﴿بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾، يقول: بعد ضيق من العيش كان فيه،

وعسرة كان يعالجها ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾، يقول تعالى ذكره: ليقولن عند ذلك: ذهب الضيق والعسرة عني، وزالت الشدائد والمكاره ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾، يقول تعالى ذكره: إن الإنسان لفرح بالنعم التي يعطاها مسرور بها ﴿فَخُورٌ﴾، يقول: ذو فخر بما نال من السعة في الدنيا، وما بسط له فيها من العيش، وينسى صُرُوفها، ونكدَ العَوَائص فيها، ويدع طلب النعيم الذي يبقى، والسرور الذي يدوم فلا يزول.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم استثنى جل ثناؤه من الإنسان الذي وصفه بهاتين الصفتين: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وإنما جاز استثناؤهم منه لأن «الإنسان» بمعنى الجنس ومعنى الجمع. وهو كقوله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾، [العصر: ١-٣].

فقال تعالى ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإنهم إن تأتهم شدّة من الدنيا وعسرة فيها، لم يثنهم ذلك عن طاعة الله، ولكنهم صبروا لأمره وقضائه. فإن نالوا فيها رخاء وسعةً، شكروه وأدّوا حقوقه بما آتاهم منها. يقول الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ يغفرها لهم، ولا يفضحهم بها في معادهم، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، يقول: ولهم من الله مع مغفرة ذنوبهم، ثوابٌ على أعمالهم الصالحة التي عملوها في دار الدنيا، جزيلٌ، وجزاءٌ عظيم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيرا،

ولـم يَـرْج بعـد ذلـك فرجـا. وهكـذا إن أصـابته نعمـة بعـد نقمـة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: فرح بما في يده، بطر فخور على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: في الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «**والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ، ولا نَصَب ولا وَصَب، ولا حَزَن حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياه**»، وفي الصحيحين: «**والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن**» وهكذا قال الله تعالى:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج:١٩ -٢٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيرا منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: فرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على

الأشر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدرائهم، وأي عيب أشد من هذا؟!!

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور. ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ وهو: الفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين.

❁ ❁ ❁

س: ما هذا البعض الذي أشير إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾؟

ج: ذكر بعض العلماء أنه سب آلهة المشركين وبيان بطلان عبادتها، وذكر آخرون إنه كل ما يضايق المشركين ذِكره، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

تصبير النبي ﷺ وتثبيته

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

ج: **المعنى – والله تعالى أعلم –:** فلعلك يا رسول الله تفكر في ترك تبليغ المشركين بعض ما يوحيه إليك ربك ولعل صدرك أن يتضايق بذلك لما تلاقيه منهم من تكذيب وعنادٍ وسخرية واستهزاء وما تجده من قولهم لولان أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملكٌ يؤيده ويخبر أنه رسول من عند الله. فلا ينبغي لك يا رسول الله ولا يليق بك أن تترك شيئًا مما أوحيناه إليك من أجل قولهم، وما عليك أن يؤمنوا أو يكفروا إنما أنت نذيرٌ تنذرهم وتخوفهم، والله ﷻ على كل شيء حفيظ، وشهيد هو الحفيظ لأعمالهم، والشهيد على أقوالهم، وإليه المرجع في هدايتهم وتوفيقهم، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلعلك يا محمد، تارك بعض ما يوحي إليك ربك أن تبلغه من أمرك بتبليغه ذلك، وضائقٌ بما يوحى إليك صدرُك فلا تبلغه إياهم، مخافة ﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ﴾، له مصدّق بأنه لله رسول ! يقول تعالى ذكره: فبلغهم ما أوحيته إليك، فإنك إنما أنت نذير تُنْذرهم عقابي، وتحذرهم بأسي على كفرهم بي، وإنما الآيات التي يسألونكها عندي وفي سلطاني، أنزلها إذا شئت، وليس عليك، إلا البلاغ والإنذار ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾، يقول: والله القيم بكل شيء وبيده تدبيره، فانفذ لما أمرتك به، ولا تمنعك مسألتهم إياك الآيات، من تبليغهم وحيي والنفوذ لأمري.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مسليًا لرسوله الله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول -كما أخبر تعالى عنهم-: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صَدْرُه، ولا يهيدنه ذلك ولا يُثْنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وقال هاهنا: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ ﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذبُوا وأوذُوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ أي فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ هم أن يدع سب آلهتهم فنزلت هذه الآية؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أي هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما سألوك؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ؛ كقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقيل: معنى الكلام النفي مع استبعاد؛ أي لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي ﷺ لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا لاتبعناك، فهم

النبي ﷺ أن يدع سب آلهتهم ؛ فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ عطف على «تارك» و«صدرك» مرفوع به، والهاء في «به» تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال: «ضائق» ولم يقل ضيق ليشاكل «تارك» الذي قبله ؛ ولأن الضائق عارض، والضيق ألزم منه. ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ في موضع نصب ؛ أي كراهية أن يقولوا، أو لئلا يقولوا كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا. أو لأن يقولوا. ﴿لَوۡلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يصدقه ؛ قاله عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ؛ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ فقال الله تعالى: يا محمد إنما عليك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ أي حافظ وشهيد.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى - مسليا لنبيه محمد ﷺ، عن تكذيب المكذبين -: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ أي: لا ينبغي هذا لمثلك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعنتهم بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحا، يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟!

أم عليك حسابهم، ومطالب بهدايتهم جبرا؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

وَكِيلٌ ﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ
ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن
قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ
ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ
عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ
يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ

ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ
كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

[هود: ١٣-٢٤].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ - مُفۡتَرَيَٰتٖ - مِّن دُونِ ٱللَّهِ - نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ - لَا يُبۡخَسُونَ - وَحَبِطَ - وَبَٰطِلٞ - بَيِّنَةٖ - شَاهِدٞ مِّنۡهُ - إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ - يَكۡفُرۡ بِهِۦ - ٱلۡأَحۡزَابِ - مِرۡيَةٖ - ٱلۡأَشۡهَٰدُ - لَعۡنَةُ ٱللَّهِ - يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ - وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا - مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ - أَوۡلِيَآءَ - وَضَلَّ عَنۡهُم - يَفۡتَرُونَ - لَا جَرَمَ - وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ - وَٱلۡأَصَمِّ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾	قاله من عند نفسه ونسبه إلى الله (نسبه إلى الله كذبًا وزورًا).
﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾	مختلقات من عند أنفسكم.
﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾	مع الله – سوى الله ﷻ.
﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾	نعطيهم جزاء أعمالهم كاملًا مستوفًى.
﴿لَا يُبۡخَسُونَ﴾	لا ينقصون شيئًا من أجور أعمالهم.
﴿وَحَبِطَ﴾	ذهب ثوابها.
﴿وَبَٰطِلٞ﴾	ضائع مضمحل.
﴿بَيِّنَةٖ﴾	بصيرة – علم – قرآن – فطرة صحيحة.
﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾	من يشهد له من نفسه، قيل: هو لسان النبي ﷺ، وقيل: رجل من أهل بيته وهو عليٌّ، وقيل: هو النبي ﷺ على نفسه، وقيل: هو جبريل عليه السلام.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾	إمامًا يؤتم به، ورحمة سببٌ في رحمة العباد المتبعين لما فيه.
﴿يَكْفُرْ بِهِ﴾	يجحده وينكره.
﴿الْأَحْزَابِ﴾	المتحزبون على الكفر (من أهل الشرك أو اليهود والنصارى وغيرهم ممن تحزب على الكفر).
﴿مِرْيَةٍ﴾	شك.
﴿الْأَشْهَادُ﴾	الشهود (ملائكة وأنبياء ومؤمنون ومنهم أمة محمد ﷺ).
﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾	سخط الله وطرده وإبعاده عن الخير.
﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾	يمنعون الناس من دخول الإسلام وسلوك طريق الإيمان.
﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾	يريدون الطرق طرقًا معوّجة لا توصل إلى مرضاة الله ﷻ بل توصل إلى الجحيم والعياذ بالله.
﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾	فائتين هاربين من الله فيعجز عن إدراككم كلا فلن يعجز عن إدراكم.
﴿أَوْلِيَاءَ﴾	أنصار.
﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾	غاب عنهم، وذهب عنهم.
﴿يَفْتَرُونَ﴾	يدعون أنها شريكة لله ﷻ.
﴿لَا جَرَمَ﴾	حقًّا – لا بد.
﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾	رجعوا إلى ربهم وأنابوا إليه وخشعوا وخضعوا.

﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾	الذي لا يسمع.

عجز الكفار عن الإتيان بمثل هذا القرآن

س: وضح معنى ما يلي: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: أيقولون أفترى رسول الله ﷺ هذا القرآن من عند نفسه؟؟ وهذا سؤال توبيخ لهؤلاء القائلين بأنه صلوات الله وسلامه عليه، افترى هذا القرآن من عند نفسه ولم ينزله عليه ربُّه ﷻ فقل يا رسول الله إن كنت قد افتريته فأنتم عربٌ ولسانكم عربيٌّ مثلث ومثل لساني فائتوا بعشر سور مفتريات من عند أنفسكم إن ائتوا بها تشابه هذا القرآن كما تظنون أني صنعت ذلك، وإن لم تستطيعوا الإتيان بعشر سور مثله فادعوا أيضًا من استطعتم كي يساعدونكم على الإتيان بعشر سور مثله، ادعوا آلهتكم، ادعوا أصنامكم وأوثانكم لمساعدتكم للإتيان بعشر سور مثله، ولن تستطيعوا، ولن يستطيعوا هم الآخرون فعل ذلك، ادعوا من عبدتموهم مع الله، وادعوا من جعلتموهم لله شركاء كي يأتوا بعشر سور مثله إن كنتم صادقين في قولكم أنني افتريت هذا القرآن، فإن لم يستجيبوا لكم يا أهل الإسلام، إن لم يستجيبوا لك يا رسول الله ويأتي بعشر سور مثله فاثبتوا على ما أنتم عليه فإن الذي أنزله هو الله، وأنزل بعلم الله واعلموا أنه لا إله إلا الله فهل أنتم مستسلمون خاضعون طائعون منقادون؟

وهل أنتم يا أهل الشرك تاركوا دينكم وداخلون في دين الإسلام.

وبنحو هذا ال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كفاك حجةً على حقيقة ما أتيتهم به، ودلالةً على صحة نبوّتك، هذا القرآن، من سائر الآيات غيره، إذ كانت الآيات إنما تكون لمن أعطيها دلالة على صدقه، لعجز جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها. وهذا القرآن، جميع الخلق عَجَزَةٌ عن أن يأتوا بمثله، فان هم قالوا: «افتريته»، أي: اختلقته وتكذَّبته.

ودلّ على أن معنى الكلام ما ذكرنا، قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ إلى آخر الآية. ويعني تعالى ذكره بقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، أي: أيقولون افتراه ؟

وقد دللنا على سبب إدخال العرب «أم» في مثل هذا الموضع.

فقل لهم: يأتوا بعشر سُور مثل هذا القرآن ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾، يعني مفتعلات مختلقات، إن كان ما أتيتكم به من هذا القرآن مفترىً، وليس بآية معجزةٍ كسائر ما سُئلته من الآيات، كالكنز الذي قلتم: هلا أنزل عليه ؟ أو الملك الذي قلتم: هلا جاء معه نذيرًا له مصدقًا ! فإنكم قومي، وأنتم من أهل لساني، وأنا رجل منكم، ومحال أن أقدر أخلق وحدي مائة سورة وأربع عشرة سورة، ولا تقدروا بأجمعكم أن تفتروا وتختلقوا عشر سور مثلها، ولا سيما إذا استعنتم في ذلك بمن شئتم من الخلق.

يقول جل ثناؤه: قل لهم: وادعوا من استطعتم أن تدعوهم من دون الله، يعني سوى الله، لا فتراء ذلك واختلاقه من الآلهة، فإن أنتم لم تقدروا على أن تفتروا عشر سور مثله، فقد تبين لكم أنكم كذبةٌ في قولكم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، وصحّت عندكم حقيقة ما أتيتكم به أنه من عند الله. ولم يكن لكم أن تتخيروا الآيات على ربكم، وقد جاءكم من الحجة على حقيقة ما تكذبون به أنه من عند الله،

مثل الذي تسألون من الحجة وترغبون أنكم تصدِّقون بمجيئها.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾، لقوله: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾، وإنما هو: قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، إن كنتم صادقين أن هذا القرآن افتراه محمد ، وادعوا من استطعتم من دون الله على ذلك، من الآلهة والأنداد.

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: فإن لم يستجب لكمْ من تدعون من دون الله إلى أنْ يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات، ولم تطيقوا أنتم وهم أن تأتوا بذلك، فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أنزل من السماء على محمد ﷺ بعلم الله وإذنه، وأن محمدًا لم يفتره، ولا يقدر أن يفتريه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، يقول: وأيقنوا أيضًا أن لا معبود يستحق الألوهة على الخلق إلا الله الذي له الخلق والأمر، فاخلعوا الأنداد والآلهة، وأفردوا له العبادة.

وقد قيل: إن قوله: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ خطاب من الله لنبيه، كأنه قال: فإن لم يستجب لك هؤلاء الكفار، يا محمد، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، أيها المشركون، ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، وذلك تأويل بعيد من المفهوم.

وقوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، يقول: فهل أنتم مذعنون لله بالطاعة، ومخلصون له العبادة، بعد ثبوت الحجة عليكم؟

وقيل: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، والخطاب في أوّل الكلام قد جرى لواحد، وذلك قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ﴾، ولم يقل: «فإن لم يستجيبوا لك» على نحو ما قد بينا قبلُ في خطاب رئيس القوم وصاحب أمرهم، أن العرب تخرج خطابه أحيانا مخرج خطاب الجمع، إذا كانَ خطابه خطابًا لأتباعه وجنده، وأحيانًا مخرج خطاب الواحد، إذا كان في نفسه واحدًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ «فإن لم يستجيبوا لكم» أي في المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللسن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ واعلموا صدق محمد ﷺ، «و» اعلموا ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ استفهام معناه الأمر. وقد تقدم القول في معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز في مقدمة الكتاب. والحمد لله. وقال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾ وبعده. ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ ولم يقل لك؛ فقيل: هو على تحويل المخاطبة من الإفراد، إلى الجمع تعظيما وتفخيما؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضمير في «لكم» وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للجميع، أي فليعلم للجميع ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾؛ قاله مجاهد. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للمشركين؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة؛ ولا تهيأت لكم المعارضة ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ للنبي ﷺ وللمؤمنين، وفي «فاعلموا» للمشركين.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: إن كان قد افتراه، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقا، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ على شيء من ذلكم ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ من عند الله لقيام الدليل والمقتضي، وانتفاء المعارض.

﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: واعلموا أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة، ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين.

خصوصًا إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضيا على أمره، مقبلا على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها. بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ «أم» بمعنى «بل»، و«افتراه» أتى به من قِبَل نفسه. ﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾ أنتم في معارضتي ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغة ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾

بزعمكم ودعواكم ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: «افتراه».

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي: يجيبوكم إلى المعارضة. فقد قامت الحجة عليهم لكم.

فإن قيل: كيف وحَّد القول في قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ﴾ ثم جمع في قوله: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن الخطاب للنبي ﷺ وحده في الموضعين، فيكون الخطاب له بقوله «لكم» تعظيمًا، لأن خطاب الواحد بلفظ الجميع تعظيم، هذا قول المفسرين.

والثاني: أنه وحَّد في الأول لخطاب النبي ﷺ. وجمع في الثاني لمخاطبة النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنزله وهو عالم بإنزاله، وعالم بأنه حق من عنده.

والثاني: أنزله بما أخبر فيه من الغيب، ودلَّ على ما سيكون وما سلف، ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: واعلموا ذلك. ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر. وفيمن خوطب به قولان:

أحدهما: أهل مكة، ومعنى إسلامهم: إخلاصهم لله العبادة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ، قاله مجاهد.

❁ ❁ ❁

دفع إشكال

س: هل كل من يريد الحياة الدنيا وزينتها يعطاها، لقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؟

ج: ليس كلُّ مريدٍ للدنيا يعطاها، بل الآية هذه مطلقة، وقُيِّدت بمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التي في «الشورى» ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ [الشورى: ٢٠] الآية. وكذلك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٤٥] قيدها وفسرها التي في «سبحان» ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨] إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضحاك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا «في قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أنها منسوخة بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ [الإسراء: ١٨]. والصحيح ما ذكرناه؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائما على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: ٤١] والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: من كان يريد بأعماله الصالحة التي يعملها في الدنيا ثوابًا في الدنيا، ولا يرجو لها ثوابًا في الآخرة، إما لكونه يكفر بالآخرة، وإما لكونه ضعيف اليقين، وإما لكونه مرائيًا وإما لغير ذلك، فإذا كان يريد بعمله الثواب في الدنيا ولا يريد ثواب الآخرة يُعطى أجره مقابل حسناته في دنياه – إذا شاء الله ذلك- فيُعطى الأجر في الدنيا كاملًا مستوفيًا، ولا ينقص من ثواب عمله في الدنيا شيئًا، فهؤلاء هم الذين لم يعد لهم نصيب من الحسنات في الآخرة لكونهم ما ابتغوا بذلك وجه الله، ولا أرادوا ثوابه الأخروي، فليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبطت أعمالهم التي عملوها في الدنيا فلم يعد لها ثواب في الآخرة واضمحلت أعمالهم وضاعت.

وهذه الآيات قد تتنزل على أهل الرياء، كالثلاثة الذين تُسعر بهم النار أول من تسعر، من تكلم ليقال عالم، وقرئ ليقال قارئ، ومن جاهد ليقال جريء، ومن تصدق ليقال: محسن.

وقد تتنزل أيضًا على أهل الكفر الذين لا يرجون بعثًا ولا حياة ولا نشورًا.

وقد تتنزل على اليهود والنصارى كذلك.

وقد تتنزل على كل ما ذكروا وغير ما ذكروا فهي عامة وبالتعميم قال الأكثرون.

وها هي بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، وإيّاها وَزينتها يطلب به، نوفّ إليهم أجور أعمالهم فيها وثوابها ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ يقول: وهم في الدنيا، ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾، يقول: لا ينقصون أجرها، ولكنهم يوفونه فيها.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، أي: لا يظلمون. يقول: من كانت الدنيا همَّه وسَدَمه[1] وطَلِبته ونيتّه، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطى بها جزاءً. وأما المؤمن، فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: في الآخرة لا يظلمون.

وبإسناد صحيح عن الحسن قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾، قال: طيباتهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين ذكرت أنّا نوفيهم أجور أعمالهم في الدنيا ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ﴾، يصلونها ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾، يقول: وذهب ما عملوا في الدنيا، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، لأنهم كانوا يعملون لغير الله، فأبطله الله وأحبط عامله أجره.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة، من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث. قد صرف رغبته

---

(١) أي: ولوعه بها.

وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئا، فهذا لا يكون إلا كافرا، لأنه لو كان مؤمنا، لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي، الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا ينقصون شيئا مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خالدين فيها أبدا، لا يفتَّر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بقوله: ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: بصيرة، قد استبصر في دينه وبُيِّن له دينه، بيَّن الله له، وبصَّره الله به.

الثاني: الفطرة الصحيحة التي فطره الله عليها كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وكما قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو**

ينصرانه أو يمجسانه...»[1].

الثالث: أن البيِّنة هي القرآن.

الرابع: أن البينة هي الدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؟

ج: من العلماء من قال: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يقرؤه.

ومنهم من قال: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتبعه.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالشاهد في قوله تعالى: ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؟

ج: لأهل العلم في الشاهد أقوال:

أحدها: أن الشاهد هو محمد ﷺ.

الثاني: أن الشاهد لسانه ﷺ.

الثالث: أن الشاهد جبريل عليه السلام.

الرابع: أن الشاهد عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

الخامس: أن الشاهد هو القرآن والوحي.

السادس: أن الشاهد الإنجيل يتلو القرآن بالتصديق وإن كان نزل قبله؛ لأن النبي ﷺ بشرت به النبوة.

وثمَّ أقوال أُخر.

❁ ❁ ❁

---

(١) البخاري.

س: قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ من قبل ماذا؟

ج: أيضًا للعلماء فيها أقوال:

أحدها: ومن قبل القرآن.

الثاني: ومن قبل الإنجيل.

الثالث: ومن قبل النبي ﷺ.

❋ ❋ ❋

س: ما المراد بكتاب موسى عليه السلام؟

ج: هو التوراة.

❋ ❋ ❋

س: ما المراد بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾؟

ج: ثـمَّ أقـوال أحـدها أنهـم المؤمنـون برسـول الله محمـد ﷺ، أصـحابه وغيرهم.

ومنها: أصحاب موسى عليه السلام.

ومنها: أهل الحق من أصحاب موسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه.

❋ ❋ ❋

س: ما المراد بقوله: ﴿بِهِۦۚ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾؟

ج: المراد بذلك فيه أقوال:

أحدها: القرآن.

الثاني: النبي عليه الصلاة والسلام.

الثالث: وفيه بُعد وهو التوراة. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المعنيون بالأحزاب

س: ما المراد بالأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾؟

ج: لأهل العلم فيها أقوال:

أحدها: المتحزبون على الكفر عمومًا.

الثاني: أحزاب اليهود والنصارى.

الثالث: كفار قريش.

❁ ❁ ❁

تحذير الخلق من الكفر بالله ﷻ

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ج: بناءً على ما تقدم من تفسير لبعض المفردات، أقول وبالله تعالى التوفيق هناك أكثر من وجه في تفسير الآية الكريمة:

الأول: أفمن كان على علمٍ وبصيرة يستبين بهما الحق من الباطل، والصواب من الخطأ ويميز ويفرّق بين هذا وذاك فيتبع الحق والصواب ويترك الخطأ والباطل.

وإضافة إلى ما عنده من علمٍ بكتاب الله ﷻ الذي أنزله الله عليه وإضافة إلى الفهم الصحيح (البصيرة) فإنه يتلو بلسانه نفسه القرآن الذي أوحاه الله إليه وتلاه أيضًا عليه جبريل عليه السلام، ومن قبله التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام يُهتدى بها ويؤتم بها، (يأتم بها من كانوا أتباعًا لموسى ويهتدون بها) ويُرحم بها من اتبعها، ففي هذه التوراة مبشرات أيضًا بمخرج النبي ﷺ وبمبعثه وفيها أيضًا وصفه ونعته، فتوالت القرائن الدالة على أن رسول الله ﷺ على الحق، تلك القرائن التي هي العلم والبصيرة وكتاب الله المنزل، وكونه صلوات الله وسلامه عليه يتلوه بنفسه، ليس بنقل أحدٍ له ولا بلغة غير لغته إنما نزل عليه وتلاه، وإضافة إلى ذلك بشّرت به التوراة أفمن كان هذا حاله علمٌ وبصيرةٌ ووحيٌ وتلاوة للوحي المنزل، وبشارة الكتب السابقة به وتصديقها أفمن كان هكذا كمن هو في الظالمات؟!! كمن هو متبع لهواه!! كمن هو مهتمٌّ بدنياه مقبلٌ عليها؟!! كلا فلا يستويان.

هذا هو الوجه الأول في تفسير صدر الآية الكريمة:

* أما الوجه الثاني: في تأويلها – والله أعلم – فحاصله أفمن كان على الفطرة الصحيحة السليمة، (الإسلام) التي فطره الله عليها، ولم تتلوث فطرته ولم يُهوَّد ولم يُنصَّر ولم يُمجَّس، ففطرته بحمد الله سليمة على الإسلام، وجاءه من ربه ما يوافق هذه الفطرة السليمة الصحيحة (فطرة الإسلام) جاءه القرآن من عند الله، تلاه عليه جبريل عليه السلام، وتلاه رسول الله أيضًا بلسانه، وصدق به من أهل بيته من صدق كعليٍّ رضي الله عنه فتبعه على الإيمان، ومن قبل هذا كله كتابٌ موسى (التوراة) الذي أنزل إمامًا ورحمةً بشر بخروجه ومبعثه وصدَّقه كذلك، فأولئك المؤمنون بموسى والمصدقون به يؤمنون أيضًا برسول الله ﷺ ويصدقونه أفمن كان هذا شأنه على فطرة صحيحة وأتاه ما يوافقها، وهو القرآن المتلو المنزل، وسبقته مبشرة به التوراة ومصدقةً له وأتباعها يؤمنون به ويصدقونه، أفمن كان هكذا كمن هو في الظلمات غارقٌ، وفي الحيرة والشك متردد، وكمن هو منكبٌّ على الدنيا غارق في شهواتها كلَّا ثم كلَّا فاثبت يا رسول الله فإنك على الحق، والقرآن الذي أنزل عليك إنما أنزله الله عليك، فمن يكفر بالقرآن ويجحد نبوتك من أحزاب المشركين ومن أحزاب اليهود والنصارى، ومن غيرهم من الأحزاب المتحزبة على الكفر فالنار موعده. فلا تكن في شك مما أنت عليه بتذكيبهم لك، بل اثبت على ما أنت عليه فإنه الحق من ربك تبارك وتعالى، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ ﴾ [الشعراء: ٨]، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وكما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: ٧١]، وكما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠]، هذا، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بي ولا بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار**»(١).

فهذا الحديث في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وفيهما الدلالة على عموم رسالة النبي محمد ﷺ والله أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (بنحوه، وقد تقدم).

فضيحة الكفار يوم القيامة

س: تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ في حديث اذكره؟

ج: هذا فيما أخرجه البخاري ومسلم من طريق صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾»[1].

❁ ❁ ❁

س: من المعنيُّون بالأشهاد في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم الأنبياء والمرسلون كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: ٤١].

الثاني: أنهم الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

الثالث: أنهم أمة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ

(١) البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، وأحمد (٢/ ٧٤) واللفظ لأحمد.

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

الرابع: أنهم العلماء الذين شهدوا بوحدانية الله، إذ الله قال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ ﴾ [آل عمران: ٨].

الخامس: أنهم مؤمنوا الإنس والجن عمومًا وكل هؤلاء يشهدون فالملائكة يشهدون والأنبياء والمرسلون كذلك يشهدون وأمة محمد ﷺ تشهد وأهل العلم كذلك يشهدون، وكذا سائر أهل الإيمان والإنس والجن، بل وكذا أعضاء بني آدم تشهد عليهم وجلودهم كذلك. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

تبرؤ الآلهة من معبوديهم

س: كل معبود غير الله يتولى عن أصحابه يوم القيامة ويكفر بعبادته ويضل عنه ويخذله، دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ...﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

وقد تقدمت أدلة كثيرة في هذا – والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: لماذا يضاعف لهم العذاب؟

ج: يضاعف لهم العذاب لكونهم كفروا، واضافوا إلى كفرهم أنهم صدوا الناس عن الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

وق قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه من غير أن ينقص ذلك من آثامهم شيئًا».

❀ ❀ ❀

تفسير قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾؟

ج: ذكر العلماء في معناها أقوال:

أحدها: أن معناها حقًّا.

الثاني: أن معناها لا محالة – لا بد.

أحدها: أن معناها لا كسب (أي: لم يكتسبوا خيرًا).

وبشيءٍ من التفصيل، ولكونها تتكرر في كتاب الله، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لَا جَرَمَ﴾ للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه: ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى حق، فـ «لا» و«جرم» عندهما كلمة واحدة، و«أن» عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس. قال المهدوي: وعن الخليل أيضا أن معناها لابد ولا محالة، وهو قول الفراء أيضا؛ ذكره الثعلبي. وقال الزجاج: «لا» ها هنا نفي وهو رد لقولهم: إن الأصنام تنفعهم؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك، وجرم بمعنى كسب؛ أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وفاعل كسب مضمر، و«أن» منصوبة بجرم، كما تقول كسب جفاؤك زيدا غضبه عليك؛ وقال الشاعر:

نصبنا رأسه في جذع نخل ... بما جرمت يداه وما اعتدينا

أي بما كسبت. وقال الكسائي: معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا صد ولا منع عن أنهم. وقيل: المعنى لا قطع قاطع، فحذف الفاعل حين كثر استعماله؛ والجرم القطع؛ وقد جرم النخل واجترمه أي صرمه فهو جارم، وقوم وجرم وجرام وهذا زمن الجرام والجرام، وجرمت صوف الشاة أي جززته، وقد جرمت منه أي أخذت منه؛ مثل جلمت الشيء جلما أي قطعت، وجلمت الجزور

أجلمها جلما إذا أخذت ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجلمته - ساكنة اللام - إذا أخذته أجمع، وهذه جلمة الجزور - بالتحريك - أي لحمها أجمع ؛ قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جرم، ولا عن ذا جرم ؛ ولا أن ذا جرم، قال: وناس من فزارة يقولون: لا جرأنهم بغير ميم. وحكى الفراء فيه لغتين أخريين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جرم، قال: وناس من العرب. يقولون: لا جرم بضم الجيم.

❊ ❊ ❊

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى في هذه الآيات: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ليس هناك أحدٌ اظلم لنفسه وأشد بخسًا لها وأشد إهانة لها من شخص افترى على الله كذبًا، فتقوَّل على الله ما لم يقله، وقال إن الله حرَّم كذا وأحلَّ كذا، ولم يكن حرَّمه ولا أحله، وكذا من كذب على الله وزعم أن له شريكًا في الملك فعبد مع الله غيره، وكذا من كذب على الله وادعى له الصاحبة والولد إلى غير ذلك من صور الافتراء والكذب على الله، فلا أحد أظلم من فاعل هذا، فأولئك الظلمة المفترون على الله الكذب يعرضون على ربهم يوم القيامة وتعرض أعمالهم على ربهم وكذا أقوالهم وافتراءتهم على الله فيراها ربهم ويحاسبهم عليهم وتشهد عليهم الأشهاد من

الملائكة والنبيين والمؤمنون من أمة محمد ﷺ بل والجوارح تشهد وغيرهم من الشهود، فلك هؤلاء يشهدون على أهل الافتراء على الله وعلى أهل الكذب على الله فيقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، فيفتضح أمر الكذبة على الله ويفتضح أمر المفترين على الله على رؤوس الأشهاد، ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾، يدعون على المفترين باللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله، ويدعون عليهم بإحلال سخط الله وعذابه عليهم.

هذا، ومن أهل العلم من قال إن قائل: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ إخبارٌ من الله ﷻ بما سيحلُّ بالظالمين من إحلال السخط عليهم، ومن طردهم وإبعادهم من رحمته، إبعاد هؤلاء الظالمين الذين ضحَّوا إلى ظلمهم وشركهم وكفرهم ضحوا عظائم أُخر، وهي صدُّ غيرهم عن الإيمان، ومنع غيرهم من الإيمان، فجمعوا بين كونهم كفرة ظلمةٌ مفترون على الله، جمعوا مع ذلك صدَّ الناس عن الخير وإضلال الناس عن الحق ومنع الناس من الإيمان، وأرادوها في الدنيا طرقًا منحرفةً معوَّجة تصرف الناس عن طريق الإسلام وطريق التوحيد الذي يوصل إلى جنة الله ومرضاته فحادوا بالناس عن طريق الحق والصواب وتسببوا في كفرهم وضلالهم، وكانوا بالآخرة جاحدين وكانوا للآخرة والبعث والثواب والعقاب منكرين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لن يعجزوا ربهم ﷻ ولن يهربوا منه ولن يفوتوه، وما كان لهم من أنصار ينصرونهم من دون الله، ولا يتولونهم ولا يدفعون عنهم العذاب، فهؤلاء يضاعف لهم العذاب لكفرهم ولصدهم غيرهم عن الإيمان، ما كانوا يستطيعون السمع الذي ينتفعون به للختم الذي ختم الله به على

أسماعهم لرفضهم الحق ولإعراضهم عنه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]، وكما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، وكما قال: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وما كانوا يبصرون بصرًا ينفعهم لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة.

أولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأنزلوها أسوأ المنازل أنزلوها الجحيم والعياذ بالله، ولم يجدوا هنالك الآلهة التي عبدوها من دون الله، لقد هربت منهم تلك الآلهة الباطلة وتبرأت منهم تلك الآلهة المفتراة، فحقًّا إنهم في الآخرة هم أخسر الناس وأشدهم ضياعًا.

فأية خسارة أعظم من خسارة النفس بإنزالها أسوأ المنازل في الجحيم، وبضياع جنات النعيم منهم وفقدانهم إياه وحرمانهم منها.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأي الناس أشد تعذيبًا ممن اختلق على الله كذبًا فكذب عليه؟ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ يعرضون يوم القيامة على ربهم، فيسألهم عما كانوا في دار الدنيا يعملون.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، يعني الملائكة والأنبياء الذين شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون، وهم جمع «شاهد» مثل «الأصحاب» الذي هو جمع «صاحب» ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، يقول: شهد هؤلاء الأشهاد في الآخرة على هؤلاء المفترين على الله في الدنيا، فيقولون: هؤلاء الذين كذبوا في الدنيا على ربهم، يقول الله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾،

يقول: ألا غضب الله على المعتدين الذين كفروا بربّهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ألا لعنة الله على الظَّالمين الذين يصدّون الناسَ، عن الإيمان به، والإقرار له بالعبودة، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، من مشركي قريش، وهم الذين كانوا يفتنون عن الإسلام من دخل فيه. ﴿ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾، يقول: ويلتمسون سبيل الله، وهو الإسلام الذي دعا الناس إليه محمد، يقول: زيغًا وميلا عن الاستقامة. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ ﴾، يقول: وهم بالبعث بعد الممات مع صدهم عن سبيل الله وبغيهم إياها عوجًا ﴿كَٰفِرُونَ﴾ يقول: هم جاحدون ذلك منكرون.

ويعني جل ذكره بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه أنهم يصدّون عن سبيل الله، يقول جل ثناؤه: إنهم لم يكونوا بالذي يُعْجِزون ربَّهم بهربهم منه في الأرض إذا أراد عقابهم والانتقام منهم، ولكنهم في قبضته وملكه، لا يمتنعون منه إذا أرادهم ولا يفوتونه هربًا إذا طلبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ ﴾، يقول: ولم يكن لهؤلاء المشركين إذا أراد عقابهم من دون الله أنصارٌ ينصرونهم من الله، ويحولون بينهم وبينه إذا هو عذبهم، وقد كانت لهم في الدنيا مَنْعَة يمتنعون بها ممن أرادهم من الناس بسوء، وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ ﴾، يقول تعالى ذكره: يزاد في عذابهم، فيجعل لهم مكان الواحد اثنان.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾، فإنه اختلف في تأويله.

فقال بعضهم: ذلك وصَفَ الله به هؤلاء المشركين أنه قد ختم على

سمعهم وأبصارهم، وأنهم لا يسمعون الحق، ولا يبصرون حجج الله، سَمَاعَ منتفع، ولا إبصارَ مهتدٍ.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾، صم عن الحقّ فما يسمعونه، بكم فما ينطقون به، عمي فلا يبصرونه، ولا ينتفعون به.

وقال آخرون: إنما عنى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، آلهةَ الذين يصدون عن سبيل الله. وقالوا: معنى الكلام: أولئك وآلهتهم، لم يكونوا معجزين في الأرض ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ يعني الآلهة، أنها لم يكن لها سمعٌ ولا بصر. وهذا قولٌ روي عن ابن عباس من وجه كرهت ذكره لضعْفِ سَنَده.

وقال آخرون: معنى ذلك: يُضَاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يسمعونه، وبما كانوا يبصرون ولا يتأمَّلون حجج الله بأعينهم فيعتبروا بها. قالوا: و«الباء» كان ينبغي لها أن تدخل، لأنه قد قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾، [البقرة: ١٠]، بكذبهم، في غير موضع من التنزيل أدخلت فيه «الباء»، وسقوطها جائز في الكلام كقولك في الكلام: «لأجزينَّك ما علمت، وبما علمت»، وهذا قول قاله بعض أهل العربية.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، ما قاله ابن عباس وقتادة، من أن الله وصفهم تعالى ذكره بأنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحقّ سماع منتفع، ولا يبصرونه إبصار مهتد، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين، عن استعمال جوارحهم في طاعة الله، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصارٌ.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ

يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، وبطل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله، بادعائهم له شركاء، فسلك ما كانوا يدعونه إلهًا من دون الله غير مسلكهم، وأخذ طريقًا غير طريقهم، فضَلّ عنهم، لأنه سلك بهم إلى جهنم، وصارت آلتهم عدمًا لا شيء، لأنها كانت في الدنيا حجارة أو خشبًا أو نحاسًا، أو كان لله وليًّا، فسلك به إلى الجنة، وذلك أيضًا غير مسلكهم، وذلك أيضًا ضلالٌ عنهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: حقًّا أن هؤلاء القوم الذين هذه صفتهم في الدنيا وفي الآخرة هم الأخسرون الذين قد باعوا منازلهم من الجنان بمنازل أهل الجنة من النار؛ وذلك هو الخسران المبين.

وقد بينا فيما مضى أن معنى قولهم: «جَرمتُ»، كسبت الذنب و«جرمته»، وأن العرب كثر استعمالها إياه في مواضع الأيمان، وفي مواضع «لا بد» كقولهم: «لا جرم أنك ذاهب»، بمعنى: «لا بد»، حتى استعملوا ذلك في مواضع التحقيق، فقالوا: «لا جَرَمَ لتقومن»، بمعنى: حقًّا لتقومن. فمعنى الكلام: لا منع عن أنهم، ولا صدّ عن أنهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويجنبونهم الجنة، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة، ﴿ وَهُم

﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفي الصحيحين: «**إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته**»[1]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق، عُميا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه؛ ولهذا كان أصحَّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١﴾ أي: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا نارا حامية، فهم معذبون فيها لا يُفَتَّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ۝٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧].

و﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْد عنهم شيئًا، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى:

---

(١) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى:
﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢ ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى:
﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢ ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم، بَسمُوم وحميم، وظِلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه، بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهؤلاء أعظم الناس ظلما ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ﴾ أي: لعنة لا تنقطع، لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما، لا يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل، التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ أي اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقا وصدقا ﴿ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ حصر الخسار فيهم بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب نستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول: وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره، ونقله عن ابن عباس وقتادة -: أن معنى ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ الآية - أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا لحق سماع منتفع، ولا أن يبصروه إبصار مهتد، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى: وقد كانت لهم أسماع وأبصار.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] الآية.

الثاني: وهو أظهرها عندي-: أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل على أبصارهم.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ ﴾ [الكهف: ٥٧] ونحو ذلك من الآيات.

وذل الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ [النساء: ١٥٥] وقوله ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥] وقوله ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ ﴾ [البقرة: ١٠] الآية. وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ [التوبة: ١٢٥] الآية وقوله ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الأنعام: ١١٠] الآية- إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع اي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة الرسل على عادة العرب في قولهم: لا استطيع أن اسمع كذا إذا كان شديد الكراهية والبغض له ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ ﴾ [الحج: ٧٢] وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ [فصلت: ٢٦] الآية وقوله: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ ﴾ [نوح: ٧] الآية.

الرابع: أن « ما » مصدرية ظرفية، اي يضاعف لهم العذاب مدة كونهم

يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا، أي يضاعف لهم العذاب دائمًا

الخامس: « ما » مصدرية في محل نصب بنزع الخافض، أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه باسماعهم وأبصارهم. وقد قدمنا في سورة النساء قول الأخفش الأصغر: بأن النصب بنزع الخافض مقيس مطلقًا عند أمن اللبس.

السادس: أن قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ من صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، فيكون متصلاً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [هود: ٢٠] وتكون جملة ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراضية. وتقرير المعنى على هذا القول: وما كان لهم من دون الله من أولياء ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، أي الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله. وما لا يسمع ولا يبصر لا يصح أن يكون وليًا لآخر.

ويشهد لمعنى هذا القول قوله تعالى في الأعراف ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥] الآية، ونحوها من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية الكريمة قد تكون فيها أقوال، وكلها يشهد به قرآن فنذكر الجميع، والعلم عند الله تعالى.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾؟

ج: هذا – والله تعالى أعلم –: وبعد أن بُيِّن حال الأشقياء من أهل الظلم والمصير الذي هم إليه صائرون بُيِّن أيضًا مصير أهل الإيمان والعلم الصالح فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ صدقوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم وخضعوا لربهم ﷻ وخشعوا له وامتثلوا أمره وأنابوا إليه أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون، ماكثون فيها لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها.

ثم إن الله ﷻ ضرب مثلًا لأهل الكفر من أهل الإيمان فقال تعالى مثل الفريقين (أهل الكفر مع أهل الإيمان) كالأعمى والصم فالكافر أعمى وأصم عن سماع الحق ورؤيته فهذا مثل الكافر أعم وأصم، والمؤمن بصير بالحق سامع له عاملٌ به، فهل يستوي من يسمع ويبصر مع من هو أعمى وأصم أفلا تتعظون وتعتبرون يا من ابتعدتم عن طريق الله ﷻ وكفرتم به وأعرضتم عنه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا في الدنيا بطاعة الله، ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى «الإخبات».

فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنابوا إلى ربهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: وخافوا.

وقال آخرون: معناه: اطمأنوا.

وقال آخرون: معنى ذلك: خشعوا.

قال أبو جعفر: وهذه الأقوال متقاربة المعاني، وإن اختلفت ألفاظها، لأن

الإنابة إلى الله من خوف الله، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة، والطمأنينة إليه من الخشوع له، غير أن نفس «الإخبات»، عند العرب: الخشوع والتواضع.

وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، ومعناه: وأخبتوا لربهم. وذلك أن العرب تضع «اللام» موضع «إلى» و«إلى» موضع «اللام» كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾، [الزلزلة: ٥] بمعنى: أوحى إليها. وقد يجوز أن يكون قيل ذلك كذلك، لأنهم وصفوا بأنهم عمدوا بإخباتهم إلى الله.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٣﴾، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم سكان الجنة الذين لا يخرجون عنها ولا يموتون فيها، ولكنهم فيها لابثون إلى غير نهاية.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: مثل فريقي الكفر والإيمان كمثل الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئًا، والأصم الذي لا يسمع شيئًا، فكذلك فريق الكفر لا يبصر الحق فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفره بالله، وغلبة خذلان الله عليه، لا يسمع داعي الله إلى الرشاد، فيجيبه إلى الهدى فيهتدي به، فهو مقيمٌ في ضلالته، يتردَّد في حيرته. والسميع والبصير فذلك فريق الإيمان، أبصر حجج الله، وأقر بما دلت عليه من توحيد الله، والبراءة من الآلهة والأنداد، ونبوة الأنبياء عليهم السلام، وسمعَ داعي الله فأجابه وعمل بطاعة الله.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ﴾، الآية، هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فصم عن

الحق، فلا يسمعه، وعمي عنه فلا يبصره. وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به، وأبصره فوعاه وحفظه وعمل به

يقول تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾، يقول: هل يستوي هذان الفريقان على اختلاف حالتيهما في أنفسهما عندكم أيها الناس؟ فإنهما لا يستويان عندكم، فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، يقول جل ثناؤه: أفلا تعتبرون أيها الناس وتتفكرون،، فتعلموا حقيقة اختلاف أمريهما، فتنزجروا عما أنتم عليه من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان؟

فالأعمى والأصم، والبصير والسميع، في اللفظ أربعة، وفي المعنى اثنان. ولذلك قيل: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾.

وقيل: (كالأعمى والأصم)، والمعنى: كالأعمى الأصمّ، وكذلك قيل (والبصير والسميع)، والمعنى: البصير السميع، كقول القائل: «قام الظريف والعاقل»، وهو ينعت بذلك شخصًا واحدًا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعَملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، وينامون ولا يتغطَّون، ولا

يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رَشْحُ مِسك يعرقون.

ثم ضرب الله تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي: الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين السُّعَداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجَج، فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففَطِن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا. ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بقلوبهم، أي: صدقوا واعترفوا، لما أمر الله بالإيمان به، من أصول الدين وقواعده.

﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان. ﴿ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي: خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته، وخوفه، ورجائه، والتضرع إليه.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ

﴿٢٣﴾ ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبا، إلا أدركوه، ولا خيرا، إلا سبقوا إليه.

﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي: فريق الأشقياء، وفريق السعداء. ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ ﴾ هؤلاء الأشقياء، ﴿ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ ﴾ مثل السعداء.

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ﴾ لا يستوون مثلا بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعمال، التي تنفعكم، فتفعلونها، والأعمال التي تضركم، فتتركونها.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ ﴾ الآية.

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للكافر بالأعمى والأصم، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير، وبين أنهما لا يستويان، ولا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الأصم والسميع. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة:

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٣].

وقوله: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ ﴾ [الرعد: ١٩] الآية.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النمل: ٨٠] إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا
ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ (٢٦) فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن
قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ
أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۢ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ
(٢٧) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ
وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ
أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ
جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن
شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٣٤) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ
قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ

أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾
وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ
﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن
تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ
عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا
ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾.

[هود: ٢٥-٤٠].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَرَاذِلُنَا - بَادِيَ ٱلرَّأْيِ - رَحْمَةً - فَعُمِّيَتْ - أَنُلْزِمُكُمُوهَا - يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ - تَذَكَّرُونَ - تَزْدَرِي - بِمُعْجِزِينَ - يُغْوِيَكُمْ - ٱفْتَرَىٰهُ - إِجْرَامِي - تُجْرِمُونَ - تَبْتَئِسْ - بِأَعْيُنِنَا - وَوَحْيِنَا - ٱلْفُلْكَ - سَخِرُواْ مِنْهُ - يُخْزِيهِ - وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ - زَوْجَيْنِ - سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَرَاذِلُنَا﴾	ضعفاؤنا – فقراؤنا – سفاؤنا – أراذلنا – سفلتنا.
﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾	فيما يظهر لنا من أمرهم – وقيل: الذين لا يدققون ولا يتعقلون ولا يتثبتون ولا يتريثون وقيل: هم الذين أظهروا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.
﴿رَحْمَةً﴾	نبوةً – هداية.
﴿فَعُمِّيَتْ﴾	فأخفاها الله عليكم – فأخفيت عليكم.
﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾	أنكهكم على اختيارها – أنجبركم كي تؤمنوا وتقبلوا الرحمة.
﴿يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾	يمنعني من عذاب الله.
﴿تَذَكَّرُونَ﴾	تتعظون – تعتبرون.
﴿تَزْدَرِي﴾	تحتقر – تستثقل.
﴿بِمُعْجِزِينَ﴾	بنائتين – بهاربين – بمرهقين ربكم بهربكم.
﴿يُغْوِيَكُمْ﴾	يُضلكم – يُهلككم.

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾	اختلقه من عند نفسه – تقوَّله.
﴿إِجۡرَامِي﴾	اكتسابي للمحرمات – إثم ما اكتسبته من الافتراءات.
﴿تُجۡرِمُونَ﴾	تكتسبون من السيئات.
﴿تَبۡتَئِسۡ﴾	تحزن – تغتم.
﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾	بمرأى منا.
﴿وَوَحۡيِنَا﴾	أمرنا.
﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾	السفينة العظيمة الهائلة.
﴿سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾	استهزؤا به.
﴿يُخۡزِيهِ﴾	يُهينه – يذله – يفضحه.
﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾	امتلأ التنور بالماء (وهو التنور الذي يُخبز فيه). وقيل: وجه الأرض.
﴿زَوۡجَيۡنِ﴾	الذكر والأنثى.
﴿سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾	حق عليه القول الذي كتبه الله عليه من أنه سيموت كافرًا

❁ ❁ ❁

شيءٌ من ذكر نبي الله نُوح عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولقد أرسلنا نوحًا، وهو أول نبيٍّ بعثه الله إلى أهل الأرض أرسلناه إلى قوه قائلاً لهم إني لكم ﴿نَذِيرٌ﴾ من الله ﷻ ﴿مُّبِينٌ﴾ مظهر لكم ما أحله الله وما حرمه عليكم، ومبينٌ لكم عاقبة أمركم إذا عصيتم ربكم.

وأرسلناه أيضًا ناهيًا قومه عن عبادة غير الله وآمرًا بعبادة الله وحده لا شريك له قائلًا: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لا تعبدوا صنمًا ولا وثنًا ولا أي معبودٍ إلا الله إني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يوم عظيم الشأن العذاب فيه شديد لمن عبد غير الله.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾، أن لا تعبدوا إلا الله، وقل لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾، ومن فتحها ردّ «أنْ» في قوله: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ ﴾ عليها. فيكون المعنى حينئذ: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه بأني لكم نذير مبين، بأن لا تعبدوا إلا الله.

ويعني بقوله: بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أيها الناس، عبادة الآلهة والأوثان، وإشراكها في عبادته، وأفردوا الله بالتوحيد، وأخلصوا له العبادة، فإنه لا شريك له في خلقه.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، يقول: إني أيها القوم، إن لم

تخصُّوا الله بالعبادة، وتفردوه بالتوحيد، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان، أخاف عليكم من الله عذابَ يوم مؤلم عقابُه وعذابُه لمن عُذِّب فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن نوح، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عَبَدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥﴾ أي: ظاهر النِّذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وقوله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عَذَّبكم الله عذابا أليما مُوجعًا شاقًا في الدار الآخرة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحا أول المرسلين إلى قومه يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥﴾ أي: بينت لكم ما أنذرتكم به، بيانا زال به الإشكال.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

❃ ❃ ❃

تعجب للكفار من إرسال رسول بشرى

س: كثيرًا ما يظهر أهل الكفر سببًا من أسباب امتناعهم عن الإسلام والإيمان ألا وهو كون النبي النبي المرسل إليهم من البشر، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك:

قول قوم نوح لنوح عليه السلام: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

وقول قوم موسى لموسى عليه السلام: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وقول أهل الكفر لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وكذا قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

❋ ❋ ❋

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾.

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: قال أشراف القوم وعليتهم وكبراؤهم من قوم نوح، قالوا لنوح عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إنسانًا مثلنا، لست بملكٍ ولا بمخلوق آخر غيرنا أفضل منا، وما نرى أتباعك الذين اتبعوك على ما تدعوا إليه إلا ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ سفهاؤنا وفقراؤنا وضعفاؤنا وسفلتنا وأصحاب المهن الخسيسة فينا، هذا ما يظهر من أمرهم وهذا رأينا الظاهر فيهم، ثم هم أيضًا

ضعيفو العقل لا يفكرون ولا يتعقلون؛ لأنهم آمنوا لما دعوتهم لأول مرة بلا رؤية ولا تأني ولا تؤدة، وما أنتم وهم بمفضلين علينا بشيء، بل نوقن أنكم كذبة فيما تدعوننا إليه من توحيد الله وترك عبادة الأوثان.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فقال الكبراء من قوم نوح وأشرافهم، وهم﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وجحدوا نبوة نبيهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾، يا نوح، ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصُّورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولا إلى خلقه.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، يقول: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف، فيما نرَى ويظهر لنا.

وقوله: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، اختلفت القراء في قراءته

وأورد القراءتين وقال: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا قراءة من قرأ: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ بغير همز «البادي»، وبهمز «الرأي»، لأن معنى ذلك الكلام: إلا الذين هم أراذلنا، في ظاهر الرأي، وفيما يظهر لنا.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، يقول: وما نتبين لكم علينا من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبودة له، فنتبعكم طلبَ ذلك الفضل، وابتغاءَ ما أصبتموه بخلافكم إيانا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

وهذا خطاب منهم لنوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك أنهم إنما كذبوا نوحًا دون أتباعه،

لأن أتباعه لم يكونوا رُسلا. وأخرج الخطابَ وهو واحد مخرج خطاب الجميع، كما قيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾، [الطلاق: ١].

وتأويل الكلام: بل نظنك، يا نوح، في دعواك أن الله ابتعثك إلينا رسولا كاذبًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ:

﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ ﴾ والملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا ﴾ أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قال: وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ أي: في أول بادئ الرأي، وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ أي: فيما تَدَّعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

هذا اعتراض الكافرين على نوح، عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣]،

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عَيِيّ أو غبي. والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمر جلي واضح. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوَة، غير أبي بكر، فإنه لم يَتَلَعْثَم**» أي: ما تردد ولا تروَّى، لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا، فبادر إليه وسارع.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمْي عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

وللعلماء في معنى ﴿بَادِىَ﴾ إذا لم يُهمز ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المعنى: ما نرى أتباعك إلا سفلتنا وأرذالنا في بادي الرأي لكل ناظر، يعنون أن ما وصفناهم به من النقص لا يخفى على أحد فيخالفنا، هذا مذهب مقاتل في آخرين.

والثاني: أن المعنى أن هؤلاء القوم اتَّبعوك في ظاهر ما يُرى منهم، وطويَّتُهم على خلافك.

والثالث: أن المعنى: اتبعوك في ظاهر رأيهم، ولم يتدبروا ما قلتَ، ولو رجعوا إِلى التفكر لم يتبعوك، ذكر هذين القولين الزجاج. قال ابن الأنباري: وهذه الثلاثة الأقوال على قراءة من لم يهمز، لأنه مِن بدا، يبدو: إِذا ظهر. فأما من همز «بادئ» فمعناه: ابتداء الرأي، أي: اتَّبعوك أول ما ابتدؤوا ينظرون، ولو فكروا لم يعدلوا عن موافقتنا في تكذيبك.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ ﴾ أي: الأشراف والرؤساء، رادين لدعوة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا ﴾ وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب، الذي لا ينبغي غيره، لأن البشر يتمكن البشر، أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل أمر، بخلاف الملائكة.

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا ﴾ أي: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة، بزعمهم.

وهم في الحقيقة الأشراف، وأهل العقول، الذين انقادوا للحق ولم يكونوا كالأراذل، الذين يقال لهم الملأ الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟.

وقولهم: ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك، أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب، يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمور الخفية، التي تحتاج إلى تأمل، وفكر

طويل.

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم، ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

❁ ❁ ❁

أتباع الرسل أكثرهم الضعفاء والفقراء

س: أتباع الرسل هم الضعفاء في الالب، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

* قول هرقل لأبي سفيان: «أشراف الناس يتبعونه أم ضفاؤهم، قال: بل ضعفاؤهم، فقال: وكذا أتباع الرسل».

* وقول قوم نوحٍ لنوح عليه السلام: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾.

* وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] ما حاصله أن اهل الشرك قالوا لرسول الله ﷺ: «اطرد عند هؤلاء لا يجترؤون علينا..».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم: أن نوحًا عليه السلام حين تأبى عليه قومه ورفضوا الإيمان وأصروا على الشرك والكفر، وقالوا له ما نراك إلا بشرًا مثلنا... أجاب قومه بقوله: يا موسى أرأيتم إن كنت على بصيرة وعلم وبيان بالحق والصواب من عند الله ﷻ ثم إن الله تفضل علي برحمة من عنده، وهي النبوة والهداية،

أفنجبركم ونغصبكم على قبولهم وأنتم كارهون لها وكارهون الدخول في الإسلام.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نوح لقومه إذ كذبوه، وردّوا عليه ما جاءهم به من عند الله من النصيحة: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، على علمٍ ومعرفةٍ وبيانٍ من الله لي ما يلزمني له، ويجب عليّ من إخلاص العبادة له وترك إشراك الأوثان معه فيها، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، يقول: ورزقني منه التوفيق والنبوّة والحكمة، فآمنت به وأطعته فيما أمرني ونهاني ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾.

وأورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قراءتين في قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ واختار قراءة من قرأ: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ بضم العين وتشديد الميم للذي ذكروا من العلة لمن قرأ به، ولقربه من قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، فأضاف «الرحمة» إلى الله، فكذلك «تعميته على الآخرين»، بالإضافة إليه أولى.

قال الطبري:

وقوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، يقول: أنأخذكم بالدخول في الإسلام، وقد عماه الله عليكم، ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، يقول: وأنتم لإلزامناكموها، ﴿كَٰرِهُونَ﴾، يقول: لا نفعل ذلك، ولكن نكل أمركم إلى الله، حتى يكون هو الذي يقضي في أمركم ما يرى ويشاء.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، الآية، أما والله لو استطاع نبيّ الله ﷺ لألزمها قومه، ولكن لم يستطع ذلك ولم يملكه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما ردَّ على قومه في ذلك: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ

بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي: نَغْضبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قَالَ ﴾ لهم نوح مجاوبا ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: على يقين وجزم، يعني، وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الألباب، ويضمحل في جنب عقله، عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقا، فإذا قال: إني على بينة من ربي، فحسبك بهذا القول، شهادة له وتصديقا.

﴿ وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ أي: أوحى إلي وأرسلني، ومنَّ علي بالهداية، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: خفيت عليكم، وبها تثاقلتم.

﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي: أنكرهكم على ما تحققناه، وشككتم أنتم فيه؟ ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا، صادا لنا عما كنا عليه.

وإنما غايته أن يكون صادا لكم أنتم، وموجبا لعدم انقيادكم للحق الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم، على ما أمر الله، ولا إلزامكم، ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾.

قال ابن الجوزي (زاد المسير)﴾:

قوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنُلزمكم قبولها؟ وهذا استفهام معناه الإنكار، يقول: لانقدر أن نُلزمكم من ذات أنفسنا. قال قتادة: والله لو استطاع

نبي الله ﷺ لألزمها قومه، ولكنه لم يملك ذلك. وقيل: كان مراد نوح عليه السلام ردَّ قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فبيَّن فضله وفضل مَن آمن به بأنه على بيِّنة من ربه، وقد آتاه رحمةً من عنده، وسُلب المكذِّبون ذلك.

❁ ❁ ❁

الرسل لا تسأل الناس أجرًا على الإيمان

س: الرسل لا تسأل أجورًا على دعوتها إلى الله، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول نوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطور: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: ٤٧].

إلى غير ذلك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾.

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: ويا قوم لا أسالكم على الإيمان والتوحيد والإسلام مالًا، فلا أقول لكم أعطوني كذا وكذا إن أسلمتم إنما أطلب ثواب عملي من الله ﷻ، أما عن الذي طلبتموه مني، وهو طرد أهل الإيمان وعدم مجالستي لهم وابتعادي عنهم وإبعادهم عني فلن يتحقق لكم ذلك فما أنا بطارد الذين آمنوا، إنهم ملاقوا ربهم يوم القيامة.

وسيسألهم عن أعمالهم وعن طاعتهم له، ولكني أراكم قومًا تجهلون حقيقة ما أنتم فيه، وما أنتم عليه مقبلون وتجهلون حقيقة هؤلاء، وأنهم على خير ما داموا مؤمنين.

ويا قوم من يمنعني من عذاب الله إن طردت هؤلاء الفقراء الضعفاء من مجلس أفلا تتعظون وتعتبرون.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا أيضًا خبرٌ من الله عن قيل نوح لقومه، أنه قال لهم: يا قوم لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، مالا أجرًا على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلبُ عرض من أعراض الدنيا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، يقول: ما ثواب نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه، إلا على الله، فانه هو الذي يجازيني، ويثيبني عليه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وما أنا بمقصٍ من آمن بالله، وأقرّ بوحدانيته، وخلع الأوثان وتبرأ منها، بأن لم يكونوا من عِلْيتكم وأشرافكم، ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، يقول: إن هؤلاء الذين تسألوني طردهم، صائرون إلى الله، والله سائلهم عما كانوا في الدنيا يعملون، لا عن شرفهم وحسبهم.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، يقول: ولكني، أيها القوم، أراكم قومًا تجهلونَ الواجبَ عليكم من حقّ الله، واللازم لكم من فرائضه. ولذلك من جهلكم سألتموني أن أطرد الذين آمنوا بالله.

يقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي﴾، فيمنعني من الله إن هو عاقبني على طردي المؤمنين الموحِّدين الله إن طردتهم ؟ ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، يقول: أفلا تتفكرون فيما تقولون: فتعلمون خطأه، فتنتهوا عنه؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول لقومه: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على نصحي لكم مالا؛ أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله ﷻ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم

خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ الآيات [الأنعام: ٥٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي: على دعوتي إياكم ﴿مَالًا ﴾ فتستثقلون المغرم.

﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق بي ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم.

﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ حيث تأمروني، بطرد أولياء الله، وإبعادهم عني. وحيث رددتم الحق، لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ ﴾ أي: من يمنعني من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال، الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتدبرون الأمور.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

ج: يقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ولا أقول لكم عندي خزائن الله أُعطي من أشاء وأمنع من أشاء، وأكرمكم بالمال إن آمنتم، وأمنعكم المال إن عصيتم، فهذا ليس لي فلست بإله ولا رب، وكذا فإني لا أعلم الغيب، لا أدعي الإلهية ولا الربوبية وكذا لا أقول إني ملك من الملائكة اتفضل عليكم بذلك، وكذا لا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين عبدوا الله ولم يشركوا به شيئًا، لا أقول لهؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم لن يؤتيكم الله خيرًا على إيمانكم وتوحيدكم الله أعلم بما في أنفسهم، وهو الذي سيجازيهم ويحاسبهم، وإن قلت شيئًا مما ذكر، إن قلت إن عندي خزائن الله، أو أعلم الغيب، أو قلت إني ملك، أو قلت للفقراء المؤمنين لن يؤتيكم الله خيرًا، فقد ظلمت نفسي بهذا القول، وأنزلتها أسوأ المنازل.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾، عطف على قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ ﴾.

ومعنى الكلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ ﴾،﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾، التي لا يفنيها شيء، فأدعوكم إلى اتباعي عليها. ولا أعلم أيضًا الغيب - يعني: ما خفي من سرائر العباد، فإن ذلك لا يعلمه إلا الله- فأدّعي الربوبية وأدعوكم إلى عبادتي. ولا أقول أيضًا: إني ملك من الملائكة، أرسلت إليكم، فأكون

كاذبًا في دعواي ذلك، بل أنا بشر مثلكم كما تقولون، أمرت بدعائكم إلى الله، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ يقول: ولا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله ووحّدوه، الذين تستحقرهم أعينكم، وقلتم: إنهم أراذلكم، ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾، وذلك الإيمان بالله، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، يقول: الله أعلم بضمائر صدورهم، واعتقاد قلوبهم، وهو وليّ أمرهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهر وبدا، وقد أظهروا الإيمان بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحل ذلك، ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾، يقول: إنّي إن قلت لهؤلاء الذين أظهروا الإيمان بالله وتصديقي: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾، وقضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته ألسنتهم لي على غير علم منّي بما في نفوسهم، وطردتهم بفعلي ذلك، لمن الفاعلين ما ليس لهم فعله، المعتدين ما أمرهم الله به، وذلك هو «الظلم».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجرا، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا. ويخبرهم أنه لا يَقدِر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بمَلك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم: إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعمل بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطنًا، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالما قائلا ما لا علم له به.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾ أي: غايتي أني رسول الله إليكم، أبشركم، وأنذركم، وأما ما عدا ذلك، فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي، أدبرها أنا، وأعطي من أشاء، وأحرم من أشاء، ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة، التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس، بظني.

﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ ﴾ أي: ضعفاء المؤمنين، الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم، فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك، فحسابهم على الله.

﴿ إِنِّيٓ إِذٗا ﴾ أي: إن قلت لكم شيئا مما تقدم ﴿ لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا تأييس منه، عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين، أو يمقتهم، وتقنيع لقومه، بالطرق المقنعة للمنصف.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤ ﴾.

ج: بيان هذا – والله أعلم – أن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ردوا عليه قائلين يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا، أي: حاجحتنا فأكثرت من المحاججة، وكذا خاصمتنا فأطلت المخاصمة وتوعدتنا بالعذاب فائتنا بما عقدنا من العذاب إن كنت صادقًا في وعيدك، قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لست أنا الذي يأتي بالعذاب إنما يأتيكم

الله إن شاء، في الوقت الذي يشاء وعلى النحو الذي يشاء، وما أنتم بفائتين من عذاب الله ﷻ، وكوني أطلت في النصح والتذكير، فاعلم أن هذا لن ينفعكم، لن تنتفعوا بنصحي إن كان الله يريد أن يضلكم ويدمركم ويهللكم، هو ربكم مالك أمركم، ومحييكم ومميتكم والمتصرف فيكم كيف يشاء، وإليه مرجعكم يوم القيامة.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال قوم نوح لنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا، فأتنا بما تعدنا من العذاب، إن كنت من الصادقين في عِداتك ودَعواك أنك لله رسول. يعني: بذلك أنه لن يقدر على شيء من ذلك.

يقول تعالى ذكره: قال نوح لقومه حين استعجلوه العذاب: يا قوم، ليس الذي تستعجلون من العذاب إليّ، إنما ذلك إلى الله لا إلى غيره، هو الذي يأتيكم به إن شاء، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾، يقول: ولستم إذا أراد تعذيبكم بمعجزيه، أي بفائتيه هربًا منه، لأنكم حيث كنتم في ملكه وسلطانه وقدرته، حكمهُ عليكم جارٍ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾، يقول: ولا ينفعكم تحذيري عقوبته، ونزولَ سطوته بكم على كفركم به ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾، في تحذيري إياكم ذلك، لأن نصحي لا ينفعكم، لأنكم لا تقبلونه. ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾، يقول: إن كان الله يريد أن يهلككم بعذابه ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾، يقول: وإليه تردُّون بعد الهلاك.

حكي عن طيئ أنها تقول: «أصبح فلان غاويًا»: أي مريضًا.

وحكي عن غيرهم سماعًا منهم: «أغويت فلانًا»، بمعنى أهلكتَه، و«غَوِيَ

الفصيل»، إذا فقد اللبن فمات.

وذكر أن قول الله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾، [مريم: ٥٩]، أي هلاكًا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٣٣﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يُعجِزُه شيء، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ أي: أي شيء يُجدِي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٣٤﴾ أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما رأوه، لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة، لنبيهم الناصح.

فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا، وأشفقت علينا، ودعوتنا إلى أمر، لم يتبين لنا، فنريد منك أن تبينه لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم، كاذبون، وعلى نبيهم متجرئون. ولم يردوا ما قاله بأدنى

شبهة، فضلا عن أن يردوه بحجة. ولهذا عدلوا – من جهلهم وظلمهم – إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته، أن ينزله بكم، فعل ذلك. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن إرادة الله غالبة، فإنه إذا أراد أن يغويكم، لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح – وهو قد فعل عليه السلام – فليس ذلك بنافع لكم شيئا، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

❁ ❁ ❁

ومن الجدل المحمود

س: الإكثار من الجدال المحمود بالتي هي أحسن لتقرير الحق، ودفع الباطل والشبه يُطلب في بعض الأحيان دلِّل على ذلك؟

ج: نعم للجهاد فقهٌ، فإذا كان لتقرير الحق وإيضاح الحجة وبيان وجه الصواب فمستحبٌّ حينئذٍ قال قوم نوحٍ لنوحٍ عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] أما إذا كان مراءً وبلا فائدة فيمنع الكلام آنذاك ويكون السكوت أولى، قال ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء ولو كان مُحقًّا**».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾.

ج: هذا – والله أعلم – في تأويله وجهان:

أحدهما: أيقول المشركون أن رسول الله محمدًا ﷺ قد افترى هذا القرآن واختلقه وتقوَّله من عند نفسه، فقل لهم إن افتريته، إن اختلقته من عند نفسي ونسبته إلى الله ﷻ فعليَّ إثم إجرامي، إثم اكتسابي لهذا الجرم، وأنا بريء من إجرامكم بتكذيبكم لي وجحودكم آيات الله المنزلة من عند الله.

وثمَّ وجه آخر: أن قولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ المعني به نوح عليه السلام والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك: افترى محمد هذا القرآن؟ وهذا الخبر عن نوح؟، قل لهم: إن افتريته فتخرصته واختلقته ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ يقول: فعلي إثمي في افترائي ما افتريت على ربّي دونكم، لا تؤاخذون بذنبي ولا إثمي، ولا أؤاخذ بذنبكم. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾، يقول: وأنا بريء مما تذنبون وتأثَمُون بربكم، من افترائكم عليه.

ويقال منه: «أجرمت إجرامًا»، و«جَرَمْتُ أجرم جَرْمًا»، كما قال الشاعر:

طَرِيدُ عَشِيرَةٍ وَرَهِينُ ذَنْبٍ ... بِمَا جَرَمَتْ يَدِي وَجَنَى لِسَانِي

وقال ابن كثير رحمه الله:

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكد لها ومقرر بشأنها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: فإثم ذلك علي، ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من

العقوبة لمن كذب عليه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح، كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى: أن قومه يقولون: افترى على الله كذبا، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي: كل عليه وزره ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾.

ويحتمل أن يكون عائدا إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة، في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام فقال: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال، الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي ﴾ أي: ذنبي وكذبي، ﴿ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي: فلم تستلجون في تكذيبي.

❁ ❁ ❁

قطع الأمل في إيمان قوم نوح عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: وأوحى الله عز وجل إلى نبيه نوح عليه السلام أنه لن يؤمن من قومك أحدٌ غير الذين آمنوا بك، فلا تحزن ولا تجزع ولا تغتم ولا تتضايق بما يصدر منهم من تكذيب لك وسخريةٍ منك واستهزاءٍ وتحدي.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأوحى الله ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾، لمّا حَقّ على قومه القولُ، وأظلَّهم أمرُ الله، ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾، يا نوح، بالله فيوحِّده، ويتبعك على ما تدعوه إليه، ﴿مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، فصدّق بذلك واتبعك. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، يقول: فلا تستكن ولا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، فإني مهلكهم، ومنقذك منهم ومن اتبعك. وأوحى الله ذلك إليه، بعد ما دعا عليهم نوحٌ بالهلاك فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾، [نوح: ٢٦].

وقال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوحُ دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنك أمرهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ج: هذا أمر من الله ﷻ لنبيه نوح عليه السلام يقول تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ السفينة العظيمة الهائلة، أُمر نوحٌ عليه السلام أن يصنعها بأعيننا ومرأى منا وأمرنا لك بذلك وتعليمنا لك صناعتها، ولا تجادلني في أهل الظلم فإنني سأغرقهم وأهلكهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأُحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأن اصنع الفلك، وهو السفينة.

وقوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، يقول: بعين الله ووحيه كما يأمرك.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: ولا تسألني في العفو عن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من قومك، فأكسبوها تعدّيًا منهم عليها بكفرهم بالله ، الهلاك بالغرق، إنهم مغرقون بالطوفان.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ يعني: السفينة ﴿ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ أي: بمرأى منا، ﴿ وَوَحۡيِنَا ﴾ أي: وتعليمنا لك ماذا تصنعه، ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

❁ ❁ ❁

الجزاء من جنس العمل

س: الجزاء من جنس العمل، اذكر بعض الأدلة على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

❁ ❁ ❁

القرابات لا تنفع مع عدم الإيمان

س: مَن الذين سبق عليهم القول بأنهم سيعذبون من قوم نوح؟

ج: منهم امرأته، وكذا ابنه، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ويصنع نوح عليه السلام السفينة العظيمة كما أمره الله، وكلما مرَّ عليه ﴿مَلَأٌ﴾ جماعة من قومه، وهو يصنعها - قيل يصنعها على اليبس (الأرض اليابسة وليست في البحر) سخروا منه ووصفوه بالجنون، فيجيبهم قائلًا: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ إن تستهزئوا بنا وتصفونا بسيئ الأوصاف وبقلة العقول، فسيأتي اليوم الذي نسخر فيه منكم كما تسخرون منا، وسوف تعلمون عاقبة سخريتكم، سوف تعلمون مَنْ منا الذي سيأتيه عذاب يُهينه ويذله ويحلُّ عليه عذاب مقيم لا يتحول عنه ولا يزول، واستمرت السخرية بنوح عليه السلام، واستمر به أذى قومه حتى إذا جاء أمر الله عز وجل بإنجائه وإهلاك المعاندين له، وجاء أمر الله بالطوفان الذي أغرق به من على الأرض وسلَّم

نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه، حتى إذا جاء أمر الله بذلك وامتلأ التنور ماءً، وفي التنور أقوالٌ تقدمت، منها أنه التنور الذي يُخبز فيه، وهو أشبه بالبرميل (وهو من الفخار) يوضع الخبز في جوانبه من الداخل والنار بوسطة من أسفل، فإذا نزل المطر وامتلأ التنور ماء.

وقيل: التنور (وجه الأرض) وثمَّ أقوال تقدمت، حتى إذا كان هذا فاحمل في السفينة العظيمة من كل صنفٍ من المخلوقات ذكرًا وأنثى، وذلك للإبقاء على المخلوقات؛ ولأن السفينة لا تكاد تتحمل أكثر من ذلك، وكذا احمل في السفينة أهلك الذين آمنوا بك، لكن الذين كفروا منهم فلا تحملهم، وهم زوجته التي ضُربت مثلًا للذين كفروا، وكذا ولده الذي أصر على فكره، وكذا احمل في السفينة أهل الإيمان، وكانوا قلة قليلة، والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويصنع نوح السفينة، وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه ﴿سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾، يقول: هزئوا من نوح، ويقولون له: أتحوّلت نجارًا بعد النبوّة، وتعمل السفينة في البر ؟ ، فيقول لهم نوح: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، إن تهزءوا منا اليوم، فإنا نهزأ منكم في الآخرة، كما تهزءون منا في الدنيا ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، إذا عاينتم عذابَ الله، مَن الذي كان إلى نفسه مُسِيئًا منَّا.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نوح لقومه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، أيها القوم، إذا جاء أمر الله، من الهالك، ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾، يقول: الذي يأتيه عذابُ الله منا ومنكم يهينه ويذله ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾، يقول: وينزل به في الآخرة، مع ذلك، عذابٌ دائم لا انقطاع له، مقيم عليه أبدًا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، يقول: «ويصنع نوح الفلك»﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ الذي وعدناه أن يجيء قومه من الطوفان الذي يغرقهم.

وقوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: انبجس الماء من وجه الأرض، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، وهو وجه الأرض.

وقال آخرون: هو تنويرُ الصبح، من قولهم: «نوَّرَ الصبح تنويرًا».

وقال آخرون: معنى ذلك: وفار أعلى الأرض وأشرف مكانٍ فيها بالماء. وقال: «التنور» أشرف الأرض.

وقال آخرون: هو التنور الذي يُخْتَبز فيه.

قال الطبري:

وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾، قول من قال: «هو التنور الذي يخبز فيه»، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجَّة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى مَا خاطبهم به.

﴿قُلۡنَا﴾، لنوح حين جاء عذابنا قومه الذي وعدنا نوحًا أن نعذبهم به، وفار التنور الذي جعلنا فورَانه بالماء آيةَ مجيء عذابنا بيننا وبينه لهلاك قومه ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾، يعني في الفلك ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، يقول: من كل ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾، يقول: واحمل أهلك أيضًا في الفلك، يعني بـ«الأهل»، ولده ونساءه وأزواجه، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾، يقول: إلا من قلت فيهم إني مهلكه مع مَنْ أُهْلِكُ من قومك.

ثم اختلفوا في الذي استثناه الله من أهله.

فقال بعضهم: هو بعض نساء نوح.

وقال آخرون: بل هو ابنه الذي غرق.

وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، يقول: واحمل معهم من صدقك واتبعك من قومك، يقول الله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يقول: وما أقرّ بوحدانية الله مع نوح من قومه إلا قليل.

واختلفوا في عدد الذين كانوا آمنوا معه فحملهم معه في الفلك.

فقال بعضهم في ذلك: كانوا ثمانية أنفس.

وقال آخرون: بل كانوا سبعة أنفس.

وقال آخرون: كانوا عشرة سوى نسائهم.

وقال آخرون: بل كانوا ثمانين نفسًا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يصفهم بأنهم كانوا قليلا ولم يحُدّ عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، فلا ينبغي أن يُتَجاوز في ذلك حدُّ الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدٌّ من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يَطْنزون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد شديد، وتهديد أكيد، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهنه في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي: دائم مستمر أبدا.

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهَتّان الذي لا يُقْلع ولا يَفتُر، بل هو كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١١-١٤].

وأما قوله: ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

فحينئذ أمر الله نوحا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين -من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات- اثنين. ذكرا وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس متعلقًا بذنبه، فدخل بيده، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحك. ادخل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة.

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: «واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته» إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أي: من قومك، ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي: نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما.

❋ ❋ ❋

قصة إنجاز نبي الله نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ
ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي
مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ
فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ
ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ
لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ
أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾
قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ
سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ
مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

[هود: ٤١-٤٩].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿مَجۡرٜىٰهَا - وَمُرۡسَىٰهَآۚ - مَعۡزِلٖ - سَـَٔاوِيٓ - يَعۡصِمُنِي - لَا عَاصِمَ - أَمۡرِ ٱللَّهِ - إِلَّا مَن رَّحِمَۚ - أَقۡلِعِي - وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ - وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ - وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ - بُعۡدٗا - عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ - أَعِظُكَ - أَعُوذُ بِكَ - ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا - وَبَرَكَٰتٍ - أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾	جريانها – مسيرها – سيرها – إجراؤها.
﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾	توقفها – رُسوها – إرساؤها.
﴿مَعۡزِلٖ﴾	مكان منعزل عن نوح عليه السلام، وقيل: معزل عن اتباع دينه.
﴿سَـَٔاوِيٓ﴾	سأذهب – سأصير – سيألجأ.
﴿يَعۡصِمُنِي﴾	يمنعني.
﴿لَا عَاصِمَ﴾	لا مانع.
﴿أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾	قضاء الله الذي قضاه (بإهلاك الكاذبين).
﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾	إلا من رحمة الله.
﴿أَقۡلِعِي﴾	أمسكي عن الماء.
﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾	قلَّ الماء ونضب الماء وتشربته الأرض.
﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾	انتهى الأمر ونفذ الأمر الذي أراده الله.
﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾	استقرت على جبل الجودي.

﴿بُعْدًا﴾	هلاكًا وخسارًا.
﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾	ذو عمل سيءٍ، وقيل: (ولد زنا) ولا يصح.
﴿أَعِظُكَ﴾	أذكرك.
﴿أَعُوذُ بِكَ﴾	ألجأ إليك وأستنجد بك.
﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾	اهبط من السفينة بأمانٍ.
﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾	نعم متكاثرة متزايدة.
﴿أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾	أخبار كانت غائبة عنك.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ قراءات وضح بعضها؟

ج: من هذه القراءات قراءة من قرأ بفتح الميم في قول: ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ وفي قوله: ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾.

* وأخرى بضم الميم فيهما: ﴿مُجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾.

* وثالثة بفتح الميم في ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ وضمهما في ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مُجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، بضم الميم في الحرفين كليهما. وإذا قرئ كذلك كان من «أجرى» و«أرسى»، وكان فيه وجهان من الإعراب:

أحدهما: الرفع بمعنى: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، فيكون «المجرى» و«المرسى» مرفوعين حينئذ بالباء التي في قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾.

والآخر: النصب، بمعنى: بسم الله عند إجرائها وإرسائها، أو وقت إجرائها وإرسائها ، فيكون قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، كلامًا مكتفيًا بنفسه، كقول القائل عند ابتدائه في عمل يعمله: «بسم الله»، ثم يكون «المجرى» و«المرسى» منصوبين على ما نصبت العرب قولهم: «الحمد لله سِرارَك وإهلالك»، يعنون الهلال أوّله وآخره، كأنهم قالوا: «**الحمد لله أوّل الهلال وآخره**»، ومسموع منهم أيضا: «**الحمدُ لله ما إهلالك إلى سِرارِك**».

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، بفتح الميم من «مجراها»، وضمها من «مرساها»، فجعلوا «مجراها» مصدرًا من «جرى يجري مَجْرَى»، و«مرساها» من «أرسَى يُرْسي إرساء».

وإذا قرئ ذلك كذلك، كانَ في إعرابهما من الوجهين، نحو الذي فيهما إذا قرئا: ﴿مُجراها ومُرساها﴾، بضم الميم فيهما، على ما بيَّنتُ.

ثم قال أبو جعفر: والقراءة التي نختارها في ذلك قراءة من قرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾، بفتح الميم ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، بضم الميم، بمعنى: بسم الله حين تَجْري وحين تُرْسي.

قلت: وقال القرطبي... وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾ بفتح الميم ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ بضم الميم.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم -: وقال نبي الله نوح ﷺ لقومه، وقال (بعض العلماء) إن هذا أمرٌ من الله ﷻ هو الذي قال اركبوا فيها.

أما قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة التي صنعها نبي الله نوحٌ ﷺ، بسم الله يكون جريانها، وبسم الله يكون توقفها، وقيل: بسم الله تجري وبسم الله تقف.

وقيل: المعنى بأمر الله تجري وبأمر الله تقف.

وقال بعض العلماء: المعنى قولوا بسم الله عند جريانها وبسم الله عند توقفها.

أما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ﴾، لذنوب عباده المؤمنين ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم إذ أنجاهم، والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى إخبارًا عن نوح، عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ أي: بسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها.

وقرأ أبو رجاء العَطاردي: ﴿بِسْمِ اللهِ مُجْرِيَها ومُرْسِيهَا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ -١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقال الشنقيطي (في أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾﴾.

ذكر الله تعالى في هذا الآية الكريمة: أن نبيه نوحًا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أمر أصحابه الذين قيل لهم احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلاً: وَقَالَ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

وبين في سورة الفلاح: أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين، ويسألوه أن ينزلهم منزلاً مباركًا. وذلك في قوله: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩].

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف: ١٢ -١٤].

ومعنى قوله: ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أي: مطيقين.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

والمعنى: أنه أمرهم أن يسمُّوا في وقت جريها ووقت استقرارها.

ومن قرأ بضم الميمين، فالمعنى: بالله إجراؤها، وبالله إرساها. ومن فتحهما، فالمعنى: بالله يكون جريها، وبالله يقع إرساؤها، أي: إقرارها. وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول: من ضم الميم في «مُجراها» أراد: أجراها اللهُ مجرىً، ومن فتحها، أراد: جرت مَجرى. وقال الضحاك: كان إذا أراد أن تجري، قال: بسم الله، فجرت. وإذا أراد أن ترسي، قال: بسم الله، فرست.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَقَالَ ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ أي: تجري على اسم الله، وترسو على اسم الله، وتجري بتسخيره وأمره.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث غفر لنا ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين.

❁ ❁ ❁

س: من قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ما يستدل به على أن أهل الإيمان تصدر منهم ذنوب وضح ذلك؟

ج: إيضاحه أن أهل السفينة قال لهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لذنوبكم رحيم بكم إذ أنجاكم وسلمكم والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

ج: **المعنى – والله أعلم –:** والفلك التي ركبها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من المؤمنين، وما حمله من كلٍّ زوجين اثنين تجري بهم جميعًا في موج من شدته وعظمته كالجبال ونادى نوح ابنه كي يركب معهم، وكان ابنه في مكانٍ منعزل عنه، مبتعدٍ عن والده وعن المؤمنين، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فإن مصيرهم إلى الهلاك فقال ولده: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ سأصير وأذهب إلى جبلٍ مرتفع يمنعني من الغرق قال له أبوه حينئذٍ ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ لا مانع اليوم من قضاء الذي قضاه من إهلاك القوم الكافرين، وما هي إلا لحظات حتى صنع الموج نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ من رؤية ولده، ومنع الولد من رؤية أبيه فكان الولد من المغرقين الهلكى على الكفار والعياذ بالله.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾، والفلك تجري بنوح ومن معه فيها ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾، يام ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، عنه، لم يركب معه الفلك: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾، الفلك ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

ويقول تعالى ذكره: قال ابن نوح لما دعاه نوح إلى أن يركب معه السفينة خوفًا عليه من الغرق: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يقول: سأصير إلى جبل أتحصّن به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني.

ويعني بقوله: ﴿يَعْصِمُنِي﴾ يمنعني، مثل «عصام القربة»، الذي يشدُّ به رأسها، فيمنع الماء أن يسيل منها.

وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، يقول: لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك، إلا من رحمنا فأنقذنا منه، فإنه الذي يمنع من شاء من خلقه ويعصم. فـ﴿مَن﴾ في موضع رفع، لأن معنى الكلام: لا عاصم يَعصم اليوم من أمر الله إلا الله.

وقوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾، يقول: وحال بين نوح وابنه موجُ الماء فغرق، فكان ممن أهلكه بالغرق من قوم نوح ﷺ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طَبَّق جميع الأرض، حتى طفت على رءوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا، وقيل: بثمانين ميلا وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾[الحاقة: ١١، ١٢]، وقال

تعـالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٣-١٥].

...ثم قال:

والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصما بمعنى معصوم، كما يقال: «طاعم وكاس»، بمعنى مطعوم ومكسوّ، ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قال الشنقيطي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ الآية.

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة: أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم، أمواجه كالجبال.

وبين جريانها هذا ي ذلك الماء الهائل في مواضع آخر. كقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١-١٢] وقوله: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١١-١٥].

وبين في موضع آخر: أن أمواج البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه كالجبال أيضا بقوله: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣]

والطود: الجبل العظيم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ أي: بنوح، ومن ركب معه ﴿ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ والله حافظها وحافظ أهلها ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ لما ركب، ليركب معه ﴿ وَكَانَ ﴾ ابنه ﴿ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عنهم، حين ركبوا، أي: مبتعدا وأراد منه، أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فيصيبك ما يصيبهم.

فـ﴿ قَالَ ﴾ ابنه، مكذبا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة.

﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ أي: سأرتقي جبلا أمتنع به من الماء، فـ ﴿ قَالَ ﴾ نوح: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ فلا يعصم أحدا، جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب، لما نجا إن لم ينجه الله. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الابن ﴿ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾.

❁ ❁ ❁

المهتدي من هداه الله
(الأنبياء عليهم السلام لا يملكون التوفيق لأحد)

س: في قصة نوحٍ عليه السلام مع ولده ما يدل على أن الهداية من عند الله، وضح ذلك مع مزيد من الاستدلالات؟

ج: إيضاحه أن نبي الله عليه السلام، وهو من أولى العزم من الرسل، وهو العبد الشكور، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، والأنبياء والرسل أعقل الناس وأذكى الناس، وأحسن الناس أسلوبًا، وأصفاهم قلوبًا، وأجملهم طريقة في الدعوة إلى الله، ومع ذلك كله لم يستطع نوح عليه السلام هداية ولده.

كما أن أبا طالب لم يستجب لرسول الله ﷺ حينما قال له: «**يا عم قل لا إله إلا الله**»، فأبى أن يقولها، وقال هو على ملة عبد المطلب، ومات على ذلك.

وكما أن إبراهيم عليه السلام دعا أباه ودعاه ووعاه ولكن ما أجدى كل ذلك مع والد إبراهيم عليه السلام بشيءٍ، وكذلك امرأة نوح وامرأة لوط، قال الله في شأنهما: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

وكذا قال تعالى في شأن ذرية إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٣-١١٤].

إلى غير ذلك، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وبعد أن أغرض الله الأرض ومن عليها، وسلَّم

نوحًا عليه السلام ومن معه أمر الله عز وجل الأرض أن تبلع ماءها تنشر به وتدخله ثابتة في جوفها، وأمر السماء أن تمسك عن المطر، وغيض الماء كما أمر الله عز وجل أي: شرع في النقصان والاختفاء، وقضى الله ما أراده من إهلاك الظالمين، وإنجاء المؤمنين، واستقرت السفينة العظيمة على جبل الجودي، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: خسارًا وهلاكًا ولعنةً لهم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول الله تعالى ذكره: وقال الله للأرض بعد ما تناهَى أمرُه في هلاك قوم نوح بما أهلكهم به من الغرق: ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، أي: تشرَّبي.

من قول القائل: «بَلِعَ فلان كذا يَبْلَعُه»، أو «بَلَعَه يَبْلَعُه»، إذا ازدَرده.

﴿وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، يقول: أقلعي عن المطر، أمسكي، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، ذهبت به الأرض ونَشِفته، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، يقول: قُضِيَ أمر الله، فمضى بهلاك قوم نوح ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، يعني الفلك، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: أرست، ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، وهو جبل، فيما ذكر بناحية الموصل أو الجزيرة، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، يقول: قال الله: أبعد الله القوم الظالمين الذين كفروا بالله من قوم نوح.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: شرع في النقص، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فُرغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديّار، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى

ﭐلۡجُودِيِّۖ ﴾.

... وذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ آثار لا مستند عليها ثم قال:

وقوله: ﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: هلاكًا وخسارًا لهم وبعدا من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما أغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ الذي خرج منك، والذي نزل إليك، أي: ابلعي الماء الذي على وجهك ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ فامتثلتا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء، فنضب الماء من الأرض، ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

﴿ وَٱسۡتَوَتۡ ﴾ السفينة ﴿ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ أي: أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل.

﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: أتبعوا بعد هلاكهم لعنة وبعدا، وسحقا لا يزال معهم.

❁ ❁ ❁

السموات والأرض لهما إدراكٌ ويعقلان عن الله ﷻ أمره

س: السموات والأرض لهما إدراك وقفهم عن الله مراده دلِّل على ذلك؟

ج: نعم لها إدراك بطريقة يعلمها الله، دلت على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩﴾... الآيات، وفيها: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ٩-١١].

وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ ...﴾ [الانشقاق: ١-٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا ...﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إلى غير ذلك من الأدلة. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ والقول في ولد نوح

وهل هو من سفاح أو من نكاح؟

س: هل هذا الابن العاق الكافر ابن نوح عليه السلام لصلبه أم لا؟

ج: الظاهر والله أعلم انه ابنه لصلبه، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾.

❁ ❁ ❁

س: إذن فما توجيه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؟

ج: قال بعض العلماء: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم، وليس على طريقتك ودينك وسنتك. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: ما توجيه قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: إنه ذو عمل غير صالح، أي: صاحب عمل غير صالح.

الثاني: أنه ولد زنا، وهذا قولٌ قد سبقت الإشارة إلى ردِّه وعدم قبوله.

الثالث: أن سؤالك نجاة ابنك عملٌ غير صالح. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ونادى نوحٌ ربَّه قيل: وسأل نوحٌ عليه السلام ربه عن

مصير ولده، وقيل: إن النداء تفيض معنى الدعاء.

﴿ فَقَالَ رَبِّ ﴾، يا رب ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ كأنه سأله ربَّه أن ينجي ولده لذلك، فكأنه قال من أهلي الذين وعدتني بإنجائهم، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وعدك لا يتخلف ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أعدل من حكم، وأفضل من حكم وأحكم الحاكمين بالحق فقال تعالى لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ﴾ ولدك ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم، وإنما وعدت بإنجاء المتقين، وليس من أهلك الذين هم على دينك وشريعتك ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ذو عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فلا تسألني عن أمور علمها عندي ولا تعلمها أنت، لا تسألني نجاته فأنا أعلم به منك.

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ أُذكرت ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الذين يجهلون حكمة الله في خلقه، ومن الجاهلين المعترضين على قضاء الله وقدره، فعندها دعا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ متعوِّذًا ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: يا رب ألجأ إليك مستجيرًا بك مستنجدًا كي تعصمني من سؤال ما ليس لي به علم ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ ذنوبي وما صدر مني من سؤالي ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ برحمتك أكن من الخاسرين في دنياي وآخرتي.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ من السفينة على الجودي ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ بأمانٍ من الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ ونعم متزايدة من الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ وعلى جماعات ممن معك وأمم آخرون، وهم من ذرية من معك سيكونون مستقيمين على التوحيد ستمتعهم قليلًا في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ يصيبنهم منا يوم القيامة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب مؤلم موجع.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ إنك وعدتني أن تنجيني من الغرق والهلاك وأهلي، وقد هلك ابني، وابني من أهلي، ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾، الذي لا خلف له، ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾، بالحق، فاحكم لي بأن تفي بما وعدتني، من أنْ تنجّي لي أهلي، وترجع إليَّ ابني.

ويقول الله تعالى ذكره: قال الله يا نوح إن الذي غرقته فأهلكته الذي تذكر أنه من أهلك ليس من أهلك.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾.

فقال بعضهم: معناه: ليس من ولدك، هو من غيرك. وقالوا: كان ذلك من حِنْثٍ.

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، قال: لم يكن ابنه.

وأخرج الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة، قال: سمعت الحسن يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، فقال عند ذلك: والله ما كان ابنه. ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، [التحريم: ١٠] قال سعيد: فذكرت ذلك لقتادة، قال: ما كان ينبغي له أن يحلف!

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ الذين وعدتك أن أنجيهم.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن أبي عامر[1]، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ قال: هو ابنه.

---

(١) أبو عامر هو الهمداني، والضحاك هو ابن مزاحم.

ومن وجه آخر: عن أبي عامر الهمدانيّ، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس قال، ما بغت امرأة نبي قط. قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، الذين وعدتك أن أنجيهم معك.

وله شواهد يصح بها عن ابن عباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأخرج الطبري بسندٍ حسن عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قتة قال: سمعت ابن عباس يُسْأل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، [التحريم: ١٠]، قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل، على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُّهني: أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كانَ ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرَأة نبيٍّ قط.

وبسندٍ حسن عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال: ما بغت امرأةُ نبي قط.

وقد ورد من طرق عن سعيد بن جبير أنه: (ابنه).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أورد جملةً من الآثار:

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفًا، وبي كافرًا، وكان ابنه لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمدًا ﷺ أنه ابنه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾، وغير جائز أن يخبر أنه ابنه فيكون بخلاف ما أخبر. وليس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، دلالةٌ على أنه ليس بابنه، إذ كان قوله: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، محتملا من المعنى ما ذكرنا، ومحتملا أنه ليس من أهل دينك، ثم يحذف «الدين» فيقال:

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، كما قيل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، [يوسف: ٨٢].

وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾، فإن القراء اختلفت في قراءته.

فقرأته عامة قراء الأمصار: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ بتنوين «عمل» ورفع «غير».

واختلف الذين قرءوا ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: إن مسألتك إياي هذه عمل غير صالح.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ أي: سوء ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾.

وقال آخرون: بل معناه: إن الذي ذكرت أنّه ابنك فسألتني أن أنجيه، عملٌ غير صالح، أي: أنه لغير رشدة. وقالوا: «الهاء»، في قوله: «إنه» عائدة على «الابن».

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروي عن جماعة من السلف أنهم قرءوا ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾، على وجه الخبر عن الفعل الماضي، وغير منصوبة. وممن روي عنه أنه قرأ ذلك كذلك، ابنُ عباس.

حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا ابن عينة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قتة، عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾.

ووجَّهوا تأويل ذلك إلى ما:-

حدثنا به ابن وكيع قال، حدثنا غندر، عن ابن أبي عروبة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾، قال: كان مخالفًا في النية والعمل.

قال أبو جعفر: ولا نعلم هذه القراءة قرأ بها أحد من قراء الأمصار، إلا

بعض المتأخرين، واعتلّ في ذلك بخبر روي عن رسول الله ﷺ أنه قرأ ذلك كذلك، غيرِ صحيح السند. وذلك حديث روي عن شهر بن حوشب، فمرة يقول: «عن أم سلمة»، ومرة يقول: «عن أسماء بنت يزيد»، ولا نعلم أبنت يزيد يريد؟ ولا نعلم لشهر سماعًا يصح عن أمّ سلمة.

قال أبو جعفر: والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار، وذلك رفع ﴿عَمَلٌ﴾ بالتنوين، ورفع ﴿غَيْرُ﴾، يعني: إن سؤالك إياي ما تسألنيه في أبنك، المخالفِ دينَك، الموالي أهل الشرك بي من النجاة من الهلاك، وقد مضت إجابتي إياك في دعائك: ﴿لا تَذَر على الأرض مع الكافرين ديَّارًا﴾، ما قد مضى من غير استثناء أحد منهم، عملٌ غير صالح، لأنَّه مسألة منك إليّ أن لا أفعل ما قد تقدّم مني القول بأني أفعله، في إجابتي مسألتك إياي فعله. فذلك هو العمل غير الصالح.

وقوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، نهيٌ من الله تعالى ذكرهُ نبيه نوحًا أن يسأله أسباب أفعاله التي قد طوى علمها عنه وعن غيره من البشر. يقول له تعالى ذكره: إني يا نوح قد أخبرتك عن سؤالك سبب إهلاكي ابنك الذي أهلكته، فلا تسألن بعدها عما قد طويتُ علمه عنك من أسباب أفعالي، وليس لك به علم، ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ في مسألتك إياي عن ذلك.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرًا نبيّه محمدًا ﷺ، عن إنابة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوبة إليه من زلَّته، في مسألته التي سألَها ربَّه في ابنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾، أي: أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم، مما قد استأثرت بعلمه، وطويت

علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك، ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾، يقول: من الذين غبنوا أنفسهم حظوظَها وهلكوا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: يا نوح، اهبط من الفلك إلى الأرض ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾، يقول: بأمن منا أنت ومن معك من إهلاكنا، ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، يقول: وببركات عليك ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾، يقول: وعلى قرون تجيء من ذرية من معك من ولدك. فهؤلاء المؤمنون من ذرية نوح الذين سبقت لهم من الله السعادة، وبارك عليهم قبل أن يخلقهم في بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم. ثم أخبر تعالى ذكره نوحًا عما هو فاعل بأهل الشقاء من ذريته، فقال له: ﴿وَأُمَمٞ﴾، يقول: وقرون وجماعة ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الحياة في الدنيا، يقول: نرزقهم فيها ما يتمتعون به إلى أن يبلغوا آجالهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾، يقول: ثم نذيقهم إذا وردوا علينا عذابًا مؤلمًا موجعًا.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم﴾، قال: هبطوا والله عنهم راض، هبطوا بسلام من الله. كانوا أهل رحمة من أهل ذلك الدهر، ثم أخرج منهم نسلا بعد ذلك أممًا، منهم من رحم، ومنهم من عذب. وقرأ: ﴿وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم﴾، وذلك إنما افترقت الأمم من تلك العصابة التي خرجت من ذلك الماء وسلمت.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن حال ولده الذي غرق، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدُك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممن سَبَق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحا، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زِنْية، ويحكى القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وأبي جعفر الباقر، وابن جُرَيج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ وبقوله: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازا، لكونه كان ربيبًا عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم.

وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رَمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا

﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [النور: ١١-١٥].

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ إنما قال نوح هذا، لأن الله تعالى وعده نجاة أهله، فقال: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ قال ابن عباس: أعدل العادلين. وقال ابن زيد: فأنت أحكم الحاكمين بالحق.

واختلفوا في هذا الذي سأل فيه نوح على قولين:

أحدهما: أنه ابن نوح لصلبه، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والجمهور.

والثاني: أنه ولد على فراشه لغير رِشدة ولم يكن ابنه. روى ابن الأنباري باسناده عن الحسن أنه قال: لم يكن ابنه، إن امرأته فجرت. وعن الشعبي قال: لم يكن ابنه، إن امرأته خانته، وعن مجاهد نحو ذلك. وقال ابن جريج: ناداه نوح وهو يحسب أنه ابنه، وكان وُلد على فراشه. فعلى القول الأول، يكون في معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ قولان:

أحدهما: ليس من أهل دينك.

والثاني: أنه ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم. قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما المعنى: ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم. وعلى القول الآخر: الكلام على ظاهره، والأول أصح، لموافقته ظاهر القرآن، ولاجتماع الأكثرين عليه، وهو أولى من رمي زوجة نبي بفاحشة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ﴾ رفع منون ﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ برفع الراء، وفيه قولان:

أحدهما: أنه يرجع إلى السؤال فيه، فالمعنى: سؤلك إياي فيه عمل غير

صالح، قاله ابن عباس، وقتادة، وهذا ظاهر، الآية لأنه قد تقدم السؤال فيه في قوله: «رب إن ابني من أهلي» فرجعت الكناية إليه.

والثاني: أنه يرجع إلى المسؤول فيه.

وفي هذا المعنى قولان:

أحدهما: أنه لغير رِشدة، قاله الحسن.

والثاني: أن المعنى: إنه ذو عمل غير صالح، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: من قال المعنى: هو لغير رِشدة، قال: المعنى: إن أصل ابنك الذي تظن أنه ابنك عملٌ غير صالح. ومن قال: إنه ذو عمل غير صالح، قال: حذف المضاف، وأقام العمل مقامه، كما تقول العرب: عبد الله إقبال وإدبار، أي: صاحب إقبال وإدبار. وقرأ الكسائي: «**عَمِلَ**» بكسر الميم وفتح اللام «**غيرَ صالح**» بفتح الراء، يشير إلى أنه مشرك.

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه نسبته إليه، وليس منه.

والثاني: في إدخاله إياه في جملة أهله الذين وعده نجاتهم.

والثالث: سؤاله في إنجاء كافر من العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن تكون من الجاهلين في سؤالك مَنْ ليس مِنْ حزبك.

والثاني: من الجاهلين بوعدي، لأني وعدت بإنجاء المؤمنين.

والثالث: من الجاهلين بنسبك، لأنه ليس من أهلك.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ قال ابن عباس: يريد: من السفينة إلى الأرض. ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ أي: بسلامة.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ قال المفسرون: البركات عليه: أنه صار أبًا للبشر جميعًا، لأن جميع الخلق من نسله. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ قال ابن عباس: يريد: من ولدك. قال ابن الأنباري: المعنى: من ذراري من معك، والمراد: المؤمنون من ذريته. ثم ذكر الكفار، فقال: ﴿وَأُمَمٞ﴾ أي: من الذرية أيضًا، والمعنى: وفيمن نَصِفُ لك أُمم، وفيمن نقصُّ عليك أمره أُمم. ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة. قال محمد بن كعب القرظي: لم يبق مؤمن ولا مؤمنة في أصلاب الرجال وأرحام النساء يومئذ إلى أن تقوم الساعة إلا وقد دخل في ذلك السلام والبركات، ولم يبق كافر إلا دخل في ذلك المتاع والعذاب.

❁ ❁ ❁

س: ما مدى صحة هذا الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ وَسَمِعَتْهُ يَقْرَأُ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وَلَا يُبَالِي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]؟

ج: هو حديث ضعيف الإسناد.

❁ ❁ ❁

---

(١) أحمد (٦/ ٤٥٤)، وغيره وفي سنده شهر بن حوشب متكلم فيه والخبر لا يصح.

أدبٌ رفيع من آداب الدعاء
ولفتة إلى تواضع الأنبياء عليهم السلام واعتراضهم بضعفهم لله عز وجل

س: في قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ أدبٌ رفيع ينبغي أن نتأدب به، ولفتة إلى أمرٍ عظيم وضح ذلك؟

ج: هذا الأدب الرفيع مؤداه أن نوحًا عليه السلام يعترف بضعفه لربّه عز وجل فالمعنى أما يا رب وقد نهيتني عن سؤال ما ليس لي به علم فيا رب لن أستطيع امتثال ذلك إلا إذا حفظتني وعصمتني من سؤال ما ليس لي به علم، أما إذا تركتني وأني فإني ضعيف فلا حول ولا قوة لي إلا بك.

وهذا كالمعنى في قوله: (لا حول ولا قوة إلا بالله) أي: فلا تحوُّل لي عن سؤالي ما ليس به علم إلا إذا حوَّلتني ونحو ما ذُكر قول الصديق يوسف صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

وقول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الأنعام: ٨٠].

أي: أنني لا أخشى أصنامكم ولا أوثانكم إلا إذا أراد الله لي أن أخاف منها. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: تلك القصة التي قصصناها عليك يا رسول الله في شأن نبي الله نوح عليه السلام من الأخبار الغيبية التي لم تَرها ولم تشهدها أوحيناها إليك فتقصها عليهم أحسن اقتصاص وأجمل اقتصاص، وما كنت

تعلم شيئًا من هذه الأخبار أنت ولا قومك من قبل نزول هذا القرآن عليك فاصبر يا رسول الله على قضاء الله، واصبر على أذى قومك فإن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة لأهل التقى، الذين يتقون الشرك بالله، ويتقون معاصيه ومساخطه، والله أعلم.

وبنحو ذلك قال عدد من أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ: هذه القصة التي أنبأتك بها من قصة نوح وخبره وخبر قومه ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، يقول: هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها فتعلمها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، يقول: نوحيها إليك نحن، فنعرفكها ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾، الوحي الذي نوحيه إليك، ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾، على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من مشركي قومك، كما صبر نوح ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾، يقول: إن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله، فأدّى فرائضه، واجتنب معاصيه، فهم الفائزون بما يؤمِّلون من النعيم في الآخرة، والظفر في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبة نوح إذ صبر لأمر الله، أنْ نجّاه من الهلكة مع من آمن به، وأعطاه في الآخرة ما أعطاه من الكرامة، وغرَّق المكذبين به فأهلكهم جميعهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾، القرآن، وما كان عَلم محمدٌ ﷺ وقومه ما صنع نوحٌ وقومه، لولا ما بيَّن الله في كتابه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: هذه القصة وأشباهها ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ يعني: من

أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها، كأنك شاهدها، ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: نعلمك بها وحيا منا إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ في المشار إليه بـ﴿تِلۡكَ﴾ قولان:

أحدهما: قصة نوح.

والثاني: آيات القرآن.

والمعنى: تلك من أخبار ما غاب عنك وعن قومك.

فإن قيل: كيف قال هاهنا: «تلك» وفي مكان آخر «ذلك»؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري.

فقال: «تلك» إشارة إلى آيات القرآن، و«ذلك» إشارة إلى الخبر والحديث، وكلاهما معروف في اللغة الفصيحة، يقول الرجل: قد قدم فلان، فيقول سامعٌ قولَه: قد فرحت به، وقد سررت به، فإذا ذكّر، عنى القدوم، وإذا أنَّث، ذهب إلى القَدْمَة.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ يعني: القرآن. ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ كما صبر نوح على أذى قومه ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ﴾ أي: آخر الأمر بالظفر والتمكين ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: لك ولقومك كما كان لمؤمني قوم نوح.

❁ ❁ ❁

الإشارة إلى نبوة رسول الله ﷺ بإخباره بأمور غيبية سبقت لم يكن له بها علم ولا لقريش بها علم

س: كثيرًا ما يستدل على نبوة النبي ﷺ بما أخبر به أمور سبقت ولم يكن له ولا لقوم بها من علم، وضح ذلك؟

ج: إيضاحه: أنك يا رسول الله، أأنت أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، ومع ذلك تقصي أخبار من قد سبق أحسن اقتصاص وتسردها أحسن سرد وتوردها بالحق كما حدثت بوحي من الله إليك فكان من الجدير بالقوم أن يؤمنوا وهم يعلمون صوتك وأمانك.

ونحو ما ذُكر في الاستدلال، قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

إلى غير ذلك، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ
﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي
أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا
تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ
وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا
جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ
﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ
﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا
لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ مُفۡتَرُونَ - فَطَرَنِيٓۚ - تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ - مِّدۡرَارٗا -وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ - بِبَيِّنَةٖ - ٱعۡتَرَىٰكَ - فَكِيدُونِي - لَا تُنظِرُونِ - تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ - دَآبَّةٍ - ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ - إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ - وَيَسۡتَخۡلِفُ - حَفِيظٞ - عَذَابٍ غَلِيظٖ - جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ - جَبَّارٍ عَنِيدٖ - وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ - كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ - بُعۡدٗا لِّعَادٖ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿مُفۡتَرُونَ﴾	كذبة – يختلقون الكذب.
﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾	خلقني.
﴿تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾	ارجعوا إليه.
﴿مِّدۡرَارٗا﴾	متتابعًا – يتبع بعضه بعضًا.
﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾	ولا تنصرفوا وتعرضوا مجترمين الآثام متحملين الكفر ولا تنصرفا كما ينصرف أهل الإجرام والإعراض.
﴿بِبَيِّنَةٖ﴾	بحجةٍ – ببرهان على نبوتك وصدقك.
﴿ٱعۡتَرَىٰكَ﴾	أصابك – مسَّك.
﴿فَكِيدُونِي﴾	تآمروا علي – أنزلوا بي ما أردتم من العذاب والبطش فكروا في مكيدةٍ تصنعونها لي لإهلاكي.
﴿لَا تُنظِرُونِ﴾	لا تؤخرون – لا تمهلون.
﴿تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾	اعتمدت على الله.

﴿دَآبَّةٍ﴾	شيءٌ يدب على الأرض وشيء له روح.
﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾	ممسك بمقدمة رأسها وشعرها – ومالك أمرها وقادر عليها يفعل بها ما يشاء.
﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	إن ربي على طريق الحق المستقيم، وهو طريق الإسلام والإيمان فمن سلكه وفق لطاعة الله ومرضاته، وقيل: على صراط مستقيم يقضي بالحق بين العباد.
﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾	يأتي بقوم من بعدكم يكونون خلفاءكم.
﴿حَفِيظٌ﴾	حفيظ للأعمال – حفيظ للعباد وعليم بهم.
﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾	عذاب شديد (وهو عذاب يوم القيامة).
﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾	أنكروا آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته.
﴿جَبَّارٍ﴾	متعاظم على العباد – متكبر عليهم – قتالٌ مفسد في الأرض يجبر الناس على ما يريده بالقوة والقهر.
﴿عَنِيدٍ﴾	معاندٌ للحق لا يقبله.
﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾	أُلحقوا لعنة، كل من جاء بعدهم يلعنهم ويدعوا عليهم بالطرد من رحمة الله
﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾	كفروا وحدانية ربهم – كفروا نعمة ربهم – كفروا بعذاب ربهم وأنكروه.
﴿بُعْدًا لِّعَادٍ﴾	سخطًا وهلاكًا لقوم عاد.

❁ ❁ ❁

شيءٌ من ذِكر نبي الله هود ﷺ

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ولقد أرسلنا إلى قبيلة عادٍ، تلك القبيلة العاتية الظالمة الغشومة التي أمدَّها الله ﷻ بالقوة في الأبدان والطول في الأجسام فما شكروا نعمة الله وما عبدوه وما وحدوه بل أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وحادوا عن عبادته وحده لا شريك له وبغوا على العباد وطغوا، فأرسل الله ﷻ إليهم نبيًّا كريمًا منهم أخًا لهم في النسب، فقال: يا قوم اعبدوا الله ولا تشركوا معه في العبادة غيره فما لكم من معبوده سواه ﷻ، وما أنتم بصنيعكم الذي صنعتموه من عبادة غير الله ﷻ واتخاذكم شريكًا لله، ما أنتم بهذا الصنيع إلا كذبة أهل افتراء وكذب في دعواكم آلهة مع الله، ومفترون كونكم عبدتم مع الله إلهًا آخر.

ثم يواصل هود عَلَيْهِ السَّلَامُ نصحه وتذكيره ويبين لهم أنه لا يسألهم على إيمانهم بالله وتوحيدهم أجرًا يتقاضاه فليس هو بمتسبب في امتناعهم عن الإسلام والإيمان، فيقول يا قوم لا أسألكم عليه – أي على الإيمان والتوحيد – أجرًا مقابل دعوتي لكم إنما أطلب أجري من الله، وأطلب ثواب عملي من الله الذي خلقني على غير مثالٍ سابق أليست عندكم عقول تفهمون بها وتعقلون بها ثم يواصل التذكير والنصح قائلًا: ويا قوم استغفروا ربكم مما صدر منكم من

الشرك والعصيان والتمرد على الله، ثم ارجعوا إليه فما هو آت وأطيعوه ووحّدوه واستقيموا على أمره يرسل عليكم الأمطار متتابعة بالقدر الذي تحتاجون إليه، ويزدكم قوة في أبدانكم إلى قوتكم وغنًى إلى غناكم، وخصبًا في أراضيكم إلى خصوبتها، ولا تعرضوا عن تذكيري، ولا تنصرفوا عن دعوتي فارين منها رافضين لها مجترمين بذلك الذنوب والآثام، مُقترفين السيئات والشرك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هودًا، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده لا شريك له، دون ما تعبدون من دونه من الآلهة والأوثان. ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾، يقول: ليس لكم معبود يستحق العبادة عليكم غيره، فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهة ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾، يقول: ما أنتم في إشراككم معه الآلهة والأوثان إلا أهل فرية مكذبون، تختلقون الباطل، لأنه لا إله سواه.

ويقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هود لقومه: يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وخلع الأوثان والبراءة منها، جزاءً وثوابًا ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾، يقول: إن ثوابي وجزائي على نصيحتي لكم، ودعائكم إلى الله، إلا على الذي خلقني ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾، يقول: أفلا تعقلون أني لو كنت ابتغي بدعايتكم إلى الله غير النصيحة لكم، وطلب الحظ لكم في الدنيا والآخرة، لالتمست منكم على ذلك بعض أعراض الدنيا، وطلبت منكم الأجر والثواب؟

ويقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، يقول: آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم.

والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هودًا ﷺ إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [نوح: ٣، ٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، يقول: ثم توبوا إلى الله من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره بعد الإيمان به ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، يقول: فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به، أرسل قَطْر السماء عليكم يدرَّ لكم الغيثَ في وقت حاجتكم إليه، وتحيَا بلادكم من الجدب والقَحط.

وأورد في قوله تعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ قول مجاهد، من طريق ابن أبي نجيح[1]، عنه: شدة إلى شدتكم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، قال: جعل لهم قوة، فلو أنهم أطاعوه زادهم قوة إلى قوتهم. وذكر لنا أنه إنما قيل لهم: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، قال: إنه قد كان انقطع النسل عنهم سنين، فقال هود لهم: إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد، لأن ذلك من القوة. وقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾، يقول: ولا تدبروا عما أدعوكم إليه من توحيد الله، والبراءة من الأوثان والأصنام ﴿مُجۡرِمِينَ﴾، يعني: كافرين بالله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ولقد أرسلنا، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهيا لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة،

(١) وفي طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بعض الكلام.

وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة .

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه؛ ولهذا قال: ﴿ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ ﴾ [نوح:١١].

❁ ❁ ❁

الاستغفار والإيمان من أسباب سعة الأرزاق

س: الاستغفار والتوبة والإيمان من أسباب سعة الرزق دلِّل على ذلك؟

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)﴾ [هود: ٣].

وقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢)﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ...﴾ [المائدة: ٦٦].

وقول سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص: ٣٥-٣٦].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾.

ج: هذا، والعلم عند الله جواب قوم هودٍ لهودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فقالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، بحجة ولا برهان على صدقك فيما تقول، ولسنا بتاركي عبادة آلهتنا من الأوثان والأصنام وغير ذلك

لمجرد قولك وما نحن لك في دعوتك لنا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى إقرارنا ببطلان عبادة الأصنام بمصدقين ولا بموقنين ولا بمتبعين، ولا نراك على صواب ولا على حق بل نقول في شأنك وما بك إلا أن بعض آلهتنا التي نعبدها أصابتك بمسٍّ وجنون وخللس في عقلك لما دعوت إلى ترك عبادتها ولما دعوت إلى عبادة الله وحده. هذا الذي نراه حلَّ بك.

فقال لهم نبيهم هود عليه السلام، وقد ثبته الله على الحق والصواب والإسلام والإيمان ورزقه حسن التوكل على الله، قال لقومه: إني أُشهد الله، وأطلق على أمري الذي في نفسي وفي قلبي وعلى لساني، وهو مطلعٌ على ذلك لا يخفى عليه من خافية لا في سري ولا في جهري، وأشهدكم، وأُظهر ديني وأوضحه لكم وأعلمكم به، أشهد الله واشهدوا أنتم عليَّ أيضًا بما أقول أني بريء مما تشركون أني بريء من هذه الأصنام والأوثان لا أقربها ولا أُقرُّ بعبادتها وبريء من أي عذابٍ يُصيبكم بسبب عبادتكم لها، بريء من هذه الأصنام والأوثان والآهلة الباطلة التي جعلتموها شريكة لله وعبدتموها مع الله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ فافعلوا بي كلكم أنتم جميعًا مع أصنامكم وآلهتكم – افعلوا بي ما تستطيعوا فعله، تآمروا عليَّ – فكِّروا في الحيل والمكائد التي تستطيعوا إيصال الضرر إليَّ بها فافعلوها ثم لا تؤخروني بل نفذوا فيَّ مرادكم إن استطعتم فلست بخائف منكم ولا من آلهتكم ولست بمبالٍ بها ولا مهتشٍّ لها فافعلوا بي ما بدا لكم فإني اعتمدت على الله ووكلت أموري كلها إليه هو خالقي وخالقكم، ومدبر أمري وأمركم، ومتوفاني ويتوفاكم، يفعل في الخلق ما يريد ويقضي في الخلق بما يشاء، وما من دابة تدب على الأرض، وما من دابة لها روحٌ إلا وربي عز وجل آخذ بناصيتها، بمقدم رأسها، وهذا المعنى عند العرب مفاده أن

المأخوذ بناصيته في غايةٍ يكون من الذل والإهانة.

فالله سبحانه وتعالى قادر على كل الخلق نواصيهم بيده يفعل بهم ما يشاء ويقضي فيهم بما يريد.

وبهذا ذكَّر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه وقال لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ على طريق الإسلام يجازي من أسلم وعمل صالحًا، ومن يجازى بالحق وبالعدل، أما طرق الجور والكفر والظلم فليست بموصلة إلى الله ولا إلى مرضاته فإن تعرضوا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وتلذ يونس فقد أبلغتكم ما أرسلني الله إليه به إليكم، ويستخلف ربي قومًا غيركم، يأتي بأقوامٍ آخرين غيركم يخلفونكم بعد إهلاككم يعبدونه وحده لا يشركون به شيئًا، ولن تضروا الله شيئًا بكفركم ولا بأي وجه من وجوه الضرر، فكفركم عائدٌ إثمه عليكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ عليم بكل شيء وحافظ لعمل المخلوقات وأقوالهم وحافظ لعباده المؤمنين من أن ينالهم نائل بمكروه وسوء.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال قوم هود لهود، يا هود ما أتيتنا ببيان ولا برهان على ما تقول، فنسلم لك، ونقر بأنك صادق فيما تدعونا إليه من توحيد الله والإقرار بنبوتك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾، يقول: وما نحن بتاركي آلهتنا، يعني: لقولك: أو من أجل قولك. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: قالوا: وما نحن لك بما تدعي من النبوة والرسالة من الله إلينا بمصدِّقين.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾.

وهذا خبر من الله تعالى ذكره، عن قول قوم هود: أنهم قالوا له، إذ نصح لهم ودعاهم إلى توحيد الله وتصديقه، وخلع الأوثان والبراءة منها: لا نترك عبادة آلهتنا، وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمِّها والنهي عن عبادتها، أنه أصابك منها خبَلٌ من جنونٌ. فقال هود لهم: إني أشهد الله على نفسي وأشهدكم أيضًا أيها القوم، أني بريء مما تشركون في عبادة الله من آلهتكم وأوثانكم من دونه، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، يقول: فاحتالوا أنتم جميعًا وآلهتكم في ضري ومكروهي، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، يقول: ثم لا تؤخرون ذلك، فانظروا هل تنالونني أنتم وهم بما زعمتم أن آلهتكم نالتني به من السوء؟

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول: إني على الله الذي هو مالكي ومالككم، والقيِّم على جميع خلقه، توكلت من أن تصيبوني، أنتم وغيركم من الخلق بسوء، فإنه ليس من شيء يدب على الأرض، إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه. ذليلٌ له خاضعٌ.

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، فخص بالأخذ «الناصية» دون سائر أماكن الجسد.

قيل: لأن العرب كانت تستعمل ذلك في وصفها من وصفته بالذلة والخضوع، فتقول: «ما ناصية فلان إلا بيد فلان»، أي: أنه له مطيع يصرفه كيف شاء. وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه، جزُّوا ناصيته، ليعتدّوا بذلك عليه فخرًا عند المفاخرة. فخاطبهم الله بما يعرفون في كلامهم، والمعنى ما ذكرت.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾، يقول: إن ربي على طريق الحق،

يجازي المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته، لا يظلم أحدًا منهم شيئًا ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان به

قال الطبري أيضًا:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هود لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، يقول: فإن أدبروا معرضين عما أدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الأوثان ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ أيها القوم ﴿مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، يهلككم ربي، ثم يستبدل ربي منكم قومًا غيركم، يوحّدونه ويخلصون له العبادة ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾، يقول: ولا تقدرون له على ضرّ إذا أراد إهلاككم أو أهلككم.

وقد قيل: لا يضره هلاككُم إذا أهلككم، لا تنقصونه شيئًا، لأنه سواء عنده كُنتم أو لم تكونوا.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾، يقول: إن ربي على جميع خلقه ذو حفظ وعلم. يقول: هو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ بمصدقين، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾. يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقا، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ أي: طرفة عين.

وقولـه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

ثم قال:

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

ويقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به، ولا يبالي بكم: فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وَبَال ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي أصابك. ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ أي أصنامنا. ﴿بِسُوٓءٍۗ﴾ أي بجنون لسبك إياها، عن ابن عباس وغيره. يقال: عراه الأمر واعتراه إذا ألم به. ومنه ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ﴾ [الحج: ٣٦]. ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ أي على نفسي. ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ ﴾ أي وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة، ولكنه نهاية للتقرير؛ أي لتعرفوا ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي من

عبادة الأصنام التي تعبدونها. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري. ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أي لا تؤخرون. وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى. وهو من أعلام النبوة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾. وكذلك قال النبي ﷺ لقريش. وقال نوح ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ﴾ أي رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي نفس تدب على الأرض؛ وهو في موضع رفع بالابتداء. ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أي فلا تصلون إلى ضري. وكل ما فيه روح يقال له داب ودابه؛ والهاء للمبالغة. وقال الفراء: مالكها، والقادر عليها. وقال القتبي: قاهرها؛ لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته. وقال الضحاك: يحييها ثم يميتها؛ والمعنى متقارب. والناصية قصاص الشعر في مقدم الرأس. ونصوت الرجل أنصوه نصوا أي مددت ناصيته. قال ابن جريج: إنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذلة والخضوع؛ فيقولون. ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء. وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخرا عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه في كلامهم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ قال النحاس: الصراط في اللغة المنهاج الواضح؛ والمعنى أن الله جل ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق. وقيل: معناه لا خلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه

سبحانه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التاء لاجتماع تاءين. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ بمعنى قد بينت لكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾. وروي عن حفص عن عاصم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف: ١٨٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ أي بتوليكم وإعراضكم. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧﴾ أي لكل شيء حافظ. «على» بمعنى اللام؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة، تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه، إلا وبعث الله على يديه، من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله، وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح، وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش، والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من الصفات، التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها

آيات وأدلة، على صدقه.

بل أهل العقول، وأولو الألباب، يرون أن هذه الآية، أكبر من مجرد الخوارق، التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط.

ومن آياته، وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان.

وهو يصرخ في قومه، ويناديهم، ويعجزهم، ويقول لهم: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾.

﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾

وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي طريق كان، وهو غير مكترث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك، الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم، ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم، هود عليه السلام، في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿ إِن نَّقُولُ ﴾ فيك ﴿ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ أي: أصابتك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة، التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم.

ولهذا بين هود، عليه الصلاة والسلام، أنه واثق غاية الوثوق، أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى، فقال: ﴿ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أي اطلبوا لي الضرر كلكم بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ ﴾ أي لا تمهلوني.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي اعتمدت في أمري كله على الله ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ أي هو خالق الجميع ومدبرنا وإياكم وهو الذي ربانا

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بي والله لم يسلطكم علي لم تقدروا على ذلك فإن سلطكم فلحكمة أرادها

ف ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي على عدل وقسط وحكمة وحمد في قضائه وقدره في شرعه وأمره وفي جزائه وثوابه وعقابه لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد ويثنى عليه بها

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عما دعوتكم إليه ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ ﴾ فلم يبق عليَّ تبعة من شأنكم

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئا ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ ﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم فالله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة المطيعين ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧ ﴾.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال مجاهد: على الحق. وقال غيره: في الكلام إضمار، تقديره: إن ربي يدل على صراط مستقيم.

فإن قيل: ما وجه المناسبة بين قوله: ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ وبين كونه على صراط مستقيم؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنه لما أخبر أنه آخذ بنواصي الخلق، كان معناه: أنهم لا يخرجون عن قبضته، فأخبر أنه على طريق لا يعدل عنه هارب، ولا يخفي عليه مستتر.

والثاني: أن المعنى: أنه وإن كان قادرًا عليهم، فهو لايظلمهم، ولايريد إلا العدل، ذكرهما ابن الأنباري.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ولما جاء أمرنا بإهلاك قوم عادٍ المكذبين لرسولهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا الأمر كان بإهلاكهم بريح صرصرٍ عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، ولما جاء أمر الله بذلك أنجى الله عَزَّ وَجَلَّ هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ والمؤمنين الذين آمنوا بالله واتبعوا هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مصدقين بأنه رسول من عند الله، أنجاهم الله بفضله ورحمهم من العذاب برحمته، وكذلك أنجاهم من عذاب الله الغليظ الشديد الكائن يوم القيامة لأهل الكفر والتكذيب، أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أنجاهم من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

أما عاد الذين جحدوا بآيات الله فأنكروها وكذبوا بها ولم يستدلوا بها على قدرته ووحدانيته وعصوا رسولهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما دعاهم إليه من توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ وإفراده بالعبادة وطاعته، فكان عصيانهم له عصيانًا لكل الرسل؛ لأن الرسل كلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته فمن خالف رسولًا فقد خالف الرسل كلهم، ومن عصاه فقد عصاهم جميعًا.

أمـا قولـه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ أي: أن عامـة قبيلـة عـاد اتبعـوا كبراءهم والفجار فيهم والظلمة والجبابرة والمعاندين على ما دعوهم إليه من الكفر بالله ﷻ والشرك به وتكذيب المرسلين.

وتبعتهم بعد موتهم في الدنيا لعنات فمن جاء بعدهم يلعنهم ويسبهم، وكذا يوم القيامة ينادى على رؤوس الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. ألا فاعلموا أيها الناس أن عادًا كفروا ربهم، كفروا بنعم ربهم، وجحدوا وحدانيته ﷻ ألا فهلاكًا وخسارًا لقبيلة عاد الذين هم قوم النبي الكريم هود عليه السلام.

وبنحو هذا قال أهل التأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولما جاء قوم هود عذابُنا، نجينا منه هودًا والذين آمنوا بالله معه ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، يعني: بفضل منه عليهم ونعمة، ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾، يقول: نجيناهم أيضًا من عذاب غليظ يوم القيامة، كما نجيناهم في الدنيا من السخطة التي أنزلتها بعادٍ.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾.

يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين أحللنا بهم نقمتنا وعذابنا، عادٌ، جحدوا بأدلة الله وحججه، وعصوا رسله الذين أرسلهم إليهم للدعاء إلى توحيده واتباع أمره ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾، يعني: كلّ مستكبر على الله، حائد عن الحق، لا يُذعن له ولا يقبله.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ

رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: وأتبع عاد قوم هود في هذه الدنيا غضبًا من الله وسخطةً يوم القيامة، مثلها، لعنةً إلى اللعنة التي سلفت لهم من الله في الدنيا ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾، يقولُ: أبعدهم الله من الخير.

يقال: «كفر فلان ربه وكفر بربه»، «وشكرت لك، وشكرتك».

وقيل: إن معنى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾، كفروا نعمةَ ربهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها، وعَصَوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد، ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا بهلاك عاد. ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت له أعمال صالحة. وفي صحيح مسلم والبخاري وغيرهما عن النبي ﷺ «**لن ينجي أحدا منكم عمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ ! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه**». وقيل: معنى ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ بأن بينا لهم الهدى الذي هو رحمة.

وكانوا أربعة آلاف. وقيل: ثلاثة آلاف. ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ أي عذاب يوم القيامة. وقيل: هو الريح العقيم كما ذكر الله في «الذاريات» وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ﴾ ابتداء وخبر. وحكى الكسائي أن من العرب من لا يصرف ﴿عَادٞۖ﴾ فيجعله اسما للقبيلة. ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي كذبوا بالمعجزات وأنكروها. ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ يعني هودا وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] يعني النبي ﷺ وحده؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه؛ وإنما جمع ههنا لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل. وقيل: عصوا هودا والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ أي اتبع سقاطهم رؤساءهم. والجبار المتكبر. والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عبيد: العنيد والعنود والعاند والمعاند المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعرق الذي ينفجر بالدم عاند. وقال الراجز:

إنــي كبيــر لا أطيــق العُنَّــدا

قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ أي ألحقوها. ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي واتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾. ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ قال الفراء: أي كفروا نعمة ربهم؛ قال: ويقال كفرته وكفرت به، مثل شكرته وشكرت له. ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ أي لا زالوا مبعدين عن رحمة الله. والبعد الهلاك والبعد التباعد من الخير. يقال: بعد يبعد بعدا إذا تأخر وتباعد. وبعد يبعد بعدا إذا هلك.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ ﴿أضواء البيان﴾:

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ الآية.

لم يبين هنا أمره الذي جاء الذي نجى منه هوداً والذين آمنوا معه عند مجيئه. وكلنه بين في مواضع أخر: أنه الإهلاك المستأصل بالريح العقيمز التي أهلكهم الله بها فقطع دابرهم. كقوله: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٤١ – ٤٢].

وقوله: ﴿ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا ﴾ [الحاقة: ٦ –٧] الآية.

وقوله ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر: ١٩ – ٢٠].

وقوله: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ ﴾ [فصلت: ١٦] الآية.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ أي: واتبع الأتباع أمر الرؤساء.

والجبار: الذي طال وفات اليد. وللعلماء في الجبار أربعة أقوال:

أحدها: أنه الذي يقتل على الغضب ويعاقب على الغضب، قاله الكلبي.

والثاني: أنه الذي يجبر الناس على ما يريد، قاله الزجاج.

والثالث: أنه المسلَّط.

والرابع: أنه العظيم في نفسه، المتكبّر على العباد، ذكرهما ابن الأنباري.

والذي ذكرناه يجمع هذه الأقوال، وقد زدنا هذا شرحًا في ﴿المائدة: ٢٢﴾.

وأما العنيد: فهو الذي لا يقبل الحق. قال ابن قتيبة: العَنود، والعنيد،

والعاند: المعارض لك بالخلاف عليك.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أُلحقوا لعنة تنصرف معهم. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: وفي يوم القيامة لُعنوا أيضًا. ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي: بربهم، فحذف الباء، وأنشدوا:

أَمَرتُكَ الخيرَ فافعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ   فقد تَرَكْتُكَ ذا مَالٍ وَذا نَشَبِ

قال الزجاج: قوله: «ألا» ابتداء وتنبيه، و«بُعدا» منصوب على معنى: أبعدهم الله فبعدوا بعدًا، والمعنى: أبعدهم من رحمته.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا بإرسال الريح العقيم التي ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ أي عظيم شديد أحله الله بعاد فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع المرسلين لأن دعوتهم واحدة.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ أي متسلط على عباد الله بالجبروت ﴿عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ أي معاند لآيات الله فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فكل وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ لهم أيضا لعنة

﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ ﴾ أي جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم ﴿ أَلَا بُعۡدًا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠ ﴾ أي أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

❁ ❁ ❁

من عصى رسولاً فقد عصى الأنبياء جميعًا

س: كيف قيل: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ وهو رسول واحد عليه السلام؟

ج: ذلك ـ والله أعلم ـ: لأن من كذب رسولًا فقد كذبهم جميعًا ذلك لكون أصل دعوتهم، وهو توحيد الله عز وجل واحدٌ بين جميع المرسلين فكلهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له فمن كذب واحدًا، فقد كذبهم جميعًا.

هذا، وقد قال ابن الجوزي في زاد المسير:

﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ لقائل أن يقول: إنما أُرسل إِليهم هود وحده، فكيف ذُكر بلفظ الجمع؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قد يذكر لفظ الجمع ويراد به الواحد، كقوله: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤] والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم وحده.

والثاني: أن من كذَّب رسولًا واحدًا فقد كذَّب الكلَّ.

والثالث: أن كل مرة ينذرهم فيها هي رسالة مجدَّدة وهو بها رسول.

❁ ❁ ❁

شيءٌ من ذِكر نبي الله صالح عليه السلام

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
(٦١) قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا
وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ
أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟
فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ
جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ
(٦٨) ﴾ [هود: ٦١-٦٨].

س: اذكر معنى ما يلي: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ - وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا - مُّجِيبٞ - مَرۡجُوّٗا - شَكّٖ - مُرِيبٖ - بَيِّنَةٖ - رَحۡمَةٗ - يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ - تَخۡسِيرٖ - ءَايَةٗ - فَذَرُوهَا - فَعَقَرُوهَا - تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ - غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ - خِزۡيِ - يَوۡمِئِذٍۚ - ٱلصَّيۡحَةُ - جَٰثِمِينَ - لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ - كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾	خلقكم من الأرض – ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم عليه السلام من ترابها.
﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾	أسكنكم فيها – جعلكم عُمارًا لها.
﴿مُّجِيبٞ﴾	مجيب لدعاء من دعاه (إذا شاء).
﴿مَرۡجُوّٗا﴾	نرجو أن تكون لك السيادة علينا، وقيل: نستعد لك لتكون ملكًا علينا وقيل: كنت ذا وجاهة فينا يقبل قولك وتقبل شفاعاتك.
﴿شَكّٖ﴾	عدم يقين.
﴿مُرِيبٖ﴾	مقلق – مُحيِّر.
﴿بَيِّنَةٖ﴾	برهان – بصيرة – حجة.
﴿رَحۡمَةٗ﴾	نبوة.
﴿يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾	يمنعني من عذاب الله
﴿تَخۡسِيرٖ﴾	خسرانًا – خسارة.
﴿ءَايَةٗ﴾	معجزة – دليلًا (على نبوتي وصدقي).

﴿فَذَرُوهَا﴾	فاتركوها.
﴿فَعَقَرُوهَا﴾	قتلوها.
﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾	امكثوا أحياء في بلادكم.
﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾	غير مُكذَّب.
﴿خِزْيِ﴾	ذلٌّ وهوان.
﴿يَوْمِئِذٍ﴾	يوم نزول العذاب على ثمود.
﴿الصَّيْحَةُ﴾	الصوت الشديد القاتل المميت.
﴿جَاثِمِينَ﴾	هلكى قد لصقت أجسادهم بالتراب.
﴿لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾	لم يعيشوا في الدنيا ولم ينعموا فيها.
﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾	جحدوا وحدانية ربِّهم ﷻ، وكفروا بنعمه عليهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

ج: المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ: ولقد أرسلنا إى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا عليه السلام، وهو أخوهم في النسب فقال لهم مُذكرًا يا قوم اعبدوا الله، أفردوه وحده بالعبادة والطاعة فليس لكم معبودٌ يستحق العبادة غيره، وليس لكم من خالق ولا رازق ولا رب سواه، هو الذي ابتدأ خلقكم من الأرض، إذا خلق أباكم آدم عليه السلام من ترابها ثم جعلكم عُمارًا للأرض تبنون فيها وتسكنون، وتزرعون وتحصدون، وتنعموم وتأمنون، فاستغفروه من ذنوبكم التي أذنبتموها، ثم اجرعوا إليه فيما هو آت واسألوه ما تريدون فهو قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، فقال لهم: يا قوم، اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلهة، فما لكم من إله غيره يستوجب عليكم العبادة، ولا تجوز الألوهة إلا له ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: هو ابتدأ خلقكم من الأرض.

وإنما قال ذلك لأنه خلق آدم من الأرض، فخرج الخطاب لهم، إذ كان ذلك فعله بمن هم منه.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، يقول: وجعلكم عُمَّارًا فيها، فكان المعنى فيه: أسكنكم فيها أيام حياتكم.

من قولهم: «أعْمر فلانٌ فلانًا دارَه»، و«هي له عُمْرَى».

وقوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾، يقول: اعملوا عملا يكون سببًا لستر الله عليكم ذنوبكم، وذلك الإيمان به، وإخلاص العبادة له دون ما سواه، واتباعُ رسوله صالح ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾، يقول: ثم اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم، إلى ما يرضاه ويحبه ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، يقول: إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مجيبٌ له إذا دعاه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ابتدأ خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم، ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمَّارا تعمرونها وتستغلونها، لسالف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ فيما تستقبلونه؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خلقكم فيها ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم، من الكفر، والشرك، والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح، والإنابة، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ

مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق: ١٦]، والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ١٩].

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢١٦] وهذا النوع، قرب يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن، باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: جواب قوم صالح لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا ﴾ كانت لك عندنا منزلةً كبيرة، قيل كانوا يعدونه كي يكون ملكًا عليهم، وكانت له وجاهة فينا قبل أن تقول ما قلت، وقيل أن تدعو إلى ما دعوت إليه، أتنهانا عن عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا وعن عبادة الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا، وإننا لفي شكٍّ وعدم يقين من قولك بأن الذي يُعبد هو الله وحده لا شريك له، إننا في شك من

ذلك وعدم يقين، إننا في شك من ذلك مُحير ومُقلق في شكٍّ كبير من هذا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت ثمود لصالح نبيِّهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾، أي كنا نرجُو أن تكون فينا سيدًا قبل هذا القول الذي قلته لنا، من أنه مالنا من إله غير الله ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، يقول: أتنهانا أن نعبد الآلهة التي كانت آباؤنا تعبدها ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، يعنون أنهم لا يعلمون صحَّة ما يدعوهم إليه من توحيد الله، وأن الألوهة لا تكون إلا لهُ خالصًا.

وقوله: ﴿مُرِيبٖ﴾، أي يوجب التهمة، من «أربته فأنا أريبه إرابة»، إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة، ومنه قول الهذلي:

كُنْتُ إذَا أَتَوْتُهُ مِنْ غَيْبِ ... يَشَمُّ عِطْفِي وَيَبُزُّ ثَوْبِي

كَأَنَّمَا أَرَبْتُهُ بِرَيْبِ

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت! ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ أي: شك كثير.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم، لأنه كان ذا حسب وثروة، قاله كعب.

والثاني: أنه كان يبغض أصنامهم ويعدل عن دينهم، وكانوا يرجون رجوعه

إلى دينهم، فلما أظهر إنذارهم، انقطع رجاؤهم منه وإلى نحو هذا ذهب مقاتل.

والثالث: أنهم كانوا يرجون خيره، فلما أنذرهم، زعموا أن رجاءهم لخيره قد انقطع، ذكره الماوردي.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم، لنبيهم صالح، أنه ما زال معروفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه، لما جاءهم بهذا الأمر، الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة، التي مضمونها، أنك قد كنت كاملا والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه، ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم، وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة، من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئا من الأحجار، والأشجار ونحوها. وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم، الذي لم تزل نعمه عليهم تترى، وإحسانه عليهم دائما ينزل، الذي ما بهم من نعمة، إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه، شكا مؤثرا في قلوبنا الريب، وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه، لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم ﴿في الآية التي بعدها﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾؟

ج: هذا ـ والله أعلم ـ: جواب نبي الله صالح عليه السلام يقول لقومه الذين آثروا عبادة الأصنام وأظهروا شكَّهم وارتيابهم فيما يدعوهم إليه، قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بصيرة آتاني الله إياها وعلى علمٍ من الله ﷻ وبرهانٍ وآتاني نبوةً من عنده فمن ذا الذي يمنعني من عذاب الله إن عصيت ربي ﷻ، فما تزيدونني إن أطعتكم إلا خسارًا، وقيل: فما تزيدونني بردِّكم عليَّ وامتناعكم من الإيمان إلا تكذيبًا تنالون به سخطًا من الله ﷻ، وإن كنتم يا قوم سألتم دليلًا على نبوتي، وآية وعلامة على أنني رسول من عند الله ﷻ، وبرهانًا ومعجزةً فهذه ناقة الله العظيمة الهائلة التي أُخرجت لكم كما طلبتم والتي تشربون لبنها يومًا إذ لبنها يكفيكم، وتشرب هي ماء البئر يومًا كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]، فاتركوا الناقة تأكل في أرض الله فلستم برازقيها ولا تقربوها بمكروه ولا سوء فيحل بكم إن أنتم عقرتموها أو آذيتموها عذاب قريب في الدنيا، ليس ببعيد.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال صالح لقومه من ثمود: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، يقول: إن كنت على برهان وبيان من الله قد علمته وأيقنته ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾، يقول: وآتاني منه النبوة والحكمة والإسلام ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾، يقول: فمن الذي يدفع عنِّي عقابه إذا عاقبني إن أنا

عصيته، فيخلصني منه ، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾، بعذركم الذي تعتذرون به، من أنكم تعبدون ما كان يعبدُ آباؤكم، ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾، لكم يخسركم حظوظكم من رحمة الله.

ويقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل صالح لقومه من ثمود، إذ قالوا له: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾، وسألوه الآية على ما دعاهم إليه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، يقول: حجة وعلامة، ودلالة على حقيقة ما أدعوكم إليه ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، فليس عليكم رزقها ولا مئونتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، يقول: لا تقتلوها ولا تنالوها بعقْر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ يقول: فإنكم إن تمسوها بسوء يأخذكم عذاب من الله غير بعيد فيهلككم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان، ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ أي: خسارة.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ التخسير: النقصان.

وفي معني الكلام قولان:

أحدهما: فما تزيدونني غيرَ بَصَارَةٍ في خسارتكم، قاله ابن عباس. وقال الفراء: المعنى: فما تزيدونني غير تخسيرٍ لكم، أي: كلما اعتذرتم عندي بعذر فهو يزيدكم تخسيرًا. وقال ابن الأعرابي: غير تخسير لكم، لا لي. وقال بعضهم: المعنى: فما تزيدونني بما قلتم إلا نسبتي لكم إلى الخسارة.

والقول الثاني: فما تزيدونني غير الخسران إِن رجعتُ إِلى دينكم، وهذا معنى قول مقاتل.

فإن قيل: فظاهر هذا أنه كان خاسرًا، فزادوه خسارًا، فقد أسلفنا الجواب في قوله: ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾ [التوبة: ٤٧].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي: برهان ويقين مني ﴿ وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ ﴾ أي: منَّ علي برسالته ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه، وما تدعونني إليه؟.

﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي: غير خسار وتباب، وضرر. ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾ لها شرب من البئر يوما، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي: بعقر.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم– فلم يعبأ قوم صالح بتذكير صالح ولا بتحذيره لهم من عقر الناقة بل أقبلوا عليها وقتلوها، فقال لهم نبيهم صالحٌ بعد أن رأوهم قتلوها ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ أي: امكثوا في بلادكم ثلاثة أيام وبعدها يأتيكم عذاب الله ﷻ، وذلك وعدٌ غيرُ مكذب، وقد ذكر عدد من العلماء أن صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبرهم أن علاقة ذلك أن وجوهكم ستصفر في اليوم

الأول، وتحمر في اليوم الثاني، وتسود في اليوم الثالث ثم يأتيكم العذاب، فالله أعلم بصحة ذلك.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فعقرت ثمود ناقة الله ، وفي الكلام محذوفٌ قد ترك ذكرُه، استغناءً بدلالة الظاهر عليه، وهو: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس: ١٤]، فقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، يقول: استمتعوا في دار الدنيا بحياتكم ثلاثة أيام ، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾، يقول: هذا الأجل الذي أجَّلتكم، وَعْدٌ من الله، وعدكم بانقضائه الهلاكَ ونزولَ العذاب بكم ، ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾، يقول: لم يكذبكم فيه من أعلمكم ذلك.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾، وذكر لنا أن صالحًا حين أخبرهم أن العذاب أتاهم لبسُوا الأنطاع والأكسية، وقيل لهم: إن آية ذلك أن تصفرَّ ألوانكم أوَّل يوم، ثم تحمرَّ في اليوم الثاني، ثم تسودَّ في اليوم الثالث. وذكر لنا أنهم لما عقرُوا الناقة ندموا، وقالوا: «عليكم الفَصِيلَ»؟ فصعد الفصيل القارَة ، و«القارة» الجبل ، حتى إذا كان اليوم الثالث، استقبل القبلة، وقال: «يا رب أمي، يا رب أمي »، ثلاثا. قال: فأرسلت الصيحة عند ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين. وقد تقدم الكلام في عقرها «الأعراف». ويأتي أيضا. ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ ﴾ أي قال لهم صالح تمتعوا ؛ أي بنعم الله عَزَّوَجَلَّ قبل العذاب. ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أي في بلدكم، ولو أراد المنزل لقال في دوركم. وقيل: أي يتمتع كل

واحـد مـنكم في داره ومسـكنه ؛ كقولـه: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غـافر: ٦٧] أي كـل واحد طفلا. وعبر عـن التمتع بالحيـاة لأن الميـت لا يتلـذذ ولا يتمتع بشـيء ؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتـاهم العـذاب يوم الأحد. وإنمـا أقـاموا ثلاثـة أيـام ؛ لأن الفصيل رغـا ثلاثـا على مـا تقـدم في «الأعراف» فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول، ثم احمرت في الثاني، ثـم اسـودت في الثالث، وهلكوا في الرابع.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ﴾ أي: استمتعوا بحياتكم، وعبَّر عن الحيـاة بالتمتع، لأن الحيَّ يكون متمتِّعًا بالحواسِّ.

قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ قال المفسرون: لمَّا عُقـرت الناقة صَعِدَ فصيلُها إلى الجبل، ورغا ثلاث مرات، فقال صالح: لكل رغوة أجل يـوم، ألا إن اليـوم الأول تصبح وجوهُكم مُصْفَرَّةً، واليوم الثـاني مُحْمَرَّةً، واليـوم الثالـث مُسْـوَدَّةً؛ فلما أصبحوا في اليوم الأول، إذا وجوههم مصفرة، فصاحوا وضـجوا، وبَكَـوْا، وعَرَفـوا أنَّـه العـذاب، فلمـا أصـبحوا في اليـوم الثـاني، إذا وجـوههم محمـرة، فضـجوا، وبكَـوا، فلمـا أصـبحوا في اليـوم الثالـث، إذا وجـوههم مسـودة كأنمـا طليـت بالقـار، فصـاحوا جميعًـا: ألا قـد حضـركم العـذاب؛ فتكفَّنـوا وألقَـوْا أنفسهم بـالأرض، لا يـدرون مـن أيـن يـأتيهم العـذاب، فلمـا أصـبحوا في اليـوم الرابع، أتتهم صيحة من السماء فيهـا صوت كـلِّ صـاعقة، فتقطَّعـتْ قلـوبُهم في صدورهم.

❁ ❁ ❁

س: العذاب قد يحلَّ بالأقوام فجأة، وقد يرونه مقبلًا عليهم ويعلمون مجيئه ويؤمنون به، وضح ذلك.

ج: نعم قد يحدث هذا فقد يحل البلاء بالقوم فجأة كالكوارث والمصائب والبلايا التي تحل بالعباد من غير ترقب وانتظار، بل مفاجئة مباغتة كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ..﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

وهنا قومُ صالح وُعدوا بالعذاب بعد ثلاثة أيام وظهرت طلائعه فطفقوا ينتظرون حلوله بهم، ولقد قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

ج: **المعنى – والله أعلم –:** فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب على قبيلة ثمود، لما جاء عذابنا نجينا صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه بنعمةٍ منا وفضل ونجيناهم من الذل والهوان، ذل وهوان ذلك اليوم الذي نزل فيه العذاب، فقد أذل الله أهل الكفر وأهانهم، إن ربك هو القوي العزيز الذي لا يغلب ولا يُرد قضائه ولا يُدفع مراده، أما عن أهل الظلم والكفر والجحود والنكران فقد أخذتهم الصيحة الشديدة الطاغية كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥] الصيحة الشديدة فأصبحوا في ديارهم هلكى موتى ملصقين

بالأرض لا حراك لهم، كأنهم لم يعيشوا في الدنيا يومًا ولم ينعموا فيها ولم يسعدوا ألا فهلاكًا وخسارًا لقبيلة ثمود التي كفرت بأنعم ربها وكفرتبوحدانية خالقها، وعبدوا مع الله إلهًا آخر، ألا فسحقًا لهم وبُعدًا عن الخير، وخسارًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما جاء ثمود عذابُنا ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، يقول: بنعمة وفضل من الله، ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾، يقول: ونجيناهم من هوان ذلك اليوم، وذلّه بذلك العذاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾، في بطشه إذا بطش بشيء أهلكه، كما أهلك ثمود حين بطَش بها ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾، فلا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، بل يغلب كل شيء ويقهره.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾.

يقول تعالى ذكره: وأصاب الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله من عقر ناقة الله وكفرهم به، ﴿ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾، قد جثمتهم المنايا، وتركتهم خمودًا بأفنيتهم.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾، يقول: ألا إن ثمود كفروا بآيات ربهم فجحدوها ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾، يقول: ألا أبعد الله ثمود ! لنزول العذاب بهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بوقوع العذاب ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ أي نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية ونجى الرسل وأتباعهم.

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي خامدين لا حراك لهم.

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ أي كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا بها ولا تنعموا بها يوما من الدهر قد فارقهم النعيم وتناولهم العذاب السرمدي الذي ينقطع الذي كأنه لم يزل.

﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ أي جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ فما أشقاهم وأذلهم نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

هذا وقد أورد الطبري بسندٍ ضعيف عن عمرو بن خارجة قال: قلنا له: حدّثنا حديثَ ثمود. قال: أحدثكم عن رسول الله ﷺ عن ثمود: كانت ثمودُ قومَ صالح، أعمرهم الله في الدنيا فأطال أعْمَارهم، حتى جعل أحدهم يبني المسكنَ من المدر، فينهدم، والرَّجلُ منهم حيٌّ. فلما رأوا ذلك، اتخذوا من الجبال بيوتًا فَرِهين، فنحتوها وجَابُوها وجوَّفوها. وكانوا في سعةٍ من معايشهم. فقالوا: يا صالح ادع لنا ربك يخرج لنا آية نعلم أنك رسول الله، فدعا صالح ربَّه، فأخرج لهم الناقة، فكان شِرْبُها يومًا، وشِرْبهم يومًا معلومًا. فإذا كان يوم شربها خَلَّوا عنها وعن الماء وحلبوها لبنًا، ملئوا كل إناء ووعاء وسقاء، حتى إذا كان يوم شربهم صرفوها عن الماء، فلم تشرب منه شيئًا، فملئوا كل إناء ووعاء وسقاء. فأوحى الله إلى صالح: إن قومك سيعقرون ناقتك ! فقال لهم، فقالوا: ما كنا لنفعل ! فقال: إلا تعقروها أنتم، يوشكُ أن يولد فيكم مولود يعقرها. قالوا: ما علامة ذلك المولود؟ فوالله لا نجده إلا قتلناه ! قال: فإنه غلام أشقَر أزرَق أصهَبُ، أحمر. قال: وكان في المدينة شيخان عزيزان منيعان، لأحدهما ابن يرغب به عن المناكح، وللآخر ابنة لا

يجد لها كفؤًا، فجمع بينهما مجلس، فقال أحدهما لصاحبه: ما يمنعك أن تزوج ابنك؟ قال: لا أجد له كفؤًا. قال: فإن ابنتي كفؤ له، وأنا أزوجك.. فزوّجه، فولد بينهما ذلك المولود. وكان في المدينة ثمانية رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فلما قال لهم صالح: «إنما يعقرها مولود فيكم»، اختاروا ثماني نسوة قوابل من القرية، وجعلوا معهن شُرَطًا كانوا يطوفون في القرية، فإذا وجدُوا المرأة تمخَضُ، نظروا ما ولدُها إن كان غلامًا قلَّبنه فنظرن ما هو وإن كانت جارية أعرضن عنها. فلما وجدوا ذلك المولود صرخ النسوة وقلن: «هذا الذي يريد رسول الله صالح »، فأراد الشرط أن يأخذوه، فحال جدّاه بينهم وبينه، وقالا لو أن صالحًا أراد هذا قتلناه! فكان شرَّ مولود، وكان يشبُّ في اليوم شباب غيره في الجمعة، ويشبّ في الجمعة شباب غيره في الشهر، ويشب في الشهر شباب غيره في السنة. فاجتمع الثمانية الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وفيهم الشيخان، فقالوا: «استعمل علينا هذا الغلام » لمنزلته وشرَف جديه، فكانوا تسعة. وكان صالح لا ينام معهم في القرية، كان في مسجد يقال له: «مسجد صالح»، فيه يبيت بالليل، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكرهم، وإذا أمسى خرج إلى مسجده فبات فيه».

قال حجاج: وقال ابن جريج: لما قال لهم صالح: «إنه سيولد غلام يكون هلاككم على يديه»، قالوا: فكيف تأمرنا؟ قال: آمركم بقتلهم! فقتلوهم إلا واحدًا. قال: فلما بلغ ذلك المولود، قالوا: لو كنا لم نقتل أولادَنا، لكان لكل رجل منا مثل هذا، هذا عملُ صالح! فأتمروا بينهم بقتله، وقالوا: نخرج مسافرين والناس يروننا علانيةً، ثم نرجع من ليلة كذا من شهر كذا وكذا، فنرصده عند مصلاه فنقتله، فلا يحسب الناس إلا أنَّا مسافرون، كما نحن!

فأقبلوا حتى دخلوا تحت صخرة يرصُدُونه، فأرسل الله عليهم الصخرة فرضَخَتهم، فأصبحوا رَضْخًا. فانطلق رجال ممَّن قد اطلع على ذلك منهم، فإذا هم رضْخٌ، فرجعوايصيحون في القرية: أي عباد الله، أما رضي صالح أن أمرهم أن يقتلوا أولادَهم حتى قتلهم؟! فاجتمع أهل القرية على قتل الناقة أجمعون، وأحجموا عنها إلا ذلك الابن العاشر.

ثم رجع الحديث إلى حديث رسول الله ﷺ، قال: وأرادوا أن يمكروا بصالح، فمشوا حتى أتوا على سَرَبٍ على طريق صالح، فاختبأ فيه ثمانية، وقالوا: إذا خرج علينا قتلناه وأتينا أهله، فبيَّتْناهُمْ! فأمر الله الأرض فاستوت عنهم. قال: فاجتمعوا ومشَوْا إلى الناقة وهي على حَوْضها قائمة، فقال الشقيُّ لأحدهم: ائتها فاعقرها! فأتاها، فتعاظَمَه ذلك، فأضرب عن ذلك، فبعث آخر فأعظم ذلك. فجعل لا يبعث رجلا إلا تعاظمه أمرُها، حتى مشوا إليها، وتطاول فضرب عرقوبيها، فوقعت تركُضُ، وأتى رجلٌ منهم صالحًا فقال: «أدرك الناقةَ فقد عمرت»! فأقبل، وخرجوا يتلقَّونه ويعتذرون إليه: «يا نبيّ الله، إنما عقرها فلان، إنه لا ذنب لنا»! قال: فانظروا هل تدركون فصيلها؟، فإن أدركتموه، فعسَى الله أن يرفعَ عنكم العذابَ! فخرجوا يطلبونه، ولما رأى الفصيل أمَّه تضطرب، أتى جبلا يقال له «القارَة» قصيرًا، فصعد وذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله إلى الجبل، فطالَ في السماء حتى ما تَنالُه الطير. قال: ودخل صالح القرية، فلما رآه الفصيل بكى حتى سألت دموعه، ثم استقبل صالحًا فرغَا رَغْوةً، ثم رغَا أخرى، ثم رغا أخرى، فقال صالح لقومه: لكل رغوة أجلُ يوم، ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾، ألا إن آية العذاب أنّ اليوم الأوّل تصبح وجوهكم مصفرّة، واليوم الثاني محمرّة،

واليوم الثالث مسودّة ! فلما أصبحوا فإذا وجوههم كأنها طليت بالخلوق، صغيرُهم وكبيرُهم، ذكرهم وأنثَاهم. فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: «ألا قد مضى يوم من الأجل، وحضركم العذاب » ! فلما أصبحوا اليوم. الثاني إذا وجوههم محمرة، كأنها خُضِبت بالدماء، فصاحوا وضجُّوا وبكوا وعرفوا آية العذاب، فلما أمسوا صاحُوا بأجمعهم: «ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب » ! فلما أصبحوا اليوم الثالث، فإذا وجوههم مسودّة كأنها طُليت بالقار، فصاحوا جميعا: «ألا قد حضركم العذاب» ! فتكفَّنُوا وتحنَّطوا، وكان حنوطهم الصَّبر والمقر، وكانت أكفانهم الأنطاع، ثم ألقوا أنفسهم إلى الأرض، فجعلوا يقلبون أبصارهم، فينظرون إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة، فلا يدرون من حيث يأتيهم العذاب من فوقهم من السماء أو من تحت أرجلهم من الأرض، جَشَعًا وفَرَقًا. فلما أصبحوا اليومَ الرابع أتتهم صيحةٌ من السماء فيها صوتُ كل صاعقة، وصوت كلّ شيء له صوتٌ في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدُورهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وقال الطبري:

حدثنا إسماعيل بن المتوكل الأشجعي من أهل حمص قال، حدثنا محمد بن كثير قال، حدثنا عبد الله بن واقد، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم قال، حدثنا أبو الطفيل، قال: لما غزا رسول الله ﷺ غَزاة تبُوك، نزل الحجر فقال: يا أيها الناس لا تسألوا نبيَّكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيَّهم أن يبعث لهم آية، فبعث الله لهم الناقة آيةً، فكانت تَلج عليهم يوم ورودها من هذا الفجّ، فتشربُ ماءهم، ويوم وردهم كانوا يتزودون منه، ثم يحلبونها مثل ما كانوا يتزَوّدون من مائهم قبل ذلك لبنًا، ثم تخرج من ذلك الفجّ. فعتوا عن أمر ربهم

وعقروها، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعدًا من الله غير مكذوب، فأهلك الله من كان منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحدًا، كان في حرم الله، فمنعه حَرَمُ الله من عذاب الله. قالوا: ومن ذلك الرجل يا رسول الله؟ قال: أبو رِغال.

❁ ❁ ❁

شيءٌ من قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الكرام

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن
جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ
فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ
وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ
رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ
إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ
مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ
غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: ٦٩-٧٦].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿رُسُلُنَآ - بِٱلۡبُشۡرَىٰ - فَمَا لَبِثَ - بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ - نَكِرَهُمۡ - وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ - قَآئِمَةٞ - فَضَحِكَتۡ - يَٰوَيۡلَتَىٰٓ - عَجُوزٞ - بَعۡلِي - وَبَرَكَٰتُهُۥ - حَمِيدٞ مَّجِيدٞ - ٱلرَّوۡعُ - يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ - لَحَلِيمٌ - أَوَّٰهٞ - مُّنِيبٞ - غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿رُسُلُنَآ﴾	ملائكتنا.
﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾	البشرى بإسحاق عليه السلام (أي أنه سيرزق بإسحاق عليه السلام)
﴿فَمَا لَبِثَ﴾	فما أبطأ – فما تأخر.
﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾	بعجل مشويٍّ – وقيل: ناضج على الأحجار الساخنة دون أن تمسه النار – وقيل: نضيج.
﴿نَكِرَهُمۡ﴾	استنكر أمرهم واستغرب به.
﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾	خاف منهم ولكنه أضمر الخوف في نفسه.
﴿قَآئِمَةٞ﴾	قائمة بخدمة الأضياف، وقيل: قائمة من وراء الستر تستمع.
﴿فَضَحِكَتۡ﴾	ضحكت تعجبا قيل: تتعجب من أن قوم لوط سيهلكون وهم في غفلة وقيل: ضحكت أي: حاضت، وقيل: ضحكت لكونها وزوجها يخدمان والملاكة لا تأكل.

﴿يَوَيْلَتَىٰٓ﴾	كلمة أصلها الدعاء على النفس، لكن هاهنا هي كلمة تجري على الألسن دون إرادة معناها، وكأنها تريد التعجب.
﴿عَجُوزٌ﴾	كبيرة السن.
﴿بَعْلِي﴾	زوجي.
﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾	البركة النمو والازدياد، والمراد كثرة الخير فيهم، فالأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام.
﴿حَمِيدٌ﴾	محمود في أقواله وأفعاله وفي تفضله عليكم وإنعامه.
﴿مَّجِيدٌ﴾	ذو مجد وعزة وثناء كريم، يمجده خلقه بثناءهم عليه. وهو ممجد في نفسه كذلك فهو أهل الثناء والمجد.
﴿ٱلرَّوْعُ﴾	الخوف – الفزع.
﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾	يراجع ملائكتنا في شأن قوم لوط يطلب تأخيرهم، وقيل: يُذكرهم بأن فيها لوط عليه السلام وهو مؤمن.
﴿لَحَلِيمٌ﴾	بطيء الغضب لا يُعاجل بالعقوبة.
﴿أَوَّٰهٌ﴾	متضرع خاشع متذلل منكسرٌ لله عز وجل.
﴿مُّنِيبٌ﴾	رجَّاع – مكثر من التوبة والرجوع والاستغفار.
﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾	غير مدفوع، بل لا بد من وقوعه.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) ﴾.

ج: هذا – والله تعالى أعلم – شيءٌ من ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة عليها السلام، وما كان من أمرهما مع ملائكة الله الكرام الذين كانوا في طريقهم إلى تدمير مدائن قوم لوط بما فعله هؤلاء القوم من الرذيلة، فمرت الملائكة الكرام عليهم السلام بإبراهيم وزوجته عليهما السلام، وبشروه أثناء هذا المرور ببشارة عظيمة، وهي أنه سيرزق من سارة عليها السلام، بغلام كانا قد تقدما في السِّن عليهما سلام من الله، ولم يرزق منها بذريةٍ أكثر حياتهما، كما قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالبشارة هنا البشارة بإسحاق عليه السلام فأمه هي سارة عليها السلام.

وقيل: إن البشارة، هي البشارة بإهلاك قوم لوطٍ، وإنجاء لوطٍ عليه السلام والمؤمنين به.

فالحاصل: أنهم (أي: الملائكة) أتوا إبراهيم عليه السلام فقالوا: سلامًا، أي سلموا عليه سلامًا وكذا قالوا قولًا طيبًا، فما أبطأ إبراهيم عليه السلام وما تأخر عن ضيافتهم، بل أسرع وجاء بأطيب ما عنده من الطعام وطهاه بأحسن طريقة من طرق الطهي، وجاء مُسرعًا بعجل نضيج – مشويٍّ كذلك على الحجارة الساخنة، قيل: دون أن تمسه النار، وكان عجلًا سمينًا مكا في الآية الأخرى فجمع بين سرعة إكرام الضيف وجودة الطعام المقدم وحسن الطهي، وكذا

حسن التلطف في الخطاب إذ قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الصافات: ٩١].

ولكن تسرَّب التعجب إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذا فقد اعتراه الخوف منهم لعدم أكلهم عنده، فكأن عدم أكل الأضياف في زمانهم كان مُقلقًا، وهكذا هو عند كثيرين من العرب إذا لم يأكل ضيفهم ظنوا أنه يريد بهم شرًّا، فإنه يُبعد عندهم أن يأكل الشخص من طعامهم ثم يؤذيهم أو يغدر بهم، فالحاصل أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رآهم لا يأكلون خاف منهم ولكنه أضمر هذا الخوف في نفسه فطمأنوه، وهكذا ينبغي أن يطمئن المؤمن أخاه إذا رآه خائفًا(١)، إنا لا نريدك ولا نريد أهل بيتك بسوءٍ ولا مكروهٍ، ولكننا نريد قوم لوط المكذبين له المعاندين مرتكبي الرذائل والفواحش، فإننا ذاهبون إليهم لتدميرهم وإهلاكهم.

قالوا له ذلك، وامرأته سارة عَلَيْهَا السَّلَامُ قائمة من وراء الستر، وقائمة على خدمتهم فضحكت، قيل: ضحكت تعجبًا مما يحدث، فقوم لوطٍ في غفلة والعذاب مقبلٌ عليهم، وقيل: ضحكت بمعنى حاضت، وقيل: ضحكت تعجبًا مما يحدث فهي وزوجها تكلفًا، وأتيا بأطيب الطعام، واجتهدا في إكرام الأضياف ومع ذلك فالأضياف لا يأكلون، فكأن الضحك هنا للتعجب، فبشروها حينئذٍ بأنها سترزق بإسحاق، وإسحاق سيرزق بيعقوب، وكلاهما نبيٌّ كريم كما قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢] فقالت، وازداد تعجبها ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهي كلمة أصل معناه الدعاء على النفس بالهلاك، كأن معناها يا ويلي تعال وأنزل وحلَّ فهذا مقامك وأوانك ولكنها لم تُرد هذا المعنى، إنما هي كلمة تجري على الألسن لا يُراد بها معناها، وأقرب

(١) قال الخصوم الذين تسوروا المحراب على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأوه خائفًا: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾.

ما تكون إلى التعجب والاستغراب، ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ كبيرة السن، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ زوجي ﴿شَيْخًا﴾ طاعنًا في السِّن هو الآخر إن هذا لشيء يثير العجيب، فضلًا عن قوله عجيب في نفسه فقالوا لها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يعنون أن الله ﷻ قادر على كل شيء يفعل ما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

ثم دعوا لإبراهيم وزوجته قائلين رحمة الله وبركاته، أي: ونعمه المتكاثرة وفضائله المتعددة المتنوعة عليكم يا أهل هذا البيت.

وقيل: إنه إخبار، أي: أن الله ﷻ محكم يا أهل هذا البيت وأسبغ عليكم نعمه الظاهرة والباطنة، فالأنبياء أكثرهم من ذرتيكما ورزق الله يأتيكما ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الله ﷻ، ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود على نعمه وآلائه وفضائله وإحسانه وامتنانه ﴿مَّجِيدٌ﴾ في نفسه وممجدٌ من خلقه يثني عليه خلقه وهو للثناء أهل.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾، من الملائكة وهم فيما ذكر، كانوا جبريل وملكين آخرين. وقيل: إن الملكين الآخرين كان ميكائيل وإسرافيل معه ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، يعني: إبراهيم خليل الله ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾، يعني: بالبشارة.

واختلفوا في تلك البشارة التي أتوه بها.

فقال بعضهم: هي البشارة بإسحاق.

وقال بعضهم: هي البشارة بهلاك قوم لوط.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، يقول: فسلموا عليه سلامًا.

ونصب «سلامًا» بإعمال «قالوا» فيه، كأنه قيل: قالوا قولا وسلَّموا تسليمًا.

﴿قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾، يقول: قال إبراهيم لهم: سلام، فرفع «سلامٌ»، بمعنى: عليكم السلام، أو بمعنى: سلام منكم.

وقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾.

وأصله «محنوذ»، صرف من «مفعول» إلى «فعيل».

وقد اختلف أهل العربية في معناه:

فقال بعض أهل البصرة منهم: معنى «المحنوذ»: المشويّ، قال: ويقال منه: «حَنَذْتُ فرسي»، بمعنى سخَّنته وعرَّقته.

وقال آخر منهم: «حنذ فرسه»: أي أضمره، وقال: قالوا حَنَذه يحنِذُه حَنْذًا: أي: عرَّقه.

وقال بعض أهل الكوفة: كل ما انشوَى في الأرض، إذا خَدَدت له فيه، فدفنته وغممته، فهو «الحنيذ» و«المحنوذ». قال: والخيل تُحْنَذ، إذا القيت عليها الجِلال بعضُها على بعض لتعرق. قال: ويقال: «إذا سَقَيْتَ فَأَحْنِذْ»، يعني: أَخْفِسْ، يريد: أقلَّ الماء، وأكثر النبيذ.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾.

يقول تعالى ذكره: فلما رأى إبراهيم أيديَهم لا تصل إلى العجل الذي أتاهم به، والطعام الذي قدّم إليهم، نكرهم، وذلك أنه لما قدم طعامه ﷺ إليهم، فيما ذكر، كفّوا عن أكله، لأنهم لم يكونوا ممن يأكله. وكان إمساكهم عن أكله، عند إبراهيم، وهم ضِيَفانه مستنكرًا. ولم تكن بينهم معرفةٌ، وراعه أمرهم، وأوجس في نفسه منهم خيفة.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ

خِيفَةً﴾، وكانت العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم، ظنوا أنه لم يجئ بخير، وأنه يحدِّث نفسه بشرّ.

وقال الطبري:

وقوله: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، يقول: احسَّ في نَفسه منهم خيفة وأضمرها. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾، يقول: قالت الملائكة، لما رأت ما بإبراهيم من الخوف منهم: لا تخف منا وكن آمنًا، فإنا ملائكة ربّك، ﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾، سارَة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ، وهي ابنة عم إبراهيم، ﴿قَائِمَةٌ﴾، قيل: كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلام الرسل وكلام إبراهيم عليه السلام. وقيل: كانت قائمة تخدُم الرسل، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل.

وقوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾، اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾، وفي السبب الذي من أجله ضحكت.

فقال بعضهم: ضحكت الضحك المعروف، تعجبًا من أنَّها وزوجها إبراهيم يخدمان ضِيفانهم بأنفسهما، تكرمةً لهم، وهم عن طعامهم ممسكون لا يأكلون.

وقال آخرون: بل ضحكت من أن قوم لوط في غَفْلة وقد جاءت رُسُل الله لهلاكهم.

وأورد من وجهين يصحان عن قتادة، قال: لما أوجس إبراهيم خيفة في نفسه حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه، فضحكت امرأته وعجبت من أن قومًا أتاهم العذاب، وهم في غفلة. فضحكت من ذلك وعجبت ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ

إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾.

وقال آخرون: بل ضحكت ظنًّا منها بهم أنهم يريدون عَمَل قوم لوط.

وقال آخرون: بل ضحكت لما رأت بزوجها إبراهيم من الرَّوع.

وقال آخرون: بل ضحكت حين بشرت بإسحاق تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها.

وقد قال بعض من كان يتأول هذا التأويل: إن هذا من المقدَّم الذي معناه التأخير، كأنّ معنى الكلام عنده: وامرأته قائمة، فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكت وقالت: يا ويلتا أألد وأنا عجوز؟

وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ في هذا الموضع: فحاضت.

وقال آخرون: بل ضحكت سرورًا بالأمن منهم، لما قالوا لإبراهيم: لا تخف، وذلك أنه قد كان خافهم وخافتهم أيضًا كما خافهم إبراهيم. فلما أمِنَت ضحكت، فأتبعوها البشارة بإسحاق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بالصواب قولُ من قال: معنى قوله: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ فعجبت من غفلة قوم لوط عما قد أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه.

وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب، لأنه ذكر عقيب قولهم لإبراهيم: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾. فإذ كان ذلك كذلك، وكان لا وجه للضحك والتعجب من قولهم لإبراهيم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، كان الضحك والتعجب إنما هو من أمر قوم لوط.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾.

يقول تعالى ذكره: فبشَّرنا سارَة امرأة إبراهيم ثوابًا منا لها على نكيرها وعجبها من فعل قوم لوط، ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾، ولدًا لها، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾، يقول: ومن خلف إسحاق يعقوب، من ابنها إسحاق.

و«الوراء» في كلام العرب، ولد الولد، وكذلك تأوَّله أهل التأويل.

وأورد بإسناد حسن[1] عن السدي قال: لما ضحكت سارَة. وقالت: «عجبًا لأضيافنا هؤلاء، إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا» ! قال لها جبريل: أبشري بولد اسمُه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. فَضربتْ وَجْهَهَا عجبًا، فذلك قوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾، [الذاريات: ٢٩]. وقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾، قالت سارة: ما آية ذلك؟ قال: فأخذ بيده عودًا يابسا فلواه بين أصابعه، فاهتز أخضر، فقال إبراهيم: هُو لله إذا ذبيحًا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: قالت سَارة لما بُشِّرت بإسحاق أنَّها تلد تعجبًا مما قيل لها من ذلك، إذ كانت قد بلغت السن التي لا يلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهي كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء والاستنكار للشيء، فيقولون عند التعجب: «ويلُ أمِّه رجلا ما أرْجَله» !

---

(١) ولكن بين السدي وبين القصة بونٌ شاسع.

وقوله: ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾، تقول: أنى يكون لي ولد، ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾، والبعل في هذا الموضع: الزوج، وسمي بذلك لأنه قيم أمرها، كما سموا مالك الشيء «بعله»، وكما قالوا للنخل التي تستغني بماء السماء عن سقي ماء الأنهار والعيون «البعل»، لأن مالك الشيء القيم به، والنخل البعل، بماء السماء حياتُه.

وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ ﴾، يقول: إن كون الولد من مثلي ومثل بعلي على السن التي بها نحن لشيء عجيب، ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾، يقول الله تعالى ذكره: قالت الرسل لها: أتعجبين من أمرٍ أمر الله به أن يكون، وقضاء الله فيك وفي بعلك.

وقوله: ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾، يقول: رحمة الله وسعادته لكم أهل بيت إبراهيم، وجعلت الألف واللام خلفًا من الإضافة، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣ ﴾، يقول: إن الله محمود في تفضله عليكم بما تفضل به من النعم عليكم وعلى سائر خلقه، ﴿مَّجِيدٞ ﴾، يقول: ذو مجد ومَدْح وثَناء كريم.

يقال في «فعل» منه: «مجد الرجل يمجد مجادة» إذا صار كذلك، وإذا أردت أنك مدحته قلت: «مجّدته تمجيدًا».

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ قال الزجاج: أصلها يا ويلتي؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخف من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخف على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها ومن كون بعلها شيخا لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر. و ﴿ ءَأَلِدُ ﴾ استفهام معناه التعجب. ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ ﴾ أي

شيخة. ولقد عجزت تعجز عجزا وعجزت تعجيزا ؛ أي طعنت في السن. وقد يقال: عجوزة أيضا. وعجزت المرأة بكسر الجيم ؛ عظمت عجيزتها عجزا وعجزا بضم العين وفتحها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا ﴾ وهم الملائكة، إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم.

قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيّوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام .

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي: ذهب سريعا، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر، حَنِيذ: وهو مَشْوي شيًا ناضجًا على الرّضْف، وهي الحجارة المُحْماة.

ثم قال:

وقد تضمَّنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ تنكرهم، ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

ثم قال في

﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد

وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ وفي الذاريات: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب.

﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: قالت الملائكة لها، لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كن» فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزا كبيرة عقيما، وبعلك وهو زوجها الخليل ﷺ، وإن كان شيخا كبيرا، فإن الله على ما يشاء قدير.

﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود، ممجد في صفاته وذاته.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الخليل

﴿ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ ﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليه السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد، أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية، الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ ﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلا مشويا على الرضف سمينا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ ﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ ﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

فـ ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ ﴾ أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم ﴿ قَآئِمَةٞ ﴾ تخدم أضيافه ﴿ فَضَحِكَتۡ ﴾ حين سمعت بحالهم، وما أرسلوا به، تعجبا.

﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ ﴾ فتعجبت من ذلك. و ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾ فهذان مانعان من وجود الولد ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصا فيما يدبره ويمضيه،

لأهل هذا البيت المبارك.

﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد ﴿ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط.

مجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

❀ ❀ ❀

س: ما وجه النصب في قوله: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ ووجه الرفع في قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ نُصب بوقوع الفعل عليه، كما تقول قالوا خيرًا....

وقال: وقيل: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: فاتحوه بصوابٍ من القول كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: صوابًا، فسلامًا معنى قولهم لا لفظه

وذكر القرطبي أقوالًا أُخر وقال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في رفعه وجهان: أحدهما: على إضمار مبتدأ أي هو سلام، وأمري سلام. والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر. وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله، فحذف الألف واللام كما حذفت من لا هم في قولك اللهم. وقرئ «سلم» قال الفراء: السلم والسلام بمعنى؛ مثل الحل والحلال.

❀ ❀ ❀

س: هل يُزاد في السلام على ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾؟

ج: الظاهر أنه (لا يزاد) والخبر الوارد عن رسول الله ﷺ وفيه: «...ومغفرته» به علةٌ والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ودلَّت الآية أيضًا على أن منتهى السلام ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ كما أخبر الله عن صالحي عباده ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ۝٧٦﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: فلما ذهب عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الخوف والفزع اللذان قد اعترياه لما دخلت عليه الملائكة وامتنعت من الأكل، لما هب عنه هذا الخوف واطمأن إلى أن العذاب ليس المقصود به إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجاءته البشرى بإسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إذا به يجادل الملائكة في شأن قوم لوط، أي: كيف تدمرون مدائنهم وفيهم من هو مؤمن كلوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

ثم إن الله ﷻ يثني على نبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين يدي توجيهه وإخباره، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾. أي: بطيء الغضب لا يُعاجل بالعقوبة، ﴿أَوَّٰهٞ﴾ خاشع لربه متذلل له متضرع خائف وجل ﴿مُّنِيبٞ ۝٧٥﴾ رجَّاع إلى الله مكثرٌ من الاستغفار.

ثم يوجه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيقول له الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾

أي: عن هذا الجدل ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ قضاء الله ﷻ قد حان وقته، وقد أمر بإهلاك قوم لوطٍ في وقت لا يتأخر ولا يتغيَّر ولا يتبدل، وإن قومه أيتهم عذاب غير مدفوع، لن يصرفه عنهم صارف، ولن يدفعه عنهم دافع ولن يُرد هذا العذاب عنهم بل هو واقع بهم لا محالة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما ذهب عن إبراهيم الخوفُ الذي أوجسه في نفسه من رسلنا، حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وأمن أن يكون قُصِد في نفسه وأهله بسوء، ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، بإسحاق، ظلّ، ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾.

ثم قال: وقد قيل معنى ذلك: وجاءته البشرى أنهم ليسوا إياه يريدون.

وقال آخرون: بشّر بإسحاق.

وقال: وأما «الروع»: فهو الخوف.

وقال: وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾، يقول: يخاصمنا.

وأورد بإسنادٍ حسن[1] عن قتادة، قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾، ذكر لنا أن مجادلته إياهم أنه قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المؤمنين أمعذبوها أنتم؟ قالوا: لا! حتى صار ذلك إلى عشرة قال، أرأيتم إن كان فيها عشرة أمعذبوهم أنتم؟ قالوا: لا! وهي ثلاث قرى فيها ما شاء الله من الكثرة والعدد.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ٧٥﴾، يقول تعالى ذكره: إن إبراهيم لبطيء الغضب، متذلل لربه خاشع له، منقاد لأمره ﴿مُّنِيبٌ﴾، رَجَّاع إلى طاعته.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ

(١) ولكن بين قتادة وبين ذلك بون شاسع، ولا يدرى من الذي ذكر له ذلك.

عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قول رسله لإبراهيم: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ ﴾، وذلك قيلهم له حين جَادلهم في قوم لوط، فقالوا: دع عنك الجدالَ في أمرهم والخصومة فيه، فإنه ﴿ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ﴾ يقول: قد جاء أمر ربك بعذابهم. وحقَّ عليهم كلمة العذاب، ومضى فيهم بهلاكهم القضاء، ﴿ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾، يقول: وإن قوم لوط، نازلٌ بهم عذابٌ من الله غير مدفُوع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ﴾ أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحَقَّت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يُرد عن القوم المجرمين.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

لم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها الرسل الملائكة إبراهيم ولكنه أشار بعد هذا إلى أنها البشارة بإسحاق ويعقوب في قوله: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأم والأب، كما يدل لذلك قوله: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢].

وقوله: ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٨] وقوله: ﴿ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الحجر: ٥٣] وقيل البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط، وعليه فالآيات المبينة لها كقوله هنا في هذه السورة: ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود: ٧٠] الآية.

وقوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ [الحجر: ٥٨ – ٥٩]

الآية.

وقوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٣] وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ ﴾ [العنكبوت: ٣١].

والظاهر القول الأول: وهذه الآية الأخيرة تدل عليه لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى، لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي «لما» كما ترى.

وقال في تفسير قوله: ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ ﴾:

لم يبين ما جادل له إبراهيم الملائكة في قوم لوط، ولكنه أشار إليه في العنكبوت بقوله ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ ﴾ [العنكبوت: ٣١ - ٣٢] الآية.

فحاصل جداله لهم أنهم يقول: إن أهلكتم القرية وفيها أحد من المؤمنين أهلكتم ذلك المؤمن بغير ذنب، فأجابوه عن هذا بقولهم ﴿ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ ﴾ الآية.

وقال:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ ﴾.

هذا العذاب الذي صرح هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة وأنه لا مرد له بينه في مواضع متعددة، كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣].

وقوله في الحجر: ﴿ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: ٧٤ – ٧٥].

وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ ﴾ [الفرقان: ٤٠]، الآية.

وقوله: ﴿ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٢ – ١٧٣].

وقوله: ﴿ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٣٣ – ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ بالولد، التفت حينئذ، إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾.

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر، وعدم غضب، عند جهل الجاهلين.

﴿ أَوَّٰهٞ ﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، ﴿ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي: رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، فلذلك كان يجادل عمن حتَّم الله بهلاكهم.

فقيل له: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ ﴾ الجدال ﴿ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ﴾ بهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ فلا فائدة في جدالك.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ
٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ
هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ
رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩
قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن
يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا
ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١
فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن
سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ
٨٣﴾ [هود: ٧٧-٨٣].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿سِيٓءَ بِهِمۡ – وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا – عَصِيبٞ – يُهۡرَعُونَ – يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ – أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ – وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ – رَشِيدٞ – ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ – لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ – فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ – مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ – مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ – جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا – سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ – مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ – وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾	ساءه مجيئهم وتضايق بمجيئهم – ساء ظنًّا بقومه.
﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾	ضاق صبره وقل واشتد المكر عليه وقع به مكروه عظيم لا يستطيع دفعه.
﴿عَصِيبٞ﴾	شديد شرُّه – الشر فيه شديد والبلاء فيه عظيم.
﴿يُهۡرَعُونَ﴾	يسرعون مع حرصٍ شديد ﴿على إتيان الفاحشة﴾.
﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾	يعملون الأعمال المسيئة ﴿التي هي إتيان الذكران من العالمين﴾.
﴿أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾	أحلَّ لكم – الزواج بهن أطيب لكم.
﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾	لا تهينوني مع أضيافي ولا تذلوني – ولا تمتهنوني.
﴿رَشِيدٞ﴾	قوى الإيمان شديد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. مرشد – عاقل مؤمن – صالح.

﴿ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾	الجأ إلى قبيلة قوية تمنعني منكم.
﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾	لن يستطيعوا إيذاءك ولا الاقتراب منك بسوء ولا مكروه.
﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾	فأخرج بأهلك ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ في وقت من الليل، وهو وقت السحر كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤﴾.
﴿مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾	يحل بها من العذاب ما يحل بهم.
﴿مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾	موعد إهلاكهم في الصباح.
﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾	رفعناها ثم قلبناها رأسًا على عقب.
﴿سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾	الطين الشديد المتحجر المتصلب.
	متتابع يتبع بعضه بعضًا.
﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ﴾	معلمة من عند ربك بعلامات، وقيل: كان على كل حجر اسم من سيهلك به.
﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾	ليست ببعيدة عن أهل الظلم فكل ظالم فربنا قادر على أن يرسل عليهم مثلها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ولما جاءت ملائكتنا لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ساءه قدومهم لما يعلمه من قومه الشريرين المفسدين، فخشي على أضيافه خشيةً شديدة من أن ينالهم مكروه من قومه، وضايق وجود الأضياف لا كراهية منه للأضياف، بل خشية عليهم وحفاظًا عليهم، فحلَّ به ضيقٌ شديدٌ، وأصابه كرب وهمٌ وقال هذا يوم عصيب، أي: شديد شرُّه الشر فيه شديد.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولما جاءت ملائكتنا لوطًا، ساءَه مَجيئهم، وهو «فعل» من «السوء»، ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ﴾، بمجيئهم ﴿ذَرۡعٗا﴾، يقول: وضاقت نفسه غما بمجيئهم. وذلك أنه لم يكن يعلم أنهم رسلُ الله في حال ما ساءه مجيئهم، وعلم من قومه ما هم عليه من إتيانهم الفاحشة، وخاف عليهم، فضاق من أجل ذلك بمجيئهم ذرعًا، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه، ولذلك قال: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾.

وأورد بإسنادٍ فيه مقال عن حذيفة أنه قال: لما جاءت الرسل لوطًا أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، وقد قيل لهم، والله أعلم: لا تهلكوهم حتى يشهدَ لوط. قال: فأتوه فقالوا: إنا مُتَضيِّفوك الليلة، فانطلق بهم، فلما مضى ساعةً التفت فقال: أما تعلمون ما يعمَل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسًا أخبث منهم ! قال: فمضى معهم. ثم قال الثانية مثل ما قال، فانطلق بهم.

فلما بصرت بهم عجوزُ السَّوْء امرأته، انطلقَت فأنذرتهم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ ﴾، فإنه يقول: وقال لوط: هذا اليوم يوم شديد شره، عظيم بلاؤه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن قُدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فأتوا لوطا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو -على ما قيل- في أرض له يعمرها وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يُضِفْهم أن يضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء، ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ ﴾.

قال ابن عباس وغير واحد: شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم، ويشق عليه ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه؛ فإذا حمل على أكثر من طوقه ضاق عن ذلك، وضعف ومد عنقه ؛ فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع. وقيل: هو من ذرعه القيء أي غابه ؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ ﴾ أي شديد في الشر.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا ﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ أي: شق عليه مجيئهم، ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب، جرد، مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الزجاج: يقال: ضاق فلان بأمره ذرعًا: إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصًا. وذكر ابن الأنباري فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أن معناه: وقع به مكروه عظيم لا يصل إلى دفعه عن نفسه، فالذرع كناية عن هذا المعنى.

والثاني: أن معناه: ضاق صبره وعظم المكروه عليه؛ وأصله من ذرع فلانًا القيءُ: إذا غلبه وسبقه.

والثالث: أن المعنى: ضاق بهم وُسْعُه، فناب الذرع والذراع عن الوسع، لأن الذراع من اليد، والعرب تقول: ليس هذا في يدي، يعنون: ليس هذا في وُسْعِي؛ ويدل على صحة هذا أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع، فيقولون: ضقت بهذا الأمر ذراعًا.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لهذه الآيات: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ

ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ج: المعنى إجمالًا – والله أعلم –: أن قوم لوط عليه السلام لما بلغهم خبر مجيء الأضياف حسان الوجوه على أعلى درجات من الجمال (وهم الملائكة) وقيل: إن التي أخبرتهم بذلك هي امرأته، قالوا، وقد كانت تلك خيانتها، جاءوا (أي: قوم لوط) مسرعين حريصين على فعل الفاحشة بهؤلاء الكرام، وكان من سجية قوم لوط هؤلاء قبل مجيء الرسل إليهم كانوا يعملون هذه الفاحشة، فلم تكن هذه المحاولة للاعتداء هي أولى المحاولات، بل كانت هذه سجيتهم، وكان هذا شانهم وتلك عادتهم ألا وهي فعل السيئات التي منها هذه الكبيرة إتيان الذكران من العالمين، فلما وصلوا إلى بيت لوط عليه السلام ذكَّرهم بالله وبتقواه عز وجل، وناشدهم وعرض عليهم بناته كي يتزوجونهن فهن أحلَّ وأطيب إذا تزوجوهن على شريعة الله، عرض عليهم لوط عليه السلام ذلك قائلًا : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ أي: أحلَّ لكم فتزوجوهن إن شئتم أزوجكم إياهن، ولا تُهينوني، ولا تُذلوني مع أضيافي ولا تحرجوني معهم، أليس منكم رجل رشيد عاطل شديد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كي يدفع الله بي عن شركم؟!، أليس فيكم من يتعقل الأمور ويتفهم ويتقي الله؟!!

فيحنئذٍ أجابوه بقولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ قيل: المعنى لقد علمت ما لنا في بناتك من حاجة فإننا لا نحتاج النساء، ولكن تعلم مرادنا وهو أننا نريد الرجال ولا نريد النساء.

وقيل المعنى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ لكونهن لسن لنا بأزواج، ولا

نريد الزواج إنما نريد الرجال (يعنون الأضياف).

وقيل: إنهم كانوا من قبل قد خطبوا بنات لوط فأبى عليه السلام أن يزوجهم، وكان من عادتهم أن من خطب امرأة فرفض أنه لا يرجع إليها ثانية، فلما حلَّ بنبي الله ما حل من الحرج وافق على تزويجهن بناته دفعًا للضرر عن الأضياف فاعتلوا له بأنك تعلم ما لنا في بناتك من حق، فالله أعلم.

فحينئذٍ وقع لوط عليه السلام في كرب شديد وبلاء عظيم، ولم تكن له بتلك البلدة قبيلة، ولم يكن له منهم كبير ناصرٍ بعد الله عز وجل، فقالوا مقولةً يرحمه الله ويغفر له قال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾.

أي: لو أن عندي منعة وأنصار أو كانت لي قبيلة قويةٌ لفعلت بكم الأفاعيل حفاظًا على أضيافي ودفعًا لشركم.

وفي مثل هذا المقام يقول النبي ﷺ: «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**».

فلما قال عليه السلام مقولته قالت الملائكة حينئذٍ - يطمئنونه - وأفصحوا عن وجهتهم وعن أنفسهم، فقد كان عليه السلام يظنهم بشرًا، فقالوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ ملائكة من عند الله عز وجل فاطمئن فلن يصلوا إليك بمكروه ولا سوء، وكذا لن يستطيعوا الوصول غلينا بأذى ولا بمكروه، هذا، وقد ذكر بعض العلماء هاهنا أقوالًا تشهد لها في الجملة آيات من كتاب الله عز وجل، ذكروا أن قوم لوطٍ عليه السلام أتوه ووقفوا بباب بيته وهو يدفعهم حفاظًا على أضيافه فكادوا أن يكسروا الباب فخرج لهم جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فأعمى أبصارهم، وكا أسلفت فيشهد في الجملة لهذا المعنى، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾.

فالحاصل: أن الله ﷻ دفع عن لوط عليه السلام الشرَّ والمكروه وسلَّمه وسلَّم أضيافه من هؤلاء الأشرار، ثم أمرته الملائكة – بأمر الله لهم بتبليغه – قالت الملائكة ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: فاخرج بأهلك ليلًا عند الحر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤﴾ [القمر: ٣٤] ونهته الملائكة عن الالتفات إلى الخلف حتى لا يفكر في أحدٍ من القوم ولا يُفكر في ديار ولا مال ولا غير ذلك إلا ذكر الله ودعاء الله كي ينجيه وينجي من معه، واستثنيت من الإنجاء ومن الخروج مع لوطٍ عليه السلام امرأته تلك الخائنة التي كانت تدل أهل الشر والكفر والفسوق على أضياف لوطٍ عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ أي: لا تخرجها معك إنه سيحل بها مثل الذي يحلُّ بهم من العذاب.

وكأن لوطًا عليه السلام استبطأ العذاب وأراد أن ينزل العذاب على قومه في الحال، فطمأنته الملائكة بقولهم له: إن موعد إهلاكهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟!!

فلما جاء أمر الله ﷻ وقضاؤه بتعذيب هؤلاء الأشرار المفسدين جعل الله سبحانه وتعالى أعلى هذه القرى أسفلها وأسفلها أعلاها ذكر العلماء أن جبريل عليه السلام حمل هذه القرى بمن فيها ورفعها إلى السماء ثم قلبها رأسًا على عقب، وأتبع ذلك بأن أرسلت على القوم حجارة من طين شديد متحجر صلبة في غايته من الصلابة، بحجارة متتابعة معلمة بعلامات من عند الله فأهلكتهم وأبادتهم ثم حُذر أهل الظلم عمومًا وخوِّفوا يقول تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ٨٣﴾ أي: أن مثل هذه الحجارة قريب إحلالها بأهل الظلم، والله ليس بعاجز عن فعل ما فعله بقوم لوطٍ من إهلاكهم وتدميرهم، فليحذر كل ظالم أن يصيبه مثل الذي أصاب قوم لوط، نسأل الله العافية والسلامة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وجاء لوطًا قومه يستحثون إليه، يُرْعَدون مع سرعة المشي، مما بهم من طلب الفاحشة.

يقال: «أُهْرِعَ الرجل»، من برد أو غضب أو حمَّى، إذا أرعد، «وهو مُهْرَع»، إذا كان مُعْجلا حريصًا.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه لما جاؤوه يراودونه عن ضيفه: هؤلاء يا قوم بناتي -يعني نساء أمته- فانكحوهن[١] فهنّ أطهر لكم.

وأورد بإسنادٍ صحيح ابن أبي نجيح يقول في قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾، قال: ما عرض عليهم نكاحًا ولا سفاحًا.

وبإسنادٍ حسنٍ عن قتادة في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾ قال: أمرهم أن يتزوجوا النساء، وأراد نبي الله ﷺ أن يقي أضيافه ببناته.

قال الطبري:

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾.

فقرأته عامة القراء برفع: ﴿أَطْهَرُ﴾، على أن جعلوا ﴿هُنَّ﴾ اسمًا، و﴿أَطْهَرُ﴾ خبره، كأنه قيل: بناتي أطهرُ لكم مما تريدون من الفاحشة من الرجال.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ﴾، يقول: فاخشوا الله، أيها الناس، واحذروا عقابه، في إتيانكم الفاحشة التي تأتونها وتطلبونها، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ﴾، يقول: ولا تذلوني بأن تركبوا مني في ضيفي ما يكرهون أن تركبُوه

(١) أي: تزوجوهن.

منهم.

و«الضيف»، في لفظ واحدٍ في هذا الموضع بمعنى جمع. والعرب تسمي الواحد والجمع «ضيفًا» بلفظ واحدٍ. كما قالوا: «رجل عَدْل، وقوم عَدْل».

وقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾، يقول: أليس منكم رجل ذو رُشد، ينهى من أراد ركوبَ الفاحشة من ضيفي، فيحول بينهم وبين ذلك؟

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

يقول تعالى ذكره: قال قوم لوط للوط: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، يا لوط ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، لأنهن لَسْنَ لنا أزواجًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾، يقول: قالوا: وإنك يا لوط لتعلم أنَّ حاجتنا في غير بناتك، وأن الذي نُريد هو ما تنهانَا عنه.

ثم قال الطبري:

يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضي لما قد جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾، بأنصار تنصرني عليكم وأعوان تعينني، ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾، يقول: أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم، لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيافي، وحذف جواب «لو» لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾.

يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة للوط، لما قال لوط لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ

قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾، ورأوا ما لقي من الكرب بسببهم منهم: ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾، أرسلنا لإهلاكهم، وإنهم لن يصلوا إليك وإلى ضيفك بمكروه، فهوّن عليك الأمر، ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾، يقول: فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل.

يقال منه: «أسرى» و«سرى»، وذلك إذا سار بليل.

وأما قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾، فإن عامَّة القراء من الحجاز والكوفة، وبعض أهل البصرة، قرأوا بالنصب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾، بتأويل: فأسر بأهلك إلا امرأتك، وعلى أن لوطًا أمر أن يسري بأهله سوى زوجته، فإنه نهي أن يسري بها، وأمر بتخليفها مع قومها.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾، يقول: إنه مصيب امرأتك ما أصاب قومك من العذاب، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾، يقول: إن موعد قومك الهلاك الصبح. فاستبطأ ذلك منهم لوط وقال لهم: بلى عجِّلوا لهم الهلاك ! فقالوا: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ أي عند الصبح نزولُ العذاب بهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ولما جاء أمرنا بالعذاب وقضاؤنا فيهم بالهلاك، ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا ﴾ يعني عالي قريتهم، ﴿ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾، يقول: وأرسلنا عليها، ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى ﴿سِجِّيلٍ ﴾ فأورد الطبري أقوالًا ثم قال:

والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون، وهو أنها حجارة من طين، وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ

حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤].

وأورد أقوالًا في تفسير ﴿مَّنضُودٍ﴾ منها: مصفوفة، ومنها: متتابعة.

واختار قول الربيع بن أنس: نضد بعضه على بعض.

قال الطبري:

والصواب من القول في ذلك ما قاله الربيع بن أنس، وذلك أن قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ من نعت ﴿سِجِّيلٍ﴾، لا من نعت «الحجارة»، وإنما أمطر القوم حجارة من طين، صفة ذلك الطين أنه نُضِد بعضه إلى بعض، فصُيِّر حجارة، ولم يُمْطَرُوا الطين، فيكونَ موصوفًا بأنه تتابع على القوم بمجيئه.

قال أبو جعفر: وإنما كان جائزًا أن يكون على ما تأوّله هذا المتأوّل لو كان التنزيل بالنصب «منضودةً»، فيكون من نعت «الحجارة » حينئذ.

وأما قوله: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾، فإنه يقول: معلمة عند الله، أعلمها الله، و«المسوّمة» من نعت «الحجارة»، ولذلك نصبت على النعت.

وأما قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾، فإنه يقول تعالى ذكره متهددًا مشركي قريش: وما هذه الحجارة التي أمطرتها على قوم لوط، من مشركي قومك، يا محمد، ببعيد أن يمطروها، إن لم يتوبوا من شركهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي: يسرعون ويهرولون في مشيتهم ويجمرون من فرحهم بذلك وروي في هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة وشمر بن عطية وسفيان بن عيينة .

وقوله: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيتهم إلى وقت آخر حتى أخذوا وهم على ذلك الحال.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ [الحجر: ٧٠] أي: ألم ننهك عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

ثم قال:

وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ أي: اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم، ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ أي: ليس منكم رجل فيه خير، يقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه عنه؟

﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟

قال السدي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ إنما نريد الرجال.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطا توعدهم بقوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ أي: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد** -

يعني: الله ﷻ -فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه».

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رُسل الله إليه، وبشروه أنهم لا وصول لهم إليه ولا خلوص ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتَّبع أدبارهم، أي: يكون ساقة لأهله، ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ ﴾ أي: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولنَّكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين كما أنتم .

﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت وهو قوله: ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ ﴾ تقديره ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنه من مثبت ، فوجب نصبه عندهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرًا له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ۝٨١ ﴾ هذا وقومُ لُوطِ وقُوف على الباب وعُكوف قد جاءوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ ﴾ [القمر:٣٧ -٣٩] .

ثم قال:

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس، ﴿ جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا ﴾ وهي قريتهم العظيمة وهي سَدُوم ومعاملتها ﴿ سَافِلَهَا ﴾ كقوله

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم:٥٣، ٥٤] أي: أمطرنا عليها حجارة من «سجيل» وهي بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره.

وقال بعضهم: أي من «سنك» وهو الحجر، و«كل» وهو الطين، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات:٣٣] أي: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، وقال بعضهم: مطبوخة قوية صلبة، وقال البخاري. «سِجيل»: الشديد الكبير. سجيل وسجين واحد، اللام والنون أختان، وقال تميم بن مُقبل:

وَرَجْلَةٍ يَضْربُون البَيْضَ ضَاحية ضَربًا تواصَت به الأبطال سِجّينا

وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء، أي: معدة لذلك.

وقال آخرون: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم.

وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي مُعْلَمَة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه.

وقال قتادة وعِكْرِمة: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُطَوّقة، بها نَضْحٌ من حُمّرة.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدّث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدّمره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

ثم قال:

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ أي: وما هذه النقمة ممن تَشَبَّه بهم في ظلمهم، ببعيد عنه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة، التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ من أضيافي، وهذا كما عرض لسليمان ﷺ، على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه، لاستخراج الحق ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن، ولا حق لهم فيهن. والمقصود الأعظم، دفع هذه الفاحشة الكبرى.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم.

﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ ﴾ فينهاكم، ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم، من الخير والمروءة.

فـ ﴿ قَالُواْ ﴾ له: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ ﴾ كقبيلة مانعة، لمنعتكم.

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب.

﴿ قَالُواْ ﴾ له: ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، ﴿ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ بسوء.

ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطا بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطا، أن يسري بأهله ﴿ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي: بجانب منه

قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم.

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب ﴿ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط، إذا نزل به أضياف.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾ فكأن لوطا، استعجل ذلك، فقيل له: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بنزول العذاب، وإحلاله فيهم ﴿ جَعَلْنَا ﴾ ديارهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي: قلبناها عليهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أي. متتابعة، تتبع من شذ عن القرية.

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ فليحذر العباد، أن يفعلوا كفعلهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من التفسير للعلماء: اثنان منها كلاهما يشهد له القرآن، وواحد يظهر أنه ضعيف.

أما الذي يظهر أنه ضعيف فهو أن المعنى: أن تلك الحجارة ليست بعيدة من قوم لوط. اي لم تكن تخطئهم.

قاله القرطبي وغيره. لأن هذا يكفي عنه قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

حِجَارَةً ﴾ ونحوها من الآيات. أما الوجهان اللذان يشهد لكل واحد منهما قرآن فالأول منهما: أن ديار قوم لوط ليست ببعيدة من الكفار المكذبين لنبينا. فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام، ويخافوا أن يوقع الله بهم بسبب تكذيب نبينا محمد ﷺ مثل ما وقع من العذاب بأولئك، بسبب تكذيبهم لوطًا عليه الصلاة والسلام. والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً. كقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر: ٧٦ - ٧٧]، وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٣٧] وقوله: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٥] إلى غير ذلك من الآيات وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿وَمَا هِيَ ﴾ راجع إلى ديار قوم لوط المفهومة من المقام.

الوجه الثاني - أن المعنى: وما تلك الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين للفاعلين مثل فعلهم، فهو تهديد لمشركي العرب كالذي قبله.

ومن الآيات الدالة على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد: ١٠] فإن قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد: ١٠] ظاهر جداً في ذلك، والآيات بنحو ذلك كثيرة.

❀ ❀ ❀

س: ما مدة صحة المنقول عن رسول الله ﷺ: «...ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد»؟ وما معناه؟

ج: صحيح، وقد أخرجه البخاري ومسلم[(١)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**نحن أحق بالشكِّ من إبراهيم إذ قال ربي أرني كيف تحيي الموتى... الحديث**»، وفي بعض طرقه: «**يَغْفِرِ الله لِلُوطٍ إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى (فتح الباري)[(٢)]:

قَوْلُهُ: «**يَغْفِرِ الله لِلُوطٍ إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**» أَيْ إِلَى الله سُبْحَانه وَتَعَالَى، وَيُشِير ﷺ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ وَيُقَال إِنَّ قَوْم لُوط لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَد يَجْتَمِع مَعَهُ فِي نَسَبه لِأَنَّهُمْ مِنْ سَدُوم وَهِيَ مِنْ الشَّام وَكَانَ أَصْل إِبْرَاهِيم وَلُوط مِنْ الْعِرَاق، فَلَمَّا هَاجَرَ إِبْرَاهِيم إِلَى الشَّام هَاجَرَ مَعَهُ لُوط، فَبَعَثَ الله لُوطًا إِلَى أَهْل سَدُوم فَقَالَ: لَوْ أَنَّ لِي مَنَعَة وَأَقَارِب وَعَشِيرَة لَكُنْت أَسْتَنْصِر بِهِمْ عَلَيْكُمْ لِيَدْفَعُوا عَنْ ضِيفَانِي، وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْض طُرُق هَذَا الْحَدِيث كَمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَد مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن عَمْرو عَنْ أَبِي سَلَمَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ لُوط لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، قَالَ فَإِنْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد وَلَكِنَّهُ عَنَى عَشِيرَته فَمَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا فِي ذِرْوَة مِنْ قَوْمه**» زَادَ ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ هَذَا الْوَجْه: «**أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْل شُعَيْب: وَلَوْلَا رَهْطك لَرَجَمْنَاك**» وَقِيلَ: مَعْنَى قَوْله: «**لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد**» أَيْ: إِلَى عَشِيرَته، لَكِنَّهُ لَمْ يَأْوِ إِلَيْهِمْ وَأَوَى إِلَى الله انْتَهَى. وَالْأَوَّل أَظْهَر لِمَا بَيَّنَّاهُ. وَقَالَ النَّوَوِيّ: يَجُوز أَنَّهُ لَمَّا انْدَهَشَ بِحَالِ الْأَضْيَاف قَالَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ الْتَجَأَ إِلَى الله فِي بَاطِنه وَأَظْهَرَ هَذَا الْقَوْل لِلْأَضْيَافِ اِعْتِذَارًا، وَسَمَّى الْعَشِيرَة

---

(١) البخاري (٣٣٧٢ و ٣٣٧٥)، ومسلم (١٥١).

(٢) الفتح (٦/ ٤٧٨-٤٧٩).

رُكْنًا لِأَنَّ الرُّكْن يُسْتَنَد إِلَيْهِ وَيُمْتَنَع بِهِ فَشَبَّهَهُمْ بِالرُّكْنِ مِنْ الْجَبَل لِشِدَّتِهِمْ وَمَنْعَتهمْ ، وَسَيَأْتِي فِي الْبَاب الَّذِي بَعْده تَفْسِير الرُّكْن بِلَفْظٍ آخَر.

❁ ❁ ❁

س: ما فائدة ختام الآيات بقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾؟

ج: فائدة ذلك - والله أعلم - الخروج بالقصة من خير الخصوص إلى العموم، فليست هذه الحجارة بقاصرة على قوم لوط، بل يتوقع كل ظالم أن ينزل الله عليه عذابًا على ظلمه في أي وقت كان، وفي أي مكان كان.

وكثيرًا ما يحدث مثل هذا سواء في أبواب العقوبات أو في أبواب النعم والمنن، كما قال تعالى في شأن نوح عليه السلام بعد أن أنجاه وأغرق أعداءه ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾ [القمر: ٣٥] ثم عقب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ فكل شاكر يُجازيه الله عز وجل وينجيه الله عز وجل (في الدنيا أو في الآخرة) وكما قال في عدة آيات سواء في قصة موسى أو يوسف عليهما السلام وفي قصص غيرهما بعد أن ذكر ما منَّ به عليهم يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤﴾ [الأنعام: ٨٤] وكما في بعد ذكر قصة أيوب عليه السلام ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤] أي: ليتذكر العباد ما حدث لأيوب عليه السلام، وكيف وأن الله عز وجل شفاه وعافاه وأكرمه بعد طول سنين، وبعد أن

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ
وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠
عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا
يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ
﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ
وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا
ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ
شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ
لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا
ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ
أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ

مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ
﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا
بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

[هود: ٨٤-٩٥].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ - عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ - وَلَا تَبْخَسُوا - أَشْيَاءَهُمْ - وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ - بَقِيَّتُ اللَّهِ - بِحَفِيظٍ - الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ - رِزْقًا حَسَنًا - تَوْفِيقِي - تَوَكَّلْتُ - أُنِيبُ - لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي - وَدُودٌ - مَا نَفْقَهُ - رَهْطُكَ - لَرَجَمْنَاكَ - بِعَزِيزٍ - وَاتَّخَذْتُمُوهُ - وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا - عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ - يُخْزِيهِ - رَقِيبٌ - الصَّيْحَةُ - جَاثِمِينَ - كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا - بُعْدًا - بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾	أراكم في عافيةٍ وسلامة وسعة رزق.
﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾	عذاب يوم يحيط بكم لا تفرون منه.
﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾	لا تنقصوا.
﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾	حقوقهم.
﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾	لا تمشوا مسرعين في الأرض بالفساد والشر.
﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾	رزق الله الحلال الطيب – جنة الله – ما تبقى من الحلال الطيب.
﴿بِحَفِيظٍ﴾	بحافظ لأعمالكم.
﴿الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾	المتأني العاقل صائب الرأي القوي في الحق، وأرادوا الاستهزاء به عليه السلام، وقيل: عنوا بذلك السفية الضال.

﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾	رزقًا حلالًا.
﴿تَوْفِيقِيٓ﴾	هدايتي وسدادي.
﴿تَوَكَّلْتُ﴾	اعتمدت.
﴿أُنِيبُ﴾	أرجع وأرجو.
﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾	لا يحملنكم بفضلكم لي، ولا عداوتكم.
﴿وَدُودٌ﴾	محبٌّ (لأهل الإيمان) ومتودد لهم ويوادونه.
﴿مَا نَفْقَهُ﴾	ما نعلم وما ندري.
﴿رَهْطُكَ﴾	عشيرتك.
﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾	لسببناك – لرجمناك بالحجارة.
﴿بِعَزِيزٍ﴾	بممتنع، ولا بمستعصٍ علينا، بل نحن قادرين عليك.
﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾	رفضموه ورقيتم بأوامره ونواهيه وجعلتموها خلف ظهوركم لا تعبؤن بها.
﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾	على طريقتكم – على ما أنتم عليه من العمل.
﴿يُخْزِيهِ﴾	بتؤدة.
﴿رَقِيبٌ﴾	منتظر.
﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾	صيحة عظيمة (صوت عظم) أهلكهم.
﴿جَٰثِمِينَ﴾	هلكى باركين على الركب، وكذا ملتصقين بالأرض.
﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾	كأنهم لم يعيشوا في بلادهم من قبل.

﴿بُعۡدٗا﴾	هلاكًا وخسارًا.
﴿بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾	هلكت وخسرت.

س: من المعنيون بمدين؟

ج: قيل: إنهم قوم أرسل إليهم نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقيل: إنهم بنو مدين بن إبراهيم، فقيل: مدين والمراد: بنو مدين.

وقيل: إنه اسم للمدينة التي كانوا يسكنونها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ۝٨٦﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم –: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ ما لكم من معبود يستحق العبادة سواه، وهكذا دعا الرسل كلهم إلى عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم إن القوم كان يظلمون الناس فقد كانوا يطففون الكيل والميزان، أي: أنهم إذا باعوا للناس فكالوا لهم أو وزنوا لهم أنقصوا الناس حقوقهم، فحذرهم نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذا الصنيع قائلًا: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ في دنياكم عن سعة الأرزاق وسلامة الأبدان ورخص الأسعار وغير ذلك من نعم الدنيا وإني اخاف أن تسلب منكم هذه النعم ويحل بكم عذاب من الله عَزَّ وَجَلَّ يُحيط بكم لا تستطيعون الفرار منه إما في

الدنيا وإما في الآخرة.

ويؤكد عليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام الأمر بإيفاء الكيل والميزان قائلًا: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ أما القسط فهو العدل والحق، ولا تنقصوا الناس أشياءهم إذا قلتم لهم أو وزنتم لها ولا تستمروا في إفسادكم في الأرض مجتهدين في نشر هذا الفساد.

ثم يذكرهم قائلًا: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ أي: الحلال الطيب في الدنيا خيرٌ لكم من المال المحرم، وكذا رزق الله لكم في الآخرة خير لكم من الحرام الزائل الفاني، إن كنتم مصدقين بالآخرة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ لست أحفظ أعمالكم بل الله يحفظها ويكتبها، ولست بموكلٍ بهدايتكم فالله يهديكم ما شاء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى وَلَد مدين أخاهم شعيبًا، فلما أتاهم قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾، يقول: أطيعوه، وتذللوا له بالطاعة لما أمركم به ونهاكم عنه ، ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾، يقول: ما لكم من معبود سواه يستحقّ عليكم العبادة غيره ، ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ ﴾، يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في مكيالكم وميزانكم ، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾.

واختلف أهل التأويل في «الخير» الذي أخبر الله عن شعيب أنه قال لمدين إنه يراهم به.

فقال بعضهم: كان ذلك رُخْص السعر وَحذرهم غلاءه.

وقال آخرون: عنى بذلك: إنّي أرى لكم مالا وزينة من زين الدنيا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما أخبر الله عن شعيب أنه قال لقومه،

وذلك قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٍ﴾، يعني بخير الدنيا. وقد يدخل في خير الدنيا، المال وزينة الحياة الدنيا، ورخص السعر ، ولا دلالة على أنه عنى بقيله ذلك بعض خيرات الدنيا دون بعض، فذلك على كل معاني خيرات الدنيا التي ذكر أهل العلم أنهم كانوا أوتوها.

وإنما قال ذلك شعيب، لأن قومه كانوا في سعة من عيشهم ورخص من أسعارهم، كثيرة أموالهم، فقال لهم: لا تنقصوا الناس حقوقهم في مكاييلكم وموازينكم، فقد وَسَّع الله عليكم رزقكم، ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾، بمخالفتكم أمر الله، وبَخْسكم الناس أموالهم في مكاييلكم وموازينكم ، ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾، يقول: أن ينزل بكم عذاب يوم محيط بكم عذابه. فجعل «المحيط» نعتًا لليوم، وهو من نعت «العذاب»، إذ كان مفهومًا معناه، وكان العذاب في اليوم، فصار كقولهم: «بعْض جُبَّتك محترقة».

يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل شعيب لقومه: أوفوا الناس الكيل والميزان ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، يقول: بالعدل، وذلك بأن توفوا أهل الحقوق التي هي مما يكال أو يوزن حقوقهم، على ما وجب لهم من التمام، بغير بَخس ولا نقص.

وقوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم التي يجب عليكم أن توفوهم كيلا أو وزنًا أو غير ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾، يقول: ولا تسيروا في الأرض تعملون فيها بمعاصي الله.

ويعني تعالى ذكره بقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾، ما أبقاه الله لكم، بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان بالقسط، فأحلّه لكم، خير لكم من

الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان ، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، يقول: إن كنتم مصدّقين بوعد الله ووعيده، وحلاله وحرامه.

وهذا قولٌ روي عن ابن عباس بإسنادٍ غير مرتضى عند أهل النقل.

وقد اختلف أهل التأويل في ذلك.

فقال بعضهم معناه: طاعة الله خيرٌ لكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: حظكم من ربكم خير لكم.

وقال آخرون: معناه: رزق الله خير لكم.

وأورد عن ابن زيد بسندٍ صحيح قال: «الهلاك »، في العذاب، و«البقية» في الرحمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما اخترت في تأويل ذلك القولَ الذي اخترته، لأن الله تعالى ذكره إنما تقدم إليهم بالنهي عن بَخس الناس أشياءهم في المكيال والميزان، وإلى ترك التطفيف في الكيل والبخس في الميزان دعاهم شعيب، فتعقيب ذلك بالخبر عما لهم من الحظّ في الوفاء في الدنيا والآخرة، أولى ، مع أن قوله: ﴿بَقِيَّتُ ﴾، إنما هي مصدر من قول القائل «بقيت بقية من كذا»، فلا وجه لتوجيه معنى ذلك إلا إلى: بقية الله التي أبقاها لكم مما لكم بعد وفائكم الناس حقوقهم خير لكم من بقيتكم من الحرام الذي يبقى لكم من ظلمكم الناس ببخسهم إياهم في الكيل والوزن.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾، يقول: وما أنا عليكم، أيها الناس، برقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم، هل توفون الناس حقوقهم أم تظلمونهم؟ وإنما عليّ أن أبلغكم رسالة ربّي، فقد أبلغتكموها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين -وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريبًا من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيبا، وكان من أشرفهم نسبًا. ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ أي: في الدار الآخرة.

ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خَيْر لكم.

وأورد أقوالًا أُخر ثم قال:

قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ [المائدة:١٠٠].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عَزَّ وَجَلَّ. لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ تقدم. ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا؛ وإن

جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحوا له بغاية ما يقدرون ؛ فأمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك، وبالوفاء نهيا عن التطفيف. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي في سعة من الرزق، وكثرة من النعم. وقال الحسن: كان سعرهم رخيصا. ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يوم شديد ؛ أي شديد حره. واختلف في ذلك العذاب ؛ فقيل: هو عذاب النار في الآخرة.

وقيل: عذاب الاستئصال في الدنيا. وقيل: غلاء السعر.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا. والإيفاء الإتمام. ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ أي بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذي كل نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيال والموزون لأنه لم يقل: أوفوا بالمكيال وبالميزان ؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات. ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ بين أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض.

وأورد أقوالًا أُخر ثم قال:

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين. وقيل: يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم ؛ أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق. وقيل: أي لا يتهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم.

❊ ❊ ❊

بخس الناس حقوقهم
لا يقتصر على تطفيف الكيل والميزان

س: هل بخس الناس أشياءهم يقتصر على تطفيف الكيل والميزان؟

ج: لا يقتصر على تطفيف الكيل والميزان، بل يشمل كل إنقاص للحقوق، فمثلًا استشرت في شأن شخص فذكرت مساوئه ولم تذكر محاسنه فقد بخسته حقه، وكذلك إذا كنت تختبر أقوامًا فأعطيت من الدرجات والتقارير أقلَّ مما يستحقون فقد بخستهم حقوقهم.

بل إذا استشرت في شأن طالبٍ جيد فقلت إنه ليس بجيد فقد بخسته.

إن استشرت في شأن فتاة فقلت: إنها دميمة وليست هي بدميمة بل وضيئة فقد بخستها حقها وصور ذلك متعددة كثيرة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾؟

ج: هذا – والله أعلم-: جواب قوم شعيب لشعيب عليه السلام حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبدون من دون الله، وكذا عندما نهاهم عن تطفيف الكيل والميزان، قالوا له: يا شعيب أدينك الذي تكثر فيه من الصلاة يأمرك أن نترك عبادة الأوثان التي كان آباؤنا يعبدونها، وكذا أدينك ينهاك عن أن نتصرف في أموالنا بالطريقة التي يريدونها؟!!

وكأنهم قالوا ما للدين وما للصلاة بشؤوننا.

قالوا: ما للدين وما للصلاة بعبادتنا وما للصلاة بأموالنا؟!!

كأنهم قالوا: صل واقتصر على صلاتك ولا تتدخل في شؤون الحياة كأنهم

قالوا فما للدين والاقتصاد.

ثم قالوا: إنك لأنت الحليم الرشيد.

أي: أأنت الحليم الرشيد، ونحن وآباؤنا السفهاء الجهلاء.

ووجه آخر: إنك لأنت الذي كنا ندعوه بالحليم الرشيد تقول لنا هذا؟

ووجه ثالث: إنك لأنت في نظر نفسك الحليم الرشدي، أهذا هو رشدك وهذا هو حلمك.

ووجه رابع: إنك لأنت السفيه الضال، وإنما قال: ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ سخرية واستهزاء كما يُقال للكافر في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: ٤٩].

وكما كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال قوم شعيب: يا شعيب، أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة ما يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، من كسر الدراهم وقطعها، وبخس الناس في الكيل والوزن، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ﴾، وهو الذي لا يحمله الغضب أن يفعل ما لم يكن ليفعله في حال الرّضى، ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾، يعني: رشيد الأمر في أمره إياهم أن يتركوا عبادة الأوثان.

ثم قال:

وأما قوله لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ فإنهم أعداء الله، قالوا ذلك له استهزاءً به، وإنما سفَّهوه وجهَّلوه بهذا الكلام.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروي أن شعيبا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم. وقيل: إن الصلاة هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيان عن الأعمش، أي قراءتك تأمرك؛ ودل بهذا على أنهم كانوا كفارا. وقال الحسن: لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: معنى. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه؟!. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ يعنون عند نفسك بزعمك. ومثله في صفة أبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]. أي عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجون؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]. وقال سفيان بن عيينة: العرب تصف الشيء بضده للتطير والتفاؤل؛ كما قيل للديغ سليم، وللفلاة مفازة. وقيل: هو تعريض أرادوا به السب؛ وأحسن من هذا كله، ويدل ما قبله على صحته؛ أي إنك أنت الحليم الرشيد حقا، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا! ويدل عليه. ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضا ما يدل عليه.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنهم قالوه استهزاءً به، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والفراء.

والثاني: أنهم قالوا له: إنك لأنت السفيه الجاهل، فكنى بهذا عن ذلك، ذكره الزجاج.

والثالث: أنهم سبّوه بأنه ليس بحليم ولا رشيد، فأثنى الله عَزَّوَجَلَّ عليه فقال: بل إنك لأنت الحليم الرشيد، لا كما قال لك الكافرون، حكاه أبو سليمان الدمشقي عن أبي الحسن المصيصي.

والرابع: أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد حقيقة، وقالوا: أنت حليم رشيد، فَلِمَ تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ حكاه الماوردي، وذهب إِلى نحوه ابن كيسان.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ أي: أئنك أنت الذي، الحلم والوقار، لك خلق، والرشد لك سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية، أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاوون؟!!

وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن ينهاهم، عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء

والمنكر، وأي فحشاء ومنكر، أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقتها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: جواب نبي الله الكريم شعيب عليه السلام لقومه يقول لهم: يا قوم أرأيتم إن كنت على علمٍ وبصيرة وحجة وبرهان من الله عز وجل الذي هو ربي، وقد تفضل عليَّ بالرزق الحلال الطيب، قيل: إنه كان ثريًّا عليه السلام، وكان من ذوي التجارات والأموال، وقيل: إن أراد بالرزق الحسن: الحلال الطيب من العلم والهداية والتوفيق.

وهنا مضمرٌ مفهوم من السياق حاصله والله أعلم: أفأخالف أمر ربي وأكفر نعم ربي، وقد أنعم عليَّ، كلَّا فما أريد أن آمركم بشيء وأفعل خلافه بل الذي أريده إصلاح أموري وأموركم قدر جهدي واستطاعتي، وما سدادي وهدايتي وتوفيقي إلا بالله عز وجل هو الذي يوفقني فيما أريد، وهو الذي يهديني، وهو القادر على هدايتكم إن شاء، عليه أعتمد في أموري كلها، وإليه أرجع وألجأ في كل ما أريد، وأرجع إليه راجيًا عفوه، راجيًا رحمته عز وجل.

ثم يواصل عليه السلام قائلًا، ويا قوم لا يحملنكم بغضكم لي ولا تحملنكم

كراهيتكم لي على أن تتمادوا في الكفر والمعاصي فيحل بكم مثل الذي حلّ بقوم نوح من الطوفان والعذاب، أو بقوم هود من الريح العقيم، أو بقوم صالح من الرجفة، ثم هؤلاء قريبون منكم، ألا وهم قوم لوط، وقد رأيتم ما حلَّ بهم من قلب بلادهم رأسًا على عقب، ومن إرسال الحجارة عليهم، فها هم قريبون منكم، قيل: بلادهم كانت قريبة من بلادهم، وقيل: كانوا قريبين في الزمن منهم، ثم يواصل تذكيره ونصحه قائلًا: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ من سالف ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ ثم ارجعوا إليه وأقبلوا على طاعته ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ لمن استغفر من ذنبه ورجع إلى ربه ﴿وَدُودٞ ٩٠﴾ محبٌّ لأهل الإيمان، ويحبونه كذلك من قلوبهم، وذو ودٍّ وإحسان لعباده المؤمنين المستغفرين التائبين. والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال شعيب لقومه: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيان وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾، يعني حلالا طيّبًا. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾، يقول: وما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعلُ خلافه، بل لا أفعل إلا ما آمركم به، ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه.

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾، يقول: ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه، إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم، ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾، يقول: ما قدرت على إصلاحه، لئلا ينالكم من الله عقوبة منكِّلة، بخلافكم أمره، ومعصيتكم رسوله، ﴿وَمَا

﴿تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ يقول: وما إصابتي الحق في محاولتي إصلاحكم وإصلاح أمركم إلا بالله، فإنه هو المعين على ذلك، إلا يعنّي عليه لم أصب الحق فيه.

وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، يقول: إلى الله أفوض أمري، فإنه ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري.

وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾، وإليه أقبل بالطاعة،وأرجع بالتوبة.

ويقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾، يقول: لا يحملنكم عداوتي وبغضي، وفراق الدين الذي أنا عليه، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، وبخس الناس في المكيال والميزان، وترك الإنابة والتوبة، فيصيبكم ، ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾، من الغرق ، ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾، من العذاب ، ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾، من الرّجفة ، ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ﴾ الذين ائتفكت بهم الأرض ، ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾، هلاكهم، أفلا تتعظون به، وتعتبرون؟ يقول: فاعتبروا بهؤلاء، واحذروا أن يصيبكم بشقاقي مثلُ الذي أصابهم.

وقال أيضًا: وقد يحتمل أن يقال: معناه: وما دارُ قوم لوط منكم ببعيد.

قال الطبري:

يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل شعيب لقومه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أيها القوم من ذنوبكم بينكم وبين ربكم التي أنتم عليها مقيمون، من عبادة الآلهة والأصنام، وبَخْس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين ، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾، يقول: ثم ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه ، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾، يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة. ﴿وَدُودٞ ٩٠﴾، يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يودُّه ويحبُّه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

وقال الثوري: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أي: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري، ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ أي: أرجع.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول لهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

قال قتادة: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي.

وقال السدي: عداوتي، على أن تتمادوا في الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

وقوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قيل: المراد في الزمان، كما قال قتادة في قوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ يعني إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿ إِنَّ

رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ أي: لمن تاب وأناب.

❁ ❁ ❁

النهي عن مخالفة الفعل للقول

س: اذكر بعض الوارد في النهي عن مخالفة الفعل للقول.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢-٣].

وقوله شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾.

وما أخرجه البخاري ومسلم:

من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ. أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

وما أخرجه أحمد وغيره بسندٍ صحيح من حديث أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ رَجعَت. فَقُلْتُ لِجِبْرِيل مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ».

وقد تقدم في سورة البقرة كمٌّ كبير من الأقوال في هذا الصدد وبالله التوفيق.

❃ ❃ ❃

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – أن قوم شعيب عليه السلام لما ذكَّرهم بنبيهم عليه السلام

بعبادة الله وحده وترك التطفيف في الكيل والميزان، قالوا له: يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول، ما نفهم قولك ولا نعي مرادك فإنك تكلمنا وتُخبرنا من البعث والثواب والعقاب والجنة والنار، لا نفهم شيئًا عن ذلك إلا القليل، وإنا لنراك ضعيفًا فينا لست بقوي، ولا من ذوي الوجاهات، وقيل: إنه كان ضريرًا ضعيف البصر، وقيل: كان أعمى ولولا عشيرتك لرجمناك، قيل: رجمناك بالحجارة، وقيل: رجمناك بالقول أي: سببناك وشتمناك، أما أنت فلست بممتنع منا، بل أنت في متناولنا ولسنا بعاجزين منك.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال قوم شعيب لشعيب: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، أي: ما نعلم حقيقة كثير مما تقول وتخبرنا به، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾.

ذُكِر أنه كان ضريرًا، فلذلك قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾.

وأورد الطبري بعض أقوال العلماء في أنه ﷺ كان أعمى، وقول آخرين: إنه كان ضعيف البصر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾، يقول: يقولون: ولولا أنك في عشيرتك وقومك، ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾، يعنون: لسببناك.

وقال بعضهم: معناه لقتلناك.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾، يعنون: ما أنت ممن يكرَّم علينا، فيعظمُ علينا إذلاله وهوانه، بل ذلك علينا هيّن.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقولون: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم ولا نعقل كثيرًا من قولك، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب. ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾.

قال سعيد بن جبير، والثوري: كان ضرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: خطيب الأنبياء.

وقال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ قال: أنت واحد.

وقال أبو روق: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ يعنون: ذليلا؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك.

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ قيل بالحجارة، وقيل: لسببناك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ أي: ليس لك عندنا معزة.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاما لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة. وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

❁ ❁ ❁

إن الله يؤيد الدّين بالرجل الفاجر أو الكافر

س: كثيرًا ما يؤيد الله ﷻ الدين بالرجل الفاجر، ويدفع الله الشرور عن المسلمين بأقوامٍ فجارٍ بل كفار دلِّل على ذلك:

ج: من ذلك ما يلي:

قول قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾.

وما أخرج البخاري ومسلم[1] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ: «**هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ**» فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الَّذِي قُلْتَ لَهُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُ قَدْ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا وَقَدْ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِلَى النَّارِ**». قَالَ: فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَرْتَابَ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا. فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْجِرَاحِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**» ثُمَّ أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى بِالنَّاسِ: «**إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**».

وكذا دفاع أبي طالب عم رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ.

وكذا دفاع المطعم بن عدي عن رسول الله ﷺ لما نزل رسول الله ﷺ في جواره.

وكذا ما أخرجه البخاري ومسلم[2] من حديث سهل بن سعد الساعدي

---

(١) البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

(٢) البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالَ الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

وفي الباب قصة إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كذلك.

وأخرج ابن حبان في موارد الظمآن بسندٍ حسنٍ[1]:

عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم تعلم قريش بإسلامه فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره أعقل ما أرى وأسمع فأتاه فقال: يا جميل إني قد أسلمت قال: فوالله ما رد عليه كلمة حتى قام عامدا إلى المسجد فنادى أندية قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن الخطاب قد صبأ فقال عمر: كذب ولكني

(١) موارد الظمآن (٢١٨١).

أسلمت وآمنت بالله وصدقت رسوله فشاوروه فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم حتى فتر عمر وجلس فقاموا على رأسه فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم فوالله لو كنا ثلاث مئة رجل لقد تركتموهما لنا أو تركناها لكم فبينما هم كذلك قيام عليه إذ جاء رجل عليه حلة حرير وقمبص قومسي فقال: ما بالكم ؟ فقالوا: إن ابن الخطاب قد صبأ قال: فمه امرؤ اختار دينا لنفسه أفتظنون أن بني عدي تسلم إليكم صاحبهم ؟ قال: فكأنما كانوا ثوبا انكشف عنه فقلت له بعد بالمدينة: يا أبت من الرجل الذي رد عنك القوم يومئذ ؟ فقثال: يا بني ذاك العاص بن وائل.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:

قولــه تعــالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه شعيباً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم كفار.

وهو دليل على المتمسك بدينه قد يعينه الله ويعزه بنصرة قريبه الكافر، كما بينه تعالى في مواضع أخر. كقوله في صالح وقومه: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ [النمل: ٤٩] الآية.

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاء وسرقة لكانوا يحلفون لأوليائه الذين هم عصبته أنهم ما فعلوا به سوءاً، ولا شهدوا ذلك ولا حضروه خوفاً من عصبته. فهو عزيز الجانب بسبب عصبته

الكفار. وقد قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦] أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

وذلك بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية، ولا صلة له بالدين ألبتة. فكون جل وعلا يمتن على رسوله ﷺ بإيواء ابي طالب له دليل على أن الله قد ينعم على المتمسك بدينه بنصرة قريبه الكافر.

ومن ثمرات تلك العصبية النسبية قول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة أبشر بذاك وقر منه عيونا

وقوله أيضًا:

ونمنعه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ولهذا لما كان نبي الله لوط عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس له عصبة في قومه الذين أرسل إليهم، ظهر فيه أثر عدم العصبة. بدليل قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ [هود: ٨٠].

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن المسلمين قد تنفعهم عصبية إخوانهم الكافرين.

ولما ناصر بن المطلب بن عبد مناف بني هاشم ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف وبنو نوفل بن عبد مناف عرف النَّبي ﷺ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين. فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام» ومنع بني عبد شمس وني نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع

أولاد عبد مناف بن قصي.

وقال أبو طالب في بني عبد شمس وبني نوفل:

جزى الله عنـا عبد شـمس ونـوفلا ... عقوبــة شــر عاجـل غيــر آجــل

بميــزان قســط لا يخــيس شــعيرة ... لــه شــاهد مــن نفســه غيــر عائـل

لقــد ســفهت أحــلام قــوم تبــدلوا ... بنــي خلــف قيضــا بنــا والغياطـل

والغياطل « بالغين المعجمة » ومراد أبي طالب بهم: بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي « القبيلة المشهورة من قبائل قريش » وإنما سموا الغياطل، لأن قيس بن عدي بن سعد بن سهم الذي هو من سادات قريش العظام، وهو الذي يعنيه عبد المطلب بقوله يرقص ابنه عبد الله وهو صغير:

كأنــه فــي العــز قــيس بــن عــدي ... فــي دار ســعد ينتــدي أهــل النــدى

تزوج امرأة من كنانة تسمى « الغيطلة » وهي أم بعض أولاده. فسمي بنو سهم الغياطل. لأن قيس بن عدي المذكور سيدهم.

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان لذلك اثر حسن على الإسلام والمسلمين. وقد يكون من منن الله على بعض أنبيائه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: « **إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر** » وفي المثل: « **اجتن الثمار وألق الخشبة في النار** ».

فإذا عرفت دلالة القرآن على ان المسلم قد ينتفع برابطة نسب وعصبية من كافر، فاعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز. لإجماع المسلمين على ان المسلم لا يجوز له الدعاء بيا لبني فلان ونحوها.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبي قال في تلك الدعوة: « **دعوها فإنها منتنة** » وقوله ﷺ: « **دعوها** » يدل على وجوب تركها. لأن صيغة أفعل للوجوب - إلا لدليل صارف عنه، وليس هنا دليل صارف عنه. ويؤكد ذلك تعليله الأمر بتركها بأنها منتنة، وما صرح النَّبي ﷺ بالأمر بتركه وأنه منتن لا يجوز لأحد تعاطيه، وإنما الواجب على المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد. فهي تربطك بأخيك المسلم كربطك أعضائك بعضها ببعض، قال ﷺ: « **إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** ».

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] تحققت أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ولا يخفى أن أسلافنا معاشر المسلمين إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسبية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا

جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

ج: هذا – والعلم عند الله ﷻ -: خطاب نبي الله شعيب عليه السلام لقومه، وبيانٌ لما أحلَّه الله ﷻ بهم من العقوبة، فقال عليه السلام لهم: يا قوم أقبيلتي وعيرتي أعزَّ عليكم من الله، هي التي تمنعكم من إلحاق الأذى والضرر بي، ولا يمنعكم خوف الله من ذلك، بل اتخذتم ربمك ﷻ وأوامره ورائكم ظهريًّا، لم تبالوا بربكم ولم تخشوه ولم تراقبوه، وكذا لم تلقوا بالًا بأوامره ﷻ ونواهيه بل جعلتم كل ذلك وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾﴾ لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم ولا من تدبيركم ولا من مكركم.

ويا قوم اعملوا على مكانتكم، استمروا في العمل الذي تعملونه في منازلكم متئدين في ذلك متمكنين من عملكم فإني عامل على طريقتي متمكن فيها سوف تعلمون من يأتيه عذاب يُهينه، يُذلّه ويخزيه وستعلمون من هو كاذبٌ في دعواه، وانتظروا ما سيحل بكم من العقاب وسأنتظر – بإذن الله – ثواب الله لي.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ قضاؤنا الذي قضيناه وحُكمنا الذي حكمنا به نجينا شعيبًا عليه السلام من العذاب وكذا أنجينا أهل الإيمان الذين اتبعوه وصدقوه بفضل منا وبرحمة منا، أما أهل الظلم والتكذيب فأخذتهم الصيحة، قيل: صاح جبريل عليه السلام صيحة شديدة أهلكتهم جميعًا وأبادتهم، وقيل: إنها صيحة أمر الله بها، والله أعلم بمن صاحبها وكيف كانت فأهلكتهم جميعًا فأصبحوا في ديارهم جاثمين على ركبهم هلكى وصرعى بدورهم وأفنيتهم، كأنهم لم يعيشوا في هذه الديار من قبل، ألا هلاكًا وخسارًا لهذه الأمة الظالمة، هلاكًا

وخسارًا وبُعدًا عن الخير كما أُهلكت وخسرت قبيلة ثمود.

سلمنا الله وأهل الإيمان من الشرور والآثام.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال شعيب لقومه: يا قوم، أعزّزتم قومكم، فكانوا أعزّ عليكم من الله، واستخففتم بربكم، فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون لأمره ولا تخافون عقابه، ولا تعظِّمونه حق عظَمته؟

يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: «نَبَذ حاجته وراء ظهره»، أي: تركها لا يلتفت إليها. و إذا قضاها قيل: «جعلها أمامه، ونُصْب عينيه »، ويقال: «ظَهَرتَ بحاجتي » و«جعلتها ظِهْرِيّة»، أي: خلف ظهرك، كما قال الشاعر:

وَجَدْنَا بَنِي البَرْصَاءِ مِنْ وَلَدِ الظَّهْرِ

بمعنى: أنهم يَظْهَرون بحوائجِ النّاس فلا يلتفتون إليها.

وقال آخرون: معنى ذلك: واتخذتم ما جاء به شعيبٌ وراءكم ظهريًّا، فالهاء في قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾، على هذا من ذكر ما جاء به شعيب.

قال الطبري: وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في تأويل ذلك، لقرب قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾، من قوله: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فكانت الهاء في قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾، بأن تكون من ذكر الله، لقرب جوارها منه، أشبه وأولى.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢﴾، يقول: إن ربي محيط علمه بعملكم، فلا يخفى عليه منه شيء، وهو مجازيكم على جميعه عاجلا وآجلا.

ويقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، يقول: على تمكنكم.

يقال منه: «الرجل يعمل على مَكينته، ومَكِنته»، أي: على اتئاده، «ومَكُن الرجل يمكُنُ مَكْنًا ومَكانةً ومَكانًا».

وكان بعض أهل التأويل يقول في معنى قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، على منازلكم.

قال أبو جعفر: فمعنى الكلام إذًا: ويا قوم اعملوا على تمكنكم من العمل الذي تعملونه، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على تؤدةٍ من العمل الذي أعمله، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أينا الجاني على نفسه، والمخطئ عليها، والمصيب في فعله المحسنُ إلى نفسه.

يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل نبيّه شعيب لقومه: الذي يأتيه منّا ومنكم، أيها القوم، ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، يقول: يذله ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾، يقول: ويُخزي أيضًا الذي هو كاذب في قيله وخبره منا ومنكم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾، أي: انتظروا وتفقدوا من الرقبة.

يقال منه: «رقبت فلانًا أرْقُبه رِقْبَةً».

وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾، يقول: إني أيضًا ذو رقبة لذلك العذاب معكم، وناظر إليه بمن هو نازل منا ومنكم؟

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ولما جاء قضاؤنا في قوم شعيب، بعذابنا ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ رسولنا، والذين آمنوا به فصدقوه على ما جاءهم به من عند ربهم مع شعيب، من عذابنا الذي بعثنا على قومه، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، له ولمن آمن به وأتبعه على ما

جاءهم به من عند ربهم ، وأخذت الذين ظلموا صيحة من السماء أخمدتهم، فأهلكتهم بكفرهم بربهم. وقيل: إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، صاح بهم صَيحةً أخرجت أرواحهم من أجسامهم ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾، على ركبهم، وصرعى بأفنيتهم.

وقال:

يقول تعالى ذكره: كأن لم يعش قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذابه، حين أصبحوا جاثمين في ديارهم قبل ذلك. ولم يغنوا.

من قولهم: «غنيت بمكان كذا»، إذا أقمت به، ومنه قول النابغة:

غَنِيَتْ بِذَلِكَ إِذْ هُمُ لِي جِيرَةٌ ... مِنْهَا بِعَطْفِ رِسَالَةٍ وَتَوَدُّدِ

وقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾، يقول تعالى ذكره: ألا أبعد الله مدين من رحمته، بإحلال نقمته بهم ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾، يقول: «كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته، بإنزال سخطه بهم».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما يئس نبيّ الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم، ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد شديد، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على طريقتي ومنهجي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم قومه، ﴿الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وقوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾ أي: هامدين لا حِرَاك بهم. وذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة،

وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقَمُ كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف:٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ وكانوا جيرانهم قريبًا منهم في الدار، وشبيهًا بهم في الكفر وقَطْع الطريق، وكانوا عربا شبههم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قال المفسرون: صاح بهم جبريل فماتوا في أمكنتهم. قال محمد بن كعب: عُذّب أهل مدين بثلاثة أصناف من العذاب، أخذتهم رجفة في ديارهم، حتى خافوا أن تسقط عليهم، فخرجوا منها فأصابهم حرٌّ شديد، فبعث الله الظُلّةَ، فتنادَوا: هلم إلى الظل؛ فدخلوا جميعًا في الظُلّة، فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم. قال ابن عباس: لم تعذَّب أمتان قط بعذاب واحد، إلا قوم شعيب وصالح، فأما قوم صالح، فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب، فأخذتهم من فوقهم، نشأت لهم سحابة كهيئة الظُلّة فيها ريح بعد أن امتنعت الريح عنهم، فَأَتَوْها يستظلّون تحتها فأحرقتهم.

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أي: كما هلكت ثمود.

وقال السعدي في تفسيره:

﴿قَالَ﴾ لهم مترفقا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله.

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتم أمر الله، وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

﴿و﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالتكم ودينكم.

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويحل عليه عذاب مقيم أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ ما يحل بي ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ما يحل بكم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ لا تسمع لهم صوتا، ولا ترى منهم حركة.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك.

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه.

❁ ❁ ❁

بعض الفوائد المأخوذة من قصة شعيب عليه السلام

س: اذكر بعض الفوائد المأخوذة من قصة شعيب عليه السلام مع قومه؟

ج: من ذلك ما يلي:

أولًا: ديننا ينظم لنا كل شؤوننا، فليس ديننا بمقتصر على الصلاة والصيام فحسب بل ينظم لنا المعاملات كذلك، كما قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾.

وكذا سائر شؤون الحياة نأتمر فيها بأمر الله عز وجل وننتهي عما نهانا عنه، في الاقتصاد عمومًا، وفي السياسة، وفي الحدود، والمعاملات، والآداب، والمعتقدات، والأخلاق وغير ذلك.

ثانيًا: أن المعاصي سبب لزوال النعم فإن العقوبة حلت بأهل مدين لما كذَّبوا رسولهم وعاندوه.

ثالثًا: أن الله عز وجل قد يحفظ بعض أوليائه بسبب بعض الكفار قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام ولولا رهطك لرجمناك....

رابعًا: أن الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر يبدء بنفسه وأن المرء لا يخالف قوله فعله، ولا فعله قوله.

خامسًا: أننا ومع إرادتنا الإصلاح لابد من سؤال الله التوفيق، فكم من مريدٍ للإصلاح وساعٍ فيه لكن يغفل عن سؤال الله التوفيق فلا يوفق.

وثمَّ فوائد أُخر أوردها عددٌ من العلماء.

قال السعدي رحمه الله:

وفي قصته من الفوائد والعبر، شيء كثير:

منها: أن الكفار، كما يعاقبون، ويخاطبون، بأصل الإسلام، فكذلك

بشرائعه وفروعه، لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد، مرتبا على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكاييل والموازين، من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة، على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين، موجبة للوعيد، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخس أموال الناس، يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: فلا تسببوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ ففي ذلك، من البركة، وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة.

ومنها: أن ذلك، من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به، على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة، لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها، تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما

فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار، ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله، أو خالفه.

ومنها: أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ ولقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢-٣].

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يقدر عليه منها وبدفع المفاسد وتقليلها ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملوما ولا مذموما في عدم فعله ما لا يقدر عليه فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين بل لا يزال مستعينا بربه متوكلا عليه سائلا له التوفيق وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه لقوله ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨ ﴾ [هود: ٨٨].

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده ولا عبرة بقول من يقول «إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو وأما عود الود والحب فإنه لا يعود» فإن الله قال ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئا منها وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها بل ربما تعين ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة والله أعلم.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ
أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ
ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠
وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ
إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ
عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ
إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ
١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ
مَجۡذُوذٖ ١٠٨ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن
قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩ ﴾ [هود: ٩٦-١٠٩].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿بِـَٔايَٰتِنَا – وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ – وَمَلَإِيْهِۦ – بِرَشِيدٖ – يَقۡدُمُ – ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ – وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ – لَعۡنَةٗ – ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ – أَنۢبَآءِ – قَآئِمٞ – وَحَصِيدٞ – أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ – تَتۡبِيبٖ – أَخۡذُ رَبِّكَ – أَخۡذَهُۥٓ – مَّشۡهُودٞ – لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ – لَا تَكَلَّمُ – شَقِيّٞ – وَسَعِيدٞ – زَفِيرٞ – وَشَهِيقٌ – عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ – مِرۡيَةٖ – مَنقُوصٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾	بحججنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا على صدقه في أنه رسول من عند الله (قيل: إنه التوراة، وقيل: سائر المعجزات كالعصا واليد وغير ذلك).
﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾	حجةٌ مظهرةٌ أنه رسول من عند الله.
﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾	سادات قومه وأشرافهم.
﴿بِرَشِيدٖ﴾	بموفقٍ ولا سديد.
﴿يَقۡدُمُ﴾	يتقدم..
﴿ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾	المدخل المدخول – المكان المدخول.
﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾	ألحقوا في الدنيا بعد مماتهم.
﴿لَعۡنَةٗ﴾	دعاءً عليهم بالطرد من رحمة الله.
﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾	بئست العطية المُعطاة وبئس الإكرام الذي يُكرمون به.
﴿أَنۢبَآءِ﴾	أخبار.

﴿قَآئِمٌ﴾	بنيانه موجود وقائم لكنه غير مسكون، أو موجود وقائم لكن يسكنه غير أهله.
﴿وَحَصِيدٌ﴾	محصود مُدمر متهدم.
﴿أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾	دفعت عنهم.
﴿تَتْبِيبٍ﴾	تخسير – هلاك.
﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾	عقاب ربك – انتقام ربك – إهلاك ربك للقرى.
﴿أَخْذَهُۥٓ﴾	عقابه – انتقامه.
﴿مَّشْهُودٌ﴾	محضور مرئيٌّ.
﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾	لوقت حدده الله.
﴿لَا تَكَلَّمُ﴾	لا تتكلم
﴿شَقِيٌّ﴾	كافر – مسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي.
﴿وَسَعِيدٌ﴾	مؤمن – عامل بالطاعات وعامل للصالحات.
﴿زَفِيرٌ﴾	الهواء الخارج من الأنف والفم بشدة.
﴿وَشَهِيقٌ﴾	الهواء الداخل إلى الجوف عن طريق الأنف أو الفم.
﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾	عطاء غير مقطوع.
﴿مِرْيَةٍ﴾	شك.
﴿مَنقُوصٍ﴾	منجوس – ناقص.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ولقد أرسلنا نبينا وكليمنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بما أيدناه به من التوراة وسائر المعجزات كالعصا واليد وبحجج مبينة أنه رسول من عندنا، أرسلناه بذلك إلى فرعون وسادات قومه وكبراءهم فما استجابوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بل اتبعوا خطوات فرعون ذلك المتكبر المتجبر، وانساقوا خلفه فيما يدعوهم إليه من الضلال والكفر، وما أمر فرعون بموفق ولا سديدٍ ولا مرشدٍ إلى خير، فكان عاقبة تكذيبه وعاقبة اتباع قومه له أنه (أي: فرعون لعنه الله) يتقدم قومه يوم القيامة، ويقودهم، ولكن يقودهم إلى ماذا؟ يقودهم إلى الجحيم والعياذ بالله، وهو يتعبونه على ذلك فأدخلهم النار وبئس المدخل المدخول، ولم يقف أمرهم على ذلك بل من جاء من بعدهم في الدنيا يلعنهم ويدعي عليهم بالطرد من رحمة الله، فبئست العطية التي يُعطونها بعد موتهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا على توحيدنا، وحجة تُبين لمن عاينها وتأملها بقلب صحيح. أنها تدل على توحيد الله، وكذب كل من ادّعى الربوبية دونه، وبُطُول قول من أشرك معه في الألوهية غيره، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾، يعني إلى أشراف جنده وتُبّاعه، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾، يقول: فكذب فرعون وملأه موسى، وجحدوا وحدانية الله، وأبوا قبول ما أتاهم به موسى من عند الله، واتبع ملأ فرعون أمرَ فرعون دون أمر الله، وأطاعوه في تكذيب موسى، وردّ ما جاءهم به من عند الله عليه، يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا

أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ۝٩٧﴾ يعني: أنه لا يُرشد أمر فرعون من قَبِله منه، في تكذيب موسى، إلى خير، ولا يهديه إلا صلاح، بل يورده نار جهنم.

ويقول تعالى ذكره: ﴿يَقۡدُمُ﴾، فرعون، ﴿قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، يقودهم، فيمضي بهم إلى النار، حتى يوردهموها، ويصليهم سعيرها، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ﴾، يقول: وبئس الورد الذي يردونه.

ويقول الله تعالى ذكره: وأتبعهم الله في هذه -يعني في هذه الدنيا- مع العذاب الذي عجله لهم فيها من الغرق في البحر، لعنتَه، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، يقول: وفي يوم القيامة أيضًا يلعنون لعنةً أخرى.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بين أنه أتبع النبي النبي لإقامة الحجة، وإزاحة كل علة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بالتوراة. وقيل: بالمعجزات. ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٩٦﴾ أي حجة بينة؛ يعني العصا. وقد مضى في «آل عمران» معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة. ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ أي شأنه وحاله، حتى اتخذوه إلها، وخالفوا أمر الله تعالى. ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ۝٩٧﴾ أي بسديد يؤدي إلى صواب: وقيل: ﴿بِرَشِيدٖ﴾ أي بمرشد إلى خير.

قوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم. يقال: قدمهم يقدمهم قدما وقدوما إذا تقدمهم. ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ أي أدخلهم فيها. ذكر بلفظ الماضي؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يعبر عن المستقبل بالماضي. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ أي بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود، وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك. والمورود

الماء الذي يورد، والموضع الذي يورد؛ وهو بمعنى المفعول.

قوله تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً ﴾ أي: في الدنيا. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدم هذا المعنى. ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ حكى الكسائي وأبو عبيدة: رفدته أرفده رفدا؛ أي أعنته وأعطيته. واسم العطية الرفد؛ أي بئس العطاء والإعانة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن إرسال موسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بآياته وبيناته، وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: مسلكه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مُقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يُقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رَدَاها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [المزمل:١٦]، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات:٢١ -٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف:٣٨]، وقال تعالى إخبارًا عن الكفَرة أنهم يقولون في النار: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

ثم قال:

وقولـــــــه: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةً وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ أي: أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

ثم قال: وهذه كقوله تعالى:

﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةًۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصـــــص:٤١، ٤٢]، وقــال تعــالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ ﴾ بن عمران ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا، واليد ونحوهما، من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿ وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾ أي: حجة ظاهرة بينة، ظهرت ظهور الشمس.

﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أي: أشراف قومه لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات، التي أراهم إياها، كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾ بل هو ضال غاو، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم.

﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ ﴾ أي في الــدنيا ﴿ لَعۡنَةً وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ أي يلعــنهم الله وملائكتــه والنـــاس

أجمعون في الدنيا والآخرة

﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ أي بئس ما اجتمع لهم وترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: هذا الذي أخبرناك به يا رسول الله من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها وأبدناهم ودمرناهم وأخذناهم بالعذاب، منها قرى منازلها ما زالت قائمة وأُبيد أهلها وأهلكهم الله وسكنها آخرون، أو هي أيضًا قائمة ولكنها خربة لم يسكنها أحدٌ، ومنها قرى أخرى حصدناها ودمرناها فهي متهدمةٌ ساقطةٌ أو ممحوٌّ أثرها، وما ظلمناهم بما صنعناه فيهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بشركهم بالله ﷻ، وعبادتهم آلهة أخرى مع الله فما دفعت عنهم تلك الآلهة شيئًا أراده الله بهم، وما نصرتهم من الله ولا خففت عنهم من عذابه، ولم ينتفعوا بها أي: انتفاع حينما نزل عليهم من الله العذاب، كما أنها لم تنفعهم قط في دنياهم بشيءٍ ولم تغن عنهم شيئًا فكذا لم تغن عنهم عند حلول عذاب الله بهم في الدنيا من شيء، ولن تغني عنهم يوم القيامة شيئًا بل تتبرأ منهم وتلعنهم، وما زادتهم عبادتهم لها إلا تتبيبًا إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا وضياعًا.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: هذا القصص الذي ذكرناه لكَ في هذه

السورة،، والنبأ الذي أنبأناكه فيها، من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله ، ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ فنخبرك به ، ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾، يقول: منها قائم بنيانه، بائدٌ أهله هالك، ومنها قائم بنيانه عامر، ومنها حصيدٌ بنيانه، خرابٌ متداعٍ، قد تعفى أثرُه دارسٌ.

من قولهم: «زرع حصيد»، إذا كان قد استؤصل قطعه، وإنما هو محصود، ولكنه صرف إلى «فعيل»، كما قد بينا في نظائره.

ويقول تعالى ذكره: وما عاقبنا أهل هذه القرى التي اقتصَصنا نبأها عليك، يا محمد، بغير استحقاق منهم عقوبتنا، فنكون بذلك قد وضعنا عقوبتنا هُمْ في غير موضعها ، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾، يقول: ولكنهم أوجبوا لأنفسهم بمعصيتهم الله وكفرهم به، عقوبتَه وعذابه، فأحلوا بها ما لم يكن لهم أن يحلوه بها، وأوجبوا لها ما لم يكن لهم أن يوجبوه لها ، ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾، يقول: فما دفعت عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله، ويدعونها أربابًا من عقاب الله وعذابه إذا أحله بهم ربُّهم من شيء، ولا ردَّت عنهم شيئًا منه ، ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾، يا محمد، يقول: لما جاء قضاء ربك بعذابهم، فحقّ عليهم عقابه، ونزل بهم سَخَطه ، ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾، يقول: وما زادتهم آلهتهم عند مجيء أمر ربك هؤلاء المشركين بعقاب الله غير تخسيرٍ وتدميرٍ وإهلاك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونَجّى المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: من أخبارها ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾ أي: عامر، ﴿وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾ أي: هالك دائر، ﴿وَمَا

ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي: إذ أهلكناهم، ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ ﴾ أي: بتكذيبهم رَسلنا وكفرهم بهم، ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها، ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي: ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودَمَارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها فبهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، في الدنيا والآخرة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ ﴾ لتنذر به ويكون آية على رسالتك وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ ﴾ لم يتلف بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم ﴿ وَ ﴾ منها ﴿ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ قد تهدمت مساكنهم واضمحلت منازلهم فلم يبق لها أثر.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ ﴾ بالشرك والكفر والعناد.

﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي خسار ودمار بالضد مما خطر ببالهم.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا
دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا
يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وكذلك الانتقام الذي انتقمنا من الأمم المتقدمة الذين قدمنا ذكرهم وما أحللناه بهم من العقوبة، بمثل هذا الانتقام ننتقم من القرى الظالمة عمومًا، إن انتقام الله ﷻ وأخذه للقرى الظالمة أليمٌ، مؤلمٌ شديد الألم وشديد الأخذ والانتقام، إن في ذلك الانتقام من المكذبين لدلالة على قدرتنا ودلالة على وحدانيتنا، ودلالة على انتقامنا من المكذبين بنا لكن لا يعقل هذه الدلالات إلا من خاف عذاب يوم القيامة، ذلك يوم مجموع له الناس من الأولين والآخرين للمجازاة ولإعطاء كل ذي حق حقَّه، وذلك يوم مشهود يشهده الله ﷻ وتشهده الملائكة الكرام، ويشهده المؤمن والكافر وجميع المخلوقين، وهو آتٍ لا محالة وواقع لا مرد له، ولكن يؤخر لأجل حدَّده الله ﷻ ووقَّته، وحدَّد له موعدًا ويوم يأت هذا اليوم لا تكلم نفسٌ إلا إذا أذن الله لها بالكلام، وعنده وفيه هنالك من العباد من هو شقي، وهنالك منهم من هو سعيد ثم بيَّن الله ﷻ مصائر هؤلاء وأولئك فقال: فأما الذين شقوا في دنياهم بإسرافهم على أنفسهم وارتكاب ما نهى الله عنه وترك أوامره ﷻ ففي النار لهم فيها زفير، وهو الصوات صوت الهواء الخارج من أنف الإنسان وفمه، وكذا لهم فيها شهيق، وهو الهواء الذي يُتنفس ويدخل الفم والأنف ومن ثمَّ الصدر، وهم في هذا خالدون ما دامت السموات والأرض قائمتين، ولقد قيل إن المراد بالسموات السموات يوم القيامة، وكذا الأرض، فإن الله

قال: ﴿﴾، أما قوله: ﴿﴾ فإذا نزلناه على أهل الكفر فقد بيَّن الله ﷻ في مواطن أُخر أنهم لا يخرجون من النار ولا يموتون فيها ولا يحيون.

أما أهل الإيمان والتوحيد الذي أسرفوا على أنفسهم فإن يدخلون النار زمنًا ثم يخرجون منها.

وقوله تعالى: ﴿﴾ لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

أما الذين سُعدوا في الدنيا وعملوا بأعمال أهل السعادة فيها فإنهم يوم القيامة في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض قائمتان، والمراد بالسموات والأرض، تلك التي عناها الله بقوله: ﴿﴾ فإنها السموات الجديدة والأرض الجديدة.

وقوله تعالى: ﴿﴾ وقد أخبر الله أنه شاء أن يخلَّدوا فيها ولا يخرجون منها، وعطاؤه لهم فيها غير منقطع بل متواصل كما قال: ﴿﴾.

ثم ينهى الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ عن التشكك في بطلان ما عليه هؤلاء الكفار من عبادة الأصنام والأوثان فيقول تعالى: ﴿﴾ المشركون الوثنيون فإنهم لايعبدون إلهًا كما كان آباؤهم يعبدون من قبل وإنا لموفوهم جزاءهم غير منقوص، قيل: المراد أرزاقهم في الدنيا، وقيل: جزاؤهم الأخروي. والله أعلم.

وهذه أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وكما أخذت، أيها الناس، أهلَ هذه القرى التي اقتصصت عليك نبأ أهلها بما أخذتُهم به من العذاب، على خلافهم أمري، وتكذيبهم رسلي، وجحودهم آياتي، فكذلك أخذي القرَى وأهلها إذا أخذتهم

بعقابي، وهم ظلمة لأنفسهم بكفرهم بالله، وإشراكهم به غيره، وتكذيبهم رسله ، ﴿إنَّ أخذه أليم﴾، يقول: إن أخذ ربكم بالعقاب من أخذه ، ﴿أليم﴾، يقول: موجع ، ﴿شديد﴾ الإيجاع.

وهذا من الله تحذيرٌ لهذه الأمة، أن يسلكوا في معصيته طريق من قبلهم من الأمم الفاجرة، فيحل بهم ما حلَّ بهم من المثُلات.

وأورد حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يُمْلي - ورُبَّما، قال: يمهل - الظالمَ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتُه**». ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.

يقول تعالى ذكره: إن في أخذنا من أخذنا من أهل القرى التي اقتصصنا خبرَها عليكم أيها الناس لآية، يقول: لعبرة وعظة، لمن خاف عقاب الله وعذابه في الآخرة من عباده، وحجةً عليه لربه، وزاجرًا يزجره عن أن يعصي الله ويخالفه فيما أمره ونهاه.

وقيل: بل معنى ذلك: إن فيه عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، بأن الله سيفي له بوَعْده.

وأورد بإسناد صحيح ابن زيد في قوله: ﴿إن في ذلك لآيه لمن خاف عذاب الآخرة﴾، إنا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة، كما وفينا للأنبياء: أنا ننصرهم.

قال الطبري:

وقوله: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس ﴾، يقول تعالى ذكره: هذا اليوم ،

يعني يوم القيامة ، ﴿يوم مجموع له الناس﴾، يقول: يحشر الله له الناس من قبورهم، فيجمعهم فيه للجزاء والثواب والعقاب ، ﴿وذلك يوم مشهود﴾، يقول: وهو يوم تَشهده الخلائق، لا يتخلَّف منهم أحدٌ، فينتقم حينئذ ممن عصى الله وخالف أمره وكذَّب رُسُلَه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾.

يقول تعالى ذكره: وما نؤخّر يوم القيامة عنكم أن نجيئكم به إلا لأن يُقْضَى، فقضى له أجلا فعدّه وأحصَاه، فلا يأتي إلا لأجله ذلك، لا يتقدم مجيئه قبل ذلك ولا يتأخر.

ويقول تعالى ذكره: يوم يأتي يوم القيامة، أيها الناس، وتقوم الساعة، لا تكلم نفس إلا بإذن رَبّها.

وقيل:﴿لا تكلم﴾، وإنما هي «لا تتكلم»، فحذف إحدى التاءين اجتزاء بدلالة الباقية منهما عليها.

وقوله:﴿فمنهم شقيّ وسعيد﴾، يقول: فمن هذه النفوس التي لا تكلم يوم القيامة إلا بإذن ربها، شقيٌّ وسعيد ، وعاد على «النفس»، وهي في اللفظ واحدة، بذكر الجميع في قوله:﴿فمنهم شقي وسعيد﴾.

يقول تعالى ذكره:﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير﴾ ، وهو أوّل نُهاق الحمار وشبهه ، ﴿وشهيق﴾، وهو آخر نهيقه إذا ردده في الجوف عند فراغه من نُهاقه.

وقوله: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾، يعني تعالى ذكره بقوله:﴿خالدين فيها﴾، لابثين فيها ، ويعني بقوله:﴿ما دامت السموات والأرض﴾، أبدًا.

وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبدًا، وكذلك يقولون: «هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار». و«ما سمر ابنا سَمِير»، و«ما لألأت العُفْرُ بأذنابها» يعنون بذلك كله «أبدا». فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم فقال: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾، والمعنى في ذلك: خالدين فيها أبدًا.

ثم قال: ﴿إلا ما شاء ربك﴾، واختلف أهل العلم والتأويل في معنى ذلك فقال بعضهم: هذا استثناءٌ استثناه الله في بأهل التوحيد، أنه يخرجهم من النار إذا شاء، بعد أن أدخلهم النار.

وأورد بإسنادٍ يصحح عن قتادة: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾، والله أعلم بثَنِيَّته. ذكر لنا أن ناسًا يصيبهم سَفْعٌ من النار بذنوب أصابتهم، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم: «الجهنَّميُّون».

وقال آخرون: الاستثناء في هذه الآية في أهل التوحيد، إلا أنهم قالوا: معنى قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾، إلا أن يشاء ربك أن يتجاوز عنهم فلا يدخلهم النار. ووجهوا الاستثناء إلى أنه من قوله: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار﴾، ﴿إلا ما شاء ربك﴾، لا من «الخلود».

وقال آخرون: عنى بذلك أهل النار وكلَّ من دخلها.

وقال آخرون: أخبرنا الله بمشيئته لأهل الجنة، فعرَّفنا معنى ثُنْياه بقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، أنها في الزيادة على مقدار مدَّة السموات والأرض. قال: ولم يخبرنا بمشيئته في أهل النار. وجائز أن تكون مشيئته في

الزيادة، وجائز أن تكون في النقصان.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، قال: وأخبرنا بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب، القولُ الذي ذكرنا عن قتادة والضحاك: من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر أنه يدخلهم النار، خالدين فيها أبدًا إلا ما شاءَ من تركهم فيها أقل من ذلك، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة، كما قد بينا في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصحة في ذلك، لأن الله جل ثناؤه أوعد أهل الشرك به الخلود في النار، وتظاهرت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، فغير جائز أن يكون استثناءً في أهل الشرك، وأن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ أن الله يدخل قومًا من أهل الإيمان به بذنوبٍ أصابوها النارَ، ثم يخرجهم منها فيدخلهم الجنة، فغير جائز أن يكون ذلك استثناء في أهل التوحيد قبل دُخولها، مع صحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا، وأنّا إن جعلناه استثناء في ذلك، كنا قد دخلنا في قول من يقول: «**لا يدخل الجنة فاسق، ولا النار مؤمن**»، وذلك خلاف مذاهب أهل العلم، وما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ. فإذا فسد هذان الوجهان، فلا قول قال به القُدْوة من أهل العلم إلا الثالث.

وقوله: ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾، يقول تعالى ذكره: إن ربك، يا محمد،

لا يمنعه مانع من فعل ما أراد فعله بمن عصاه وخالف أمره، من الانتقام منه، ولكنه يفعل ما يشاء فعلَه، فيمضي فيهم وفيمن شاء من خلقه فعلُه وقضاؤهُ.

...ثم قال:

وأما الذين سعدوا برحمة الله، فهم في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، يقول: أبدًا ، ﴿إلا ما شاء ربك﴾.

فاختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: ﴿إلا ما شاء ربك﴾، من قدر ما مكثوا في النار قبل دخُولهم الجنة. قالوا: وذلك فيمن أخرج من النار من المؤمنين فأدخل الجنة.

وقال آخرون: معنى ذلك:﴿إلا ما شاء ربك﴾، من الزيادة على قدر مُدّة دوام السموات والأرض، قالوا: وذلك هو الخلود فيها أبدًا.

واختلف أهل العربية في وجه الاستثناء في هذا الموضع.

فقال بعضهم في ذلك معنيان:

أحدهما: أن تجعله استثناءً يستثنيه ولا يفعله، كقولك: «والله لأضربنَّك إلا أن أرى غير ذلك»، وعزمُك على ضربه. قال: فكذلك قال:﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾، ولا يشاؤه، وهو أعلم.

قال: والقول الآخر: أنّ العرب إذا استثنت شيئًا كثيرًا مع مثله، ومع ما هو أكثر منه، كان معنى «إلا » ومعنى «الواو» سواء. فمن كان قوله:﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ ، سوى ما شاء الله من زيادة الخلود، فيجعل «إلا» مكان «سوى» فيصلح، وكأنه قال: «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما زادهم من الخلود والأبد». ومثله في الكلام أن تقول: لي عليك ألف إلا ألفين اللذين مِنْ قِبَل فلان»، أفلا ترى أنه في المعنى: لي عليك

ألفٌ سِوَى الألفين] ؟ قال: وهذا أحبُّ الوجهين إليّ، لأنّ الله لا خُلْفَ لوعده. وقد وصل الاستثناء بقوله:﴿عطاء غير مجذوذ﴾، فدلَّ على أن الاستثناء لهم بقوله في الخلود غير منقطعٍ عنهم.

وقال آخر منهم بنحو هذا القول. وقالوا: جائز فيه وجه ثالثٌ: وهو أن يكون استثنى من خلودهم في الجنة احتباسهم عنها ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ، إلى أن يصيُروا إلى الجنة، ثم هو خلود الأبد. يقول: فلم يغيبوا عن الجنة إلا بقدر إقامتهم في البرْزَخ.

وقال آخر منهم: جائز أن يكون دوام السموات والأرض، بمعنى: الأبد، على ما تعرف العرب وتستعمل، وتستثنى المشيئة من داومها، لأنَّ أهل الجنة وأهل النار قد كانوا في وقت من أوقاتٍ دوام السموات والأرض في الدنيا، لا في الجنة، فكأنه قال: خالدين في الجنة، وخالدين في النار، دوامَ السماء، والأرض، إلا ما شاء ربُّك من تعميرهم في الدنيا قبلَ ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القولُ الذي ذكرته عن الضحاك، وهو﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾، من قدر مُكْثِهم في النار، من لدن دخلوها إلى أن ادخلوا الجنة، وتكون الآية معناها الخصوص، لأن الأشهر من كلام العرب في «إلا» توجيهها إلى معنى الاستثناء، وإخراج معنى ما بعدها مما قبلها، إلا أن يكون معها دلالةٌ تدلُّ على خلاف ذلك. ولا دلالة في الكلام، أعني في قوله:﴿إلا ما شاء ربك﴾ ، تدلُّ على أن معناها غير معنى الاستثناء المفهوم في الكلام، فيُوَجَّه إليه.

وأما قوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، فإنه يعني: عطاءً من الله غيرَ مقطوع

عنهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تَك في شك، يا محمد، مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الآلهة والأصنام، أنه ضلالٌ وباطلٌ، وأنه بالله شركٌ، ﴿ما يعبد هؤلاء إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾، يقول: إلا كعبادة آبائهم، من قبل عبادتهم لها. يُخبر تعالى ذكره أنهم لم يعبدُوا ما عبدوا من الأوثان إلا اتباعًا منهم منهاج آبائهم، واقتفاءً منهم آثارهم في عبادتهموها، لا عن أمر الله إياهم بذلك، ولا بحجة تبيَّنوها توجب عليهم عبادتها.

ثم أخبر جل ثناؤه نبيَّه ما هو فاعل بهم لعبادتهم ذلك، فقال جل ثناؤه:﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾، يعني: حظهم مما وعدتهم أن أوفّيهموه من خير أو شر، ﴿غير منقوص﴾، يقول: لا أنقصهم مما وعدتهم، بل أتمّم ذلك لهم على التمام والكمال.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم، ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته**»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين، ونصرة الأنبياء، وإنجائنا المؤمنين

﴿لَآيَةً﴾ أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الدار الآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٣، ١٤]. الآية. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي أولهم وآخرهم كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف:٤٧].

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ وقال: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ الآية. وفي الصحيحين من حديث الشفاعة «**ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم**»(١) وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد كما قال ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

وقال ابن كثير أيضًا:

(١) صحيح: وقد تقدم في البقرة.

ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لا بدّ في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض.

وأورد ابن كثير اختيار الطبري في الاستثناء أن الاستثناء عائد على العُصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط، وقال يوما من الدهر: لا إله إلا الله.

ثم قال ابن كثير:

وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة.

ويقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ ﴾ أي: فمأواهم الجنة، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: ماكثين مقيمين فيها أبدا، ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائمًا، ولهذا «**يلهمون التسبيح والتحميد كما**

يلهمون النَّفس».

وقال الضحاك، والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي: غير مقطوع -قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعًا، أو لبسا، أو شيئًا بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بين هنا أن عذاب أهل النار في النار دائما مردود إلى مشيئته، وأنه بعَدْله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧] كما قال ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وهنا طيب القلوب وثَبَّت المقصود بقوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

وقد جاء في الصحيحين[(١)]: «**يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة، خُلُود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت**».

وفي الصحيحين[(٢)] أيضا: «**فيقال يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهْرَموا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا**».

وقال ابن كثير:

يقول تعالى: ﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ ﴾ المشركون، إنه باطل وجَهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مُستَنَد فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢).

الجزاء فيعذب كافرهم عذابًا لا يعذبه أحدا من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح وجه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ ﴾ فيما يخص أهل الكفر وأهل الإيمان؟

ج: أولًا: وبين يدي بيان وجه الاستثناء أقول، وبالله التوفيق:

هنالك أمور يجب تذكرها، وفي ضوئها تفسر الآية والله المستعان.

أولًا: تواردت النصوص التي تُفيد أن أهل الكفر لن يخرجوا من النار بحالٍ من الأحوال.

ثانيًا: تواردت النصوص التي تفيد أن أهل التوحيد الذين دخلوا النار لكونهم أسرفوا على أنفسهم في الدنيا سيخرجون من النار، وإن تفاوتت مدة إقامتهم فيها.

ثالثًا: ليُعلم، وبلا شك ولا تردد، وإنما هي للتذكرة أن القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

فعلى إثر ذلك أقول، وبالله التوفيق.

للعلماء عدة أقوال في تفسير الاستثناء في قوله تعالى في شأن أهل النار: ﴿ ﴾ والذي عليه الجمهور في هذا الاستثناء أن هؤلاء المعنيين بقوله: ﴿ ﴾ إنما هم أهل التوحيد الذي أسرفوا على أنفسهم ودخلوا النار يبقون فيها إلى الوقت الذي يحدده الله ﷻ لهم.

وهناك أقوال أُخر:

منها: أن الاستثناء هنا، قد وضح الله ﷻ إذ الله أخبر في آيات أخر أن أهل

الكفر لن يخرجوا من النار كقوله تعالى: ﴿﴾ قال تعالى في آية أخرى: ﴿﴾، وهنالك أقوال أُخر ذكر الطبري بعضها فيما تقدم، وسيأتي لها مزيد بيان إن شاء الله.

أما الاستثناء في شأن أهل الإيمان فقد بُيِّن أن الله ﷻ شاء ألا يخرج أهل الجنة من الجنة، كما قال: ﴿﴾ ثم هذه بعض الأقوال التي جمعها ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب زاد المسير، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن الجوزي ﴿زاد المسير﴾:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في الاستثناء المذكور في حق أهل النار سبعة أقوال:

أحدها: أن الاستثناء في حق الموحِّدين الذين يخرجون بالشفاعة، قاله ابن عباس، والضحاك.

والثاني: أنه استثناء لا يفعله، تقول: والله لأضربنَّك إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتك على ضربه، ذكره الفراء، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس: «إلا ما شاء ربك» قال: فقد شاء أن يخلَّدوا فيها. قال الزجاج: وفائدة هذا، أنه لو شاء أن يرحمهم لرحمهم، ولكنه أعلمنا أنهم خالدون أبدًا.

والثالث: أن المعنى: خالدين فيها أبدًا، غير أن الله تعالى يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم، فيرجع الاستثناء إلى تلك الحال، قاله ابن مسعود.

والرابع: أن «إلا» بمعنى «سوى» تقول: لو كان معنا رجل إلا زيد، أي: سوى زيد؛ فالمعنى: خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة، وهذا اختيار الفراء. قال ابن قتيبة: ومثله في الكلام أن تقول: لأُسْكننَّك في هذه الدار حولًا إلا ما شئتَ؛ تريد: سوى ما

شئتَ أن أزيدك.

والخامس: أنهم إذا حُشروا وبُعثوا، فهم في شروط القيامة؛ فالاستثناء واقع في الخلود بمقدار موقفهم في الحساب، فالمعنى: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا مقدار موقفهم للمحاسبة، ذكره الزجاج. وقال ابن كيسان: الاستثناء يعود إلى مكثهم في الدنيا والبرزخ والوقوف للحساب؛ قال ابن قتيبة: فالمعنى: خالدين في النار وخالدين في الجنة دوام السماء والأرض إلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك، فكأنه جعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد على ما كانت العرب تستعمل، وإن كانتا قد تتغيَّران. واستثنى المشيئة من دوامهما، لأن أهل الجنة والنار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السماء والأرض في الدنيا، لا في الجنة، ولا في النار.

والسادس: أن الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيرًا وشهيقًا، إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تُذكر؛ وكذلك لأهل الجنة نعيم مما ذُكر، ولهم مما لم يُذكر ما شاء ربك، ذكره الزجاج أيضًا.

والسابع: أن «إلا» بمعنى «كما» ومنه قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، ذكره الثعلبي.

فأما الاستثناء في حق أهل الجنة، ففيه ستة أقوال:

أحدها: أنه استثناء لا يفعله.

والثاني: أن «إلا» بمعنى «سوى».

والثالث: أنه يرجع إلى وقوفهم للحساب ولبثهم في القبور.

والرابع: أنه بمعنى: إلا ما شاء أن يزيدَهم من النعيم الذي لم يُذكر.

والخامس: أن «إلا» كـ«ما»، وهذه الأقوال قد سبق شرحها.

والسادس: أن الاستثناء يرجع إِلى لبث من لبث في النار من الموحِّدين، ثم أُدخل الجنة، قاله ابن عباس، والضحاك، ومقاتل. قال ابن قتيبة: فيكون الاستثناء من الخلود مُكث أهل الذنوب من المسلمين في النار، فكأنه قال: إِلا ما شاء ربك من إِخراج المذنبين إِلى الجنة، وخالدين في الجنة إِلا ما شاء ربك من إِدخال المذنبين النارَ مدَّةً.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا
يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ
ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى
ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ
﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ
رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ
﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ
كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

[الجن: ١٨-٢٨].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱلۡكِتَٰبَ - كَلِمَةٞ - سَبَقَتۡ - لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ - مُرِيبٖ - وَلَا تَطۡغَوۡاْ - وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ - أَوۡلِيَآءَ - طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ - وَزُلَفٗا - ٱلۡحَسَنَٰتِ - ٱلسَّيِّـَٔاتِ - ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ - فَلَوۡلَا - أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ - مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ - بِظُلۡمٖ - وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ - أَنۢبَآءِ - فُؤَادَكَ - وَمَوۡعِظَةٞ - ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾	التوراة.
﴿كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾	كلمة تكلَّم الله بها وقضاها وكتبها قبل الخلق.
﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾	لحكم بينهم (لحكم على الكافر بالهلاك وأهلكه وللصالح بالفلاح وأكرمه).
﴿مُرِيبٖ﴾	مُحيِّر – مُشكك.
﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾	لا تتجاوزا الحد، لا تعدوا فتحرموا ما أحلَّه الله لكم، ولا تنتهكوا حرمات الله – ولا تظلموا العباد.
﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾	ولا تميلوا – ولا تداهنوا – ولا ترضوا بأعمالهم.
﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾	الطرف الأول: هو الصبح، والطرف الثاني اختلف في تعينه، فقيل: العصر، وقيل: المغرب.
﴿وَزُلَفٗا﴾	ساعات من الليل، وقيل: ساعات الليل الأولى القريبة من النهار، وقيل: صلاة العشاء.

﴿ٱلۡحَسَنَٰتِ ﴾	الصلوات الخمس، وصلاة النافلة أيضًا، وقيل: عموم الأعمال الصالحة.
﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾	الأعمال السيئة المحرمة.
﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾	عِظةٌ للمتعظين.
﴿فَلَوۡلَا﴾	فهلَّا.
﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾	أهل فهم وعقل وعلم ﴿يعقلون عن الله﴾.
﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾	الترف والمال والمعيشة الرغدة التي هم فيها.
﴿بِظُلۡمٍ ﴾	بشرك، وقيل: بظلم منه لعباده.
﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾	مضت كلمة الله وتحققت فيهم مقادير الله.
﴿أَنۢبَآءِ ﴾	أخبار.
﴿فُؤَادَكَ ﴾	قلبك.
﴿وَمَوۡعِظَةٞ ﴾	تذكرة.
﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾	اعملوا على طريقتكم ومنهجكم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

ج: ذلك ـ والله أعلم ـ: ولقد أنزلنا التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فاختلف قومه في شأنها فمنهم من آمن بها وصدَّق، وصدَّق أيضًا بنبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنهم من كفر بها وكذب وجحدها وجحد نبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل لكل أجل كتاب، وقدَّر ذلك في اللوح المحفوظ وتكلَّم به لقضيبين هؤلاء فيما هم فيه يختلفون، ولحُكِم على المكذبين بالهلاك والدمار والعقاب عاجلًا ولكن لكون الله عَزَّ وَجَلَّ قضى أنه سيهلكوا في زمن معين، فلذلك أُخروا وأُجِّلوا، وإن هؤلاء المكذبين لفي شكٍّ من كون التوراة من عند الله شكٍّ مُحير، فلا يزالون من أمرها مرتابين فكما كذبك قومك يا رسول الله، فقد كذَّب قومُ موسى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاصبر يا رسول الله كما صبر نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكل هؤلاء المكذبين سيوفيهم ربهم عَزَّ وَجَلَّ جزاء أعمالهم، وهو سبحانه وتعالى خبير بها لا يخفى عليه شيء منها.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره، مسليًا نبيه في تكذيب مشركي قومه إياه فيما أتاهم به من عند الله، بفعل بني إسرائيل بموسى فيما أتاهم به من عند الله. يقول له تعالى ذكره: ولا يحزنك، يا محمد، تكذيب هؤلاء المشركين لك، وامض لما أمرك به ربُّك من تبليغ رسالته، فإن الذي يفعل بك هؤلاء من ردِّ ما جئتهم به عليك من النصيحة من فعل ضُربائهم من الأمم قبلهم وسنَّةٌ من سُنتهم.

ثم أخبره جل ثناؤه بما فعل قوم موسى به فقال: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾، يعني: التوراة، كما آتيناك الفرقان، فاختلف في ذلك الكتاب قومُ موسى، فكذّب به بعضُهم وصدّق به بعضهم، كما قد فعل قومك بالفرقان من تصديق بعض به، وتكذيب بعض، ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾، يقول تعالى ذكره: ولولا كلمة سبقت، يا محمد، من ربك بأنه لا يعجل على خلقه العذاب، ولكن يتأنى حتى يبلغ الكتاب أجله، ﴿لقضي بينهم﴾، يقول: لقضي بين المكذب منهم به والمصدِّق، بإهلاك الله المكذب به منهم، وإنجائه المصدق به، ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾، يقول: وإن المكذبين به منهم لفي شك من حقيقته أنه من عند الله، ﴿مريب﴾، يقول: يريبهم، فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطلٌ؟ ولكنهم فيه ممترون.

وقال بعد أن أورد بعض القراءات في الآية الكريمة: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا ﴾:

وأصح هذه القراءات مخرجًا على كلام العرب المستفيض فيهم، قراءة من قرأ: «وَإِنَّ» بتشديد نونها، «كُلا لَمَا» بتخفيف «ما» ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ﴾، بمعنى: وإن كل هؤلاء الذين قصَصنا عليك، يا محمد، قصصهم في هذه السورة، لمن ليوفينهم ربك أعمالهم، بالصالح منها بالجزيل من الثواب، وبالطالح منها بالشديد من العقاب، فتكون «ما» بمعنى «مَن» واللام التي فيها جوابًا لـ«إنّ»، واللام في قوله: ﴿ليوفيننم﴾، لام قسم.

وقوله: ﴿إنه بما يعملون خبير﴾، يقول تعالى ذكره: إن ربك بما يعمل هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد، «خبير»، لا يخفى عليه شيء من عملهم، بل يخبرُ ذلك كله ويعلمه ويحيط به، حتى يجازيهم على جميع ذلك جزاءهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولا يهيدنَّك ذلك.

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم.

ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة، أنه لا يعذب أحدا إلا بعدم قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ [الإسراء:١٥]؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه:١٢٩، ١٣٠]. ثم أخبر أن الكافرين في شك -مما جاءهم به الرسول- قوي، فقال ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فقال: ﴿ وَإِنَّ كُلا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها.

وفي هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس:٣٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الكلمة: أن الله ﷻ حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لقضى

بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر. قيل: المراد بين المختلفين في كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدق به ومكذب. وقيل: بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب، ولكن سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أي لفي شك من كتاب موسى فهم في شك من القرآن.

❁ ❁ ❁

س: الآية الكريمة فيها أن الأمور مقدرةٌ وضح ذلك.

ج: إيضاحه من قوله تعالى: ﴿﴾ فمفاده أن الله قدر المقادير من قبل وكتب الآجال، ولولا ذلك لحلَّ العذاب.

❁ ❁ ❁

أوامر لرسول الله ﷺ والمؤمنين لسلامتهم وحفظهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: فالزم يا رسول الله أمر الله عز وجل الذي أمرك به وامتثل هذا الأمر، واجتنب ما نهاك الله عنه، استقم ولا تبالي بانحراف المنحرفين ولا بميل المائلين الزائفين عن الحق، استقم أنت واستقم من آمنوا بك وصدقوك على طريق الحق والصواب ولا تحديوا عنه.

أما قوله تعالى: ﴿﴾.

أحدها: لا تتجاوزوا حد الاستقامة فلا تسلكوا سبيل الغلاة الذين

يحرمون ما أحلَّ الله.

الثاني: لا ترتكبوا ما نهاكم الله عنه.

الثالث: لا تتجبروا على العباد وتظلموهم.

﴿﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿﴾ بصيرٌ بأعمالكم ﷻ.

ولا تميلوا إلى الظلمة والمشركين وتطمئوا إليهم وتعتدوا عليهم طلبًا لنصرتهم، وطلبًا منهم قضاء حوائجكم، فإنكم إن فعلتم مستكم النار وأصابتكم بلفحها وما لكم من دون الله من أولياء يدفعون عنكم العذاب ولا يمنعونكم من العذاب، وحينئذٍ فلن تسلموا ولن تغنموا في آخرتكم ولا في دنياكم ﴿﴾ أي: وصل لله ﷻ طرفي النهار وزلفًا من الليل.

أما قوله: ﴿﴾ فالطرف الأول الفجر، والطرف الثاني فيه خلاف، فمن العلماء من قال إنه المغرب، ومنهم من قال: إنه العصر، ومنهم من قال إنه ﴿الطرف الثاني﴾ الظهر والعصر، والطرف الأول الفجر، وقيل –وسيأتي-: بطرفي النهار ما كان في أول الإسلام من صلاته فقط صلاة الصبح، وصلاة العصر.

أما قوله: ﴿﴾ أي: وساعات من الليل، وقيل: الزلف مأخوذة من الزلفى، وهو القربى، والمراد: هنا القريبة، أي: القريبة من النهار وهي صلاة العشاء، وقيل: صلاة المغرب والعشاء.

وقال بعض أهل العلم: المراد: ساعات الليل عمومًا.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فالحسنات يدخل فيها بالدرجة الأولى الصلاة فهي أعظم ركن في الإسلام بعد الشهادتين، وسبب نزول الآية فيه ذكر الصلاة، وقيل: المراد الصلوات الخمس خاصة، والصواب: الفرض والنفل، والله

أعلم.

وقيل أيضًا: إن المراد بالحسنات، قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وبلا شك فهذه داخلة في الحسنات وهي مكفرات أيضًا.

وقيل: إن الحسنات المراد بها عموم الحسنات من صلاة وذكر وصيام وحج وعمل برٍّ وإصلاح بين الناس ونحو ذلك فهذه الحسنات تُذهب أثر السيئات، فجديرٌ بمن ألَمَّ بسيئة أن يتبعها بحسنة، بل الحسنات فإن الحسنات يُذهبن أثر السيئات.

أما قوله: ﴿﴾ فمعناه ذلك المذكور من الحث على الاستقامة كما أمر الله ﷻ والنهي عن الطغيان والنهي عن الكرون إلى الظالمين، وكذا الحث على إقامة الصلوات طرفي النهار وزلفًا من الليل كل ذلك تذكير ووعظ لمن انتفع بالوعظ والتذكير من المؤمنين.

ثم يحث ربنا ﷻ نبينا ﷺ على الصبر بقوله: ﴿﴾ لا يذهب بثواب عملهم ولا يضيع أجورهم بل يكرمهم ويثيبهم، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاستقم أنت، يا محمد، على أمر ربك، والدين الذي ابتعثك به، والدعاء إليه، كما أمرك ربك، ﴿ومن تاب معك﴾، يقول: ومن رجع معك إلى طاعة الله والعمل بما أمره به ربه من بعد كفره، ﴿ولا تطغوا﴾، يقول: ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه. ﴿إنه بما تعملون بصير﴾، يقول: إن ربكم، أيها الناس، بما تعملون من الأعمال كلِّها، طاعتها ومعصيتها «بصير»، ذو علم بها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو لجميعها

مبصرٌ. يقول تعالى ذكره: فاتقوا الله، أيها الناس، أن يطَّلع عليكم ربكم وأنتم عاملون بخلاف أمره، فإنه ذو علم بما تعلمون، وهو لكم بالمرصاد.

ويقول تعالى ذكره: ولا تميلوا، أيها الناس، إلى قول هؤلاء الذين كفروا بالله، فتقبلوا منهم وترضوا أعمالهم، ﴿فتمسكم النار﴾، بفعلكم ذلك، وما لكم من دون الله من ناصر ينصركم ووليّ يليكم، ﴿ثم لا تنصرون﴾، يقول: فإنكم إن فعلتم ذلك لم ينصركم الله، بل يخلِّيكم من نصرته ويسلط عليكم عدوّكم.

و يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وأقم الصلاة﴾، يا محمد، يعني: صَلِّ، ﴿طرفي النهار﴾، يعني الغداةَ والعشيَّ.

واختلف أهل التأويل في التي عُنِيت بهذه الآية من صَلوات العشيّ، بعد إجماع جميعهم على أن التي عُنيت من صَلاة الغداة، الفجرُ.

فقال بعضهم: عُنيت بذلك صلاة الظهر والعصر. قالوا: وهما من صلاة العشيّ.

وقال آخرون: بل عنى بها صلاة المغرب.

وقال آخرون: عني بها: صلاة العصر.

واختار الطبري أنها صلاة المغرب.

وقال:

وأما قوله: ﴿وزلفًا من الليل﴾، فإنه يعني: ساعاتٍ من الليل.

وهي جمع «زُلْفة»، و«الزلفة»، الساعة، والمنزلة، والقربة، وقيل: إنما سميت «المزدلفة» و«جمع» من ذلك، لأنها منزلٌ بعد عرفة، وقيل سميت بذلك، لازدلاف آدم من عَرَفة إلى حواء وهي بها.

وأورد أقوالًا مفادها أن من العلماء من قال: إنها صلاة العشاء، ومنهم من قال: صلاتي المغرب والعشاء.

قال الطبري:

وقوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، يقول تعالى ذكره: إنّ الإنابة إلى طاعة الله والعمل بما يرضيه، يذهب آثام معصية الله، ويكفّر الذنوب.

ثم اختلف أهل التأويل في الحسنات التي عنى الله في هذا الموضع، اللاتي يذهبن السيئات، فقال بعضهم: هنّ الصلوات الخمس المكتوبات.

وقال آخرون: هو قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، قولُ من قال في ذلك: «**هن الصلوات الخمس**»، لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ وتواترها عنه أنه قال: «**مَثَلُ الصلوات الخمس مَثَلُ نَهْرٍ جَارٍ عَلَى بابِ أَحَدِكم، ينغمس فيه كل يومٍ خمس مرات، فماذا يُبقينَ من دَرَنه؟**»، وأن ذلك في سياق أمر الله بإقامة الصلوات، والوعدُ على إقامتها الجزيلَ من الثواب عَقيبها، أولى من الوعد على ما لم يجر له ذكر من صالحات سائر الأعمال، إذا خُصّ بالقصد بذلك بعضٌ دون بعض.

وقوله:﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾، يقول تعالى ذكره: هذا الذي أوعدت عليه من الركون إلى الظلم، وتهددت فيه، والذي وعدت فيه من إقامة الصلوات اللواتي يُذهبن السيئات، تذكرة ذكّرت بها قومًا يذكُرون وعد الله، فيرجُون ثوابه ووعيده، فيخافون عقابه، لا من قد طبع على قلبه، فلا يجيب داعيًا، ولا يسمع زاجرًا.

وذكر أن هذه الآية نزلت بسبب رجل نالَ من غير زوجته ولا ملك يمينه بعضَ ما يحرم عليه، فتاب من ذنبه ذلك.

وأورد الروايات في هذا الباب، وكذا أسباب نزول الآية الكريمة، وسأوردها إن شاء الله.

ثم قال الطبري:

في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: واصبر، يا محمد، على ما تلقى من مشركي قومك من الأذى في الله والمكروه، رجاءَ جزيل ثواب الله على ذلك، فإن الله لا يضيع ثوابَ عمل من أحسن فأطاع الله واتبع أمره، فيذهب به، بل يوَفّره أحوجَ ما يكون إليه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مَصرَعة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وأورد أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

منها: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم، ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

وقال بعد أن أورد أقوالًا في تفسير: ﴿﴾:

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضًا، في قول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم، التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمدا ﷺ، ومن معه، من المؤمنين، أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة، وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا ﴾ أي: لا تميلوا ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فإنكم، إذا ملتم إليهم، ووافقتموهم على ظلمهم، أو رضيتم ما هم عليه من الظلم ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئا، من ثواب الله.

﴿ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه الآية:

التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون، الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟!! نسأل الله العافية من الظلم.

يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا، صلاة الفجر، وصلاتا الظهر والعصر، ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ ويدخل في ذلك، صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنها مما تزلف العبد، وتقربه إلى الله تعالى.

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي: فهذه الصلوات الخمس، وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي: مع أنها حسنات تقرب إلى الله، وتوجب الثواب، فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك: الصغائر، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، مثل قوله: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»، بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾.

ذلك لعل الإشارة، لكل ما تقدم، من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم، وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلى الذين ظلموا.

والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات، الجميع ﴿ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ يفهمون بها ما أمرهم الله به، ونهاهم عنه، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات، ولكن تلك الأمور، تحتاج إلى مجاهدة النفس، والصبر عليها، ولهذا قال:

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله، وعن معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر.

﴿ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم، بأحسن ما كانوا يعملون، وفي هذا ترغيب عظيم، للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله، كلما ونت وفترت.

❁ ❁ ❁

س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؟

ج: أخرج البخاري ومسلم[1] من حديث ابن مسعود؛ أن رجلا أصاب من امرأة قُبْلَة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل: إلى هذا يا رسول الله؟ قال: «**لجميع أمتي كلهم**».

وعند مسلم وأحمد[2] من حديث ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أني لم أجامعها، قَبَّلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئا، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصرَه ثم قال: «**ردوه عليّ**». فردّوه عليه، فقرأ عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ فقال معاذ -وفي رواية عمر-: يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «**بل للناس كافة**».

---

(١) البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣).

(٢) مسلم (٢٧٦٣)، وأحمد (١/ ٤٤٥، ٤٤٩).

❁ ❁ ❁

الصلوات كفارات للذنوب

س: اذكر بعض ما يدل على أن الصلوات تكفر الذنوب؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ ﴾، وقد تقدم سبب نزولها.

وفي الصحيحين[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرًا غَمْرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقي من درنه شيئا؟» قالوا: لا يا رسول الله: قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا».**

وقال مسلم في صحيحه[(٢)]: حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قالا حدثنا ابن وَهْب، عن أبي صخر: أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حَدَثه عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكَفِّرَات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».**

وقوله تعالى: ﴿ ﴾.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًّا.

وفي الصحيحين[(٣)] عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وُضُوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».**

---

(١) البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٢٨٣).

(٢) مسلم (٢٣٣).

(٣) انظر البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦).

❁ ❁ ❁

الحث على النهي عن الفساد في الأرض

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم-: فهلَّا كان من الأمم التي تقدمتكم والقرون التي سبقتكم أهل فضل وأهل خير وأصحاب عقلٍ وفهم ينهون عن الفساد في الأرض، لكان الله ﷻ أنقذ بهم أممهم وسلمها بسببهم، ولم يكن هذا موجودًا إلا قليلًا نادرًا، وهؤلاء القليلون هم الذين أنجاهم الله وسلمهم كما قال تعالى: ﴿ ﴾.

ولكن أهل الظلم من كل أمة مضوا فيما هم عليه من الترف والفساد في الأرض والتعالي على الخلق وكانوا مجترمين للذنوب والجرائم والشرك والفساد.

أما قوله تعالى: ﴿ ﴾ بظلم منه للعباد، بل أهلكهم وهم لأنفسهم ظالمين، وهم في الأرض مفسدون مستحقون للعقوبات.

هذا، ومن أهل العلم من قال المعنى، وما كان ربك مهلك القرى بسبب شركها فقط في الدنيا إذا كانوا قائمين بالعدل فيما بينهم مصلحين في الأرض، ولكن يهلكهم إذا انضم إلى الشرك ظلم آخر كما صنع قوم لوط، وكما صنع قوم فرعون، وكما صنع قوم شعيب من تطفيف المكيال والميزان إلى غير ذلك فإذا ارتكبوا جرمًا إضافة إلى الشرك حلَّ بهم العقاب والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فهلا كان من القرون الذين قصصت عليك نبأهم في هذه السورة، الذين أهلكتهم بمعصيتهم إياي، وكفرهم برسلي من قبلكم. ﴿أولو بقية﴾، يقول: ذو بقية من الفهم والعقل، يعتبرون مواعظَ الله ويتدبرون حججه، فيعرفون ما لهم في الإيمان بالله، وعليهم في الكفر به ، ﴿ينهون عن الفساد في الأرض﴾، يقول: ينهون أهل المعاصي عن معاصيهم، وأهل الكفر بالله عن كفرهم به، في أرضه ، ﴿إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾، يقول: لم يكن من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا يسيرًا، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله من عذابه، حين أخذ من كان مقيمًا على الكفر بالله عذابُه ، وهم اتباع الأنبياء والرسل.

ونصب «قليلا» لأن قوله: ﴿إلا قليلا﴾ استثناء منقطع مما قبله، كما قال: ﴿إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ﴾، [سورة يونس: ٩٨].

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾، أي: لم يكن من قبلكم من ينهى عن الفساد في الأرض ، ﴿إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾.

وقوله: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾، يقول تعالى ذكره: واتبع الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ما أترفوا فيه.

وقال:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر تعالى ذكره: أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت فكفروا بالله، اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا وكفروا بالله، واتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا وصدوا عن سبيله.

وذلك أن المترف في كلام العرب: هو المنعم الذي قد غُذِّي باللذات، ومنه قول الراجز:

نُهْدِي رُءُوسَ المُتْرَفِينَ الصُّدَّادْ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُمْتَادْ

وقوله: ﴿وكانوا مجرمين﴾، يقول: وكانوا مكتسبي الكفر بالله.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: وما كان ربك، يا محمد، ليهلك القرى، التي أهلكها، التي قَصَّ عليك نبأها، ظُلْمًا وأهلها مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربّهم، ظلمًا، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله وتماديهم في غيِّهم، وتكذيبهم رُسُلهم، وركوبهم السيئات.

وقد قيل: معنى ذلك: لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله. وذلك قوله «بظلم» يعني: بشرك، ﴿وأهلها مصلحون﴾، فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطَون الحقّ بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.

وقوله: ﴿ إِلا قَلِيلا ﴾ أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غِيَره، وفجأة نِقَمه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفي الحديث: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب**»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾.

وقوله: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ، ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١]، وقال ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر تعالى، إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا، من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جدا.

وغاية الأمر، أنهم نجوا، باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، وبكون حجة الله أجراها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنة

﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أي: اتبعوا ما هم فيه من

النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلا.

﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي: ظالمين، باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب. وفي هذا، حث لهذه الأمة، أن يكون فيهم بقايا مصلحون، لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون، إماما في الدين، إذا جعل عمله خالصا لرب العالمين.

أي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرون عليه، فما كان الله ليهلكهم، إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل، أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ﴾ أي فهلا كان. ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي من الأمم التي قبلكم. ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر. ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم. ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات ؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل: ولولا ههنا للنفي ؛ أي ما كان من قبلكم ؛ كقوله: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ [يونس: ٩٨] أي ما كانت. ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾استثناء منقطع ؛ أي لكن قليلا. ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قوم يونس ؛ لقوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾. وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا وعصوا. ﴿مَا

أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي أهل القرى. ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**». وقد تقدم.

وقيل: المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهم، أي ما أهلك قوما إلا بعد إعذار وإنذار. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح؛ لأنه تصرف في ملكه؛ دليله قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]. وقيل: المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي مخلصون في الإيمان. فالظلم المعاصي على هذا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولو شاء الله يا رسول الله لجعل الناس كلهم على ملةٍ واحدةٍ، على الإسلام أو على الكفر، ولكن قدَّر الله وشاء أن يكونوا مختلفين، كما قال: ﴿﴾ وكما قال: ﴿﴾ وهكذا فإنهم لا يزالون مختلفين، منهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم كذلك الطائع المنقاد لشرع الله، ومنهم المنحرف المعوَّج عن الشريعة الغراء المتبع لهواه لكن من رحمهم الله من أهل الإسلام فإنهم مستقيمون على أمر الله ليس بينهم تباغض ولا اختلاف.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ خلقهم ومنهم شقيٌّ وسعيد وقيل: خلقهم للرحمة كي يرحمهم ولكنهم حادوا عن الطريق إلا من رحم الله.

وقيل: خلقهم ليعبدوه ولكنهم اختلفوا.

أما قوله: ﴿﴾ أي: وتحققت كلمة الله ﷻ إذ الله قضى أن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربك، يا محمد، لجعل الناس كلها جماعة واحدة على ملة واحدة، ودين واحد.

وقوله: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾، يقول تعالى ذكره: ولا يزال النَّاس مختلفين ، ﴿إلا من رحم ربك﴾.

ثم اختلف أهل التأويل في «الاختلاف» الذي وصف الله الناس أنهم لا يزالون به.

فقال بعضهم: هو الاختلاف في الأديان ، فتأويل ذلك على مذهب هؤلاء: ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتى، من بين يهوديّ ونصرانيّ،

ومجوسي، ونحو ذلك.

وقال قائلو هذه المقالة: استثنى الله من ذلك من رحمهم، وهم أهل الإيمان.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا يزالون مختلفين في الرزق، فهذا فقير وهذا غني.

وقال بعضهم: مختلفين في المغفرة والرحمة، أو كما قال.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك، بالصواب قولُ من قال: معنى ذلك: «ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملل وأهواء شتى، إلا من رحم ربك، فآمن بالله وصدق رسله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله».

وإنما قلت ذلك أولى بالصواب في تأويل ذلك، لأن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله:﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، ففي ذلك دليلٌ واضح أن الذي قبله من ذكر خبره عن اختلاف الناس، إنما هو خبرٌ عن اختلاف مذموم يوجب لهم النار، ولو كان خبراً عن اختلافهم في الرزق، لم يعقّب ذلك بالخبر عن عقابهم وعَذابهم.

وأما قوله:﴿ولذلك خلقهم﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله:

فقال بعضهم: معناه: وللاختلاف خلقهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وللرحمة خلقهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ من قال: وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم، لأن الله جل ذكره ذكر صنفين من خلقه: أحدهما أهل

اختلاف وباطل، والآخر أهل حق، ثم عقَّب ذلك بقوله:﴿ولذلك خلقهم﴾، فعمّ بقوله:﴿ولذلك خلقهم﴾، صفة الصنفين، فأخبر عن كل فريق منهما أنه ميَسَّر لما خلق له.

فإن قال قائل: فإن كان تأويل ذلك كما ذكرت، فقد ينبغي أن يكون المختلفون غير ملومين على اختلافهم، إذ كان لذلك خلقهم ربُّهم، وأن يكون المتمتِّعون هم الملومين؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبت، وإنما معنى الكلام: ولا يزال الناس مختلفين بالباطل من أديانهم ومللهم،﴿إلا من رحم ربك﴾، فهداه للحقّ ولعلمه، وعلى علمه النافذ فيهم قبل أن يخلقهم أنه يكون فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد خلقهم، فمعنى اللام في قوله:﴿ولذلك خلقهم﴾ بمعنى «على» كقولك للرجل: أكرمتك على برك بي، وأكرمتك لبرك بي.

وأما قوله:﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، لعلمه السابق فيهم أنهم يستوجبون صليها بكفرهم بالله، وخلافهم أمره.

وقوله:﴿وتمت كلمة ربك﴾، قسم كقول القائل: حلفي لأزورنك، وبدًا لي لآتينك، ولذلك تُلُقِّيَت بلام اليمين.

وقوله:﴿من الجنة﴾، وهي ما اجتَنَّ عن أبصار بني آدم، ﴿والناس﴾، يعني: وبنى آدم.

وقيل: إنهم سموا «الجنة»، لأنهم كانوا على الجنان.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كُلِّهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

[يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي: ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

قال عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ ﴾ في الهدى. وقال الحسن البصري: ﴿ مُخْتَلِفِينَ ﴾ في الرزق، يُسخِّر بعضهم بعضا، والمشهورُ الصحيح الأول.

وقوله: ﴿ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «**إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة**». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

وقال عطاء: ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ يعني: الحنيفيَّة.

وقال قتادة: أهلُ رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن البصري -في رواية عنه-: وللاختلاف خَلَقهم.

---

(١) الذي أراه في القدر الثابت الصحيح من هذا الحديث إلى قوله: «**وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»، أما قوله: «**كلها في النار...**» فضعيفةٌ، والله أعلم.

وأورد أقوالًا أُخر منها لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة ولم يخلقهم للعذاب.

قال: وقيل: بل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم.

... وذكر أقوالًا وقال:

وقال ابن وَهْب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة والفراء.

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين[(١)] عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضَعَفَةُ الناس وسَقَطُهم؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عَزَّ وَجَلَّ للجنة، أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه ربّ العزة قَدمه، فتقول: قَطْ قط، وعزتك**».

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين

---

(١) البخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق، فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم، سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم، فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أي: اقتضت حكمته، أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد، عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿ وَ ﴾ لأنه ﴿ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلا يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾؟

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: ونقص عليك من أنباء الرسل كل ما يثبت الله به قلبك ويُعينك به على الرسالة وتحمل أعبائها، وجاءك في هذه السورة الخبر

الحق من ربك والقول الحق والقصص الحق من ربك ﷻ، وجاءتك فيها أيضًا موعظة يتعظ بها أهل الإيمان، وتذكير يتذكرون به فاقبله وليقبله المؤمنون.

وقل للذين لا يؤمنون بالله ولا يقرون له بالوحدانية ولا يقرون لك بالرسالة اعملوا على طريقتكم ومنهجكم متمكنين في ذلك بزعمكم، فإننا عاملون على مكانتنا ومنهجنا، وانتظروا ماذا سيحلُّ بكم وماذا سيحلُّ بنا وسننتظر نحن كذلك ولله غيب السموات والأرض، قيل: المراد ولله علم الغيب في السموات والأرض، وقيل: لله ما يكون من أمرٍ يحدث في السماء أو في الأرض من مطر وقذف وخسف ونبات وكل ما من شأنه أن يكون مستقبليًّا من أمر السموات والأرض وغائبًا منهما فضلًا عن كونه يعلم ما مضى وما هو كائن.

وقيل: المعنى، ولله خزائن السموات والأرض.

أما قوله: ﴿﴾ فكل شيء مرده ومرجعه إلى الله يقضي بالذي يشاء ويفعل الذي يريد، فاستقم على عبادته وطاعته والخضوع له، واعمد عليه في شؤونك كلها، وما ربك بغافلٍ عما تعملون، بل هو بصير عالم بكل عملٍ يُعمل، وبكل قول، وبكل تفكير، وسيجازي كلًّا بما عمل.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره:﴿وكلا نقصّ عليك﴾، يا محمد، ﴿من أنباء الرسل﴾، الذين كانوا قبلك، ﴿ما نثبت به فؤادك﴾، فلا تجزع من تكذيب من كذبك من قومك، وردَّ عليك ما جئتهم به، ولا يضق صدرك، فتترك بعض ما أنزلتُ إليك

من أجل أن قالوا: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾؟ إذا علمت ما لقي من قبلك من رسلي من أممها.

وأما قوله: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله:

فقال بعضهم: معناه: وجاءك في هذه السورة الحق.

وقال آخرون: معنى ذلك: وجاءك في هذه الدنيا الحق.

وأولى التأويلين بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: وجاءك في هذه السورة الحق، لإجماع الحجة من أهل التأويل، على أن ذلك تأويله.

فإن قال قائل: أو لم يجيء النبي ﷺ الحق من سور القرآن إلا في هذه السورة، فيقال: وجاءك في هذه السورة الحق؟

قيل له: بلى، قد جاءه فيها كلِّها.

فإن قال: فما وجه خصُوصه إذًا في هذه السورة بقوله: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ ؟ قيل: إن معنى الكلام: وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك في سائر سور القرآن ، أو إلى ما جاءك من الحق في سائر سور القرآن، لا أن معناه: وجاءك في هذه السورة الحق دون سائر سور القرآن.

وقوله: ﴿وموعظة﴾ يقول: وجاءك موعظةٌ تعظ الجاهلين بالله، وتبين لهم عبره ممن كفر به وكذب رسله ، ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ يقول: وتذكرة تذكر المؤمنين بالله ورسله، كي لا يغفلوا عن الواجب لله عليهم.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل، يا محمد، للذين لا يصدّقونك ولا يقرُّون بوحدانية الله ، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾، يقول: على هِينَتكم وتمكنكم ما أنتم عاملوه فإنا عاملون ما نحن عاملوه من الأعمال التي أمرنا الله بها ، وانتظروا ما وعدكم الشيطان، فإنا منتظرون ما وعدنا الله من حربكم

ونصرتنا عليكم.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولله، يا محمد، ملك كل ما غاب عنك في السموات والأرض فلم تطلع ولم تعلمه، ولم تعلمه، كل ذلك بيده وبعلمه، لا يخفى عليه منه شيء، وهو عالم بما يعمله مشركو قومك، وما إليه مصير أمرهم، من إقامة على الشرك، أو إقلاعٍ عنه وتوبة ، ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾، يقول: وإلى الله مَعَادُ كل عامل وعمله، وهو مجازٍ جميعَهم بأعمالهم.

﴿فاعبده﴾، يقول: فاعبد ربك يا محمد ، ﴿وتوكل عليه﴾، يقول: وفوِّض أمرك إليه، وثق به وبكفايته، فإنه كافي من توكل عليه.

وقوله:﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾، يقول تعالى ذكره: وما ربك، يا محمد، بساه عما يعمل هؤلاء المشركون من قومك، بل هو محيط به، لا يعزب عنه شيء منه، وهو لهم بالمرصاد، فلا يحزنك إعراضهم عنك، ولا تكذيبهم بما جئتهم به من الحقّ، وامض لأمر ربّك، فإنك بأعيننا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين -كل هذا مما نثبت به فؤادك -يا محمد -أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسْوةً.

وقوله: ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أي: في هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. وعن الحسن -في رواية عنه -وقتادة: في هذه الدنيا.

والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصُ حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون.

يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي: على طريقتكم ومنهجكم، ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

ويخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وَسيُوَفِّى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه.

وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ «كلا» نصب بـ «نقص» معناه وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك. وقال الأخفش: «كلا» حال مقدمة، كقولك: كلا ضربت القوم. ﴿ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتا ويقينا. وقال ابن

عباس: ما نشد به قلبك. وقال ابن جريج: نصبر به قلبك حتى لا تجزع. وقال أهل المعاني: نطيب، والمعنى متقارب. و«ما» بدل من «كلا» المعنى: نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي في هذه السورة ؛ عن ابن عباس وأبي موسى وغيرهما ؛ وخص هذه السورة لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار. وقيل: خصها بالذكر تأكيدا وإن كان الحق في كل القرآن. وقال قتادة والحسن: المعنى في هذه الدنيا، يريد النبوة. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموعظة ما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشريف لهذه السورة ؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التخصيص. ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون ؛ وخص المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، وقد تقدم معناه.

قوله تعالى: - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي غيبهما وشهادتهما ؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن عباس: خزائن السماوات والأرض. وقال الضحاك: جميع ما غاب عن العباد فيهما. وقال الباقون: غيب السماوات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض. وقال أبو علي الفارسي: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي علم ما غاب فيهما ؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعا ؛ لأنه حذف حرف الجر ؛ تقول: غبت في الأرض وغبت ببلد كذا.. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي يوم القيامة، إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص «يرجع» بضم الياء وبفتح

الجيم ؛ أي يرد. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي الجأ إليه وثق به. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي يجازي كلا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة. الباقون بياء على الخبر. قال الأخفش سعيد: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ إذا لم يخاطب النبي ﷺ معهم ؛ قال: بعضهم وقال: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء لأنه خاطب النبي ﷺ وقال: قل لهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة «هود» من قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة.

قال ابن الجوزي ﴿زاد المسير﴾:

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ في المشار إليه بـ«هذه» أربعة أقوال:

أحدها: أنها السورة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، ورواه شيبان عن قتادة.

والثاني: أنها الدنيا، فالمعنى: وجاءك في هذه الدنيا، رواه سعيد عن قتادة؛ وعن الحسن كالقولين.

والثالث: أنها الأقاصيص المذكورة.

والرابع: أنها هذه الآية بعينها، ذكر القولين ابن الأنباري.

وفي المراد بالحق هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها البيان.

والثاني: صدق القصص والأنباء.

والثالث: النبوة.

فإن قيل: أليس قد جاءه الحق في كل القرآن، فلم خص هذه السورة؟

فالجواب أنا إن قلنا: إن الحق النبوة، فالإشارة ب «هذه» إلى الدنيا،

فيكون المعنى: وجاءك في هذه الدنيا النبوة، فيرتفع الإشكال. وإن قلنا: إنها السورة، فعنه أربعة أجوبة:

أحدها: أن المراد بالحق البيان، وهذه السورة جمعت من تبيين إهلاك الأمم، وشرح مآلهم، ما لم يجمع غيرها، فبان أثر التخصيص، وهذا مذهب بعض المفسرين.

والثاني: أن بعض الحق أوكد من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا، ولهذا يقول الناس: فلان في الحق: إذا كان في الموت، وإن لم يكن قبله في باطل، ولكن لتعظيم ما هو فيه، فكأن الحق المبين في هذه السورة أجلى من غيره، وهذا مذهب الزجاج.

والثالث: أنه خص هذه السورة بذلك لبيان فضلها، وإن كان في غيرها حق أيضًا، فهو كقوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وهذا مذهب ابن الأنباري.

والرابع: أن المعنى: وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك من سائر السور، قاله ابن جرير الطبري.

قوله تعالى: ﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يتعظون إذا سمعوا هذه السورة وما نزل بالأمم فتلين قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ هذا تهديد ووعيد، والمعنى: اعملوا ما أنتم عاملون، فستعلمون عاقبة أمركم، ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما يعدكم الشيطان ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما يعدنا ربنا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿تيسير الكريم الرحمن﴾:

لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء، ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر

ذلك، فقال: ﴿ وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به.

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ ﴾ السورة ﴿ الْحَقُّ ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان، فلا تنفعهم المواعظ، وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بعد ما قامت عليهم الآيات، ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي: حالتكم التي أنتم عليها ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على ما كنا عليه.

﴿ وَانْتَظِرُوا ﴾ ما يحل بنا ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده، نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه

بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه، وجزاؤه.